إنسانيات

مكتبة ١١٨١

خوان خاثينتو مونيوث رنخيل

تاريخ الكذب

ترجمة: طه زياده






تاريخ الكذب

Author: Juan Jacinto Muñoz-Rengel

Una Historia De La Mentira

Translated from Spanish by:
Taha Ziada

ترجمها عن الإسبانية:
طه زياده

Book Design:
Sarwar Murad

الإخراج الفني:
سرور مراد

Book Cover Design:
Markly
www.markly.net

تصميم الغلاف:
ماركلي

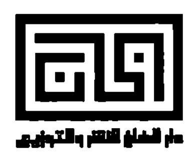
مكتبة
t.me/soramnqraa

28 5 23

الطبعة الأولى | سبتمبر 2022

ISBN: 978-9921-712-56-8

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:
1024-2022



+965 99462291 / +965 51088000


@DarAlkhan_kw

info@daralkhan.com

مكتبة | 1181

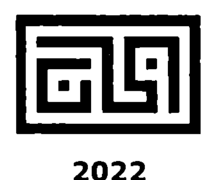
إنسانيات

تاريخ الكذب

خوان خاثينتو مونيوث رنخيل

ترجمة

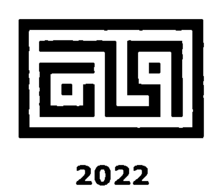
طه زياده



2022

Author: Juan Jacinto Muñoz-Rengel

Una Historia De La Mentira



2022

مقدمة المترجم

أشهد أن هذا العمل الإنساني القيّم، بأفكاره وتأملاته العديدة والكثيفة، سواء التي اتفق أو اختلف معها، أنه يستحق كل جهد الترجمة المبذول فيه. وأشعر بفخر شديد أنني أنجزته في مسيرتي المتواضعة بوصفي مترجمًا. وأتمنى أن أكون وفقت في نقل أفكاره الهامّة، التي لا تقتصر على التاريخ، والإنسان، والاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة، والفلسفة وعلم النفس والفن والسينما، بل تتعداها إلى الحروب والأساطير والأديان والعلوم وغيرها مما يدور حولنا وصولًا إلى ما بعد الحداثة وشبكات التواصل الاجتماعي، وأثرها على إنسان القرن الحادي والعشرين بواقعيته المفرطة وعالم سيولة المعلومات ومقرطة الرأي إلى حد التجاهل. وفي النهاية، سواء اتفقنا أو اختلفنا مع رأي أو فكرة يحتويها مضمون العمل، فإنها تظل أفكارًا تعبر عن رأي صاحبها الذي اجتهد في بحثها وتدقيقها كما تشي بذلك المراجع الطويلة المستخدمة والموجودة في آخر الكتاب.

أتمنى أن يجد القارئ في العمل متعة الترحال بحرية وتجرد بين عالم من الأفكار بلا أجنحة أو حدود.

طه زيادة،

٢٣ رمضان، ١٤٤٣، الموافق ٢٤ أبريل ٢٠٢٢

الفهرس

يعتبر التظاهر هو جوهر العصر الحالي. سياستنا تظاهر، أخلاقنا تظاهر، وديننا وعلمنا تظاهر*.

لودفيغ فويرباخ

لا مراء في أن الإنسان جُبِل على الكذب.

الكسندر كويريه**

الكلمة أكثر واقعية من الشيء الذي تعبّر عنه. الكلمة لا تعبّر عن الواقع. الكلمة هي الواقع. بالنسبة لنا على الأقل. ربما يدرك القدير جوهر الأشياء. ولكن، نحن لا ندركها.

فيليب ك. ديك***

بصفة أساسية، تتمتع الأفكار الخاصة فحسب بالحقيقة والحياة.

آرثر شوبنهاور

---

* فيلسوف وعالم أنثروبولوجيا ألماني (1872-1804) من أشهر أعماله كتاب "جوهر المسيحية"، والذي انتقد من خلاله هذه العقيدة، وكان مؤثّرًا للغاية في أجيال من المفكرين اللاحقين، أمثال كارل ماركس، وفريدريك أنجلز، وريتشارد فاغنر، وفريدريك نيتشه. (المترجم)

** مؤرخ فرنسي من أصل روسي (1962-1892) اهتم بالفلسفة والعلوم، حصل عام 1922 على دبلوم الدراسات العليا ببحث بعنوان "فكرة الله والبراهين على وجوده لدى ديكارت". ثم حصل عام 1923 على الدكتوراه من السوربون بعنوان: "فكرة الله في فلسفة القديس انسلم". (المترجم)

*** فيليب كيندرد ديك (1928 - 1982) روائي أمريكي وكاتب قصص قصيرة، يغلب على أعماله طابع الخيال العلمي، كما تفضح رواياته هيمنة الشركات الاحتكارية والحكومات الاستبدادية وتغيير حالة وعي الإنسان، وفي أعماله الأخيرة ركز ديك اهتمامه على ماوراء الطبيعة وعلم اللاهوت. (المترجم)

الشاعر مدَّعٍ

يدّعي بدرجة من الإتقان

تصل إلى ادّعاء ماهيّة الألم

الألم الذي يشعر به حقًّا.

فرناندو بيسوا

واحد

افترض، للحظة، أن الراوي الذي يتحدث إليك الآن مجرّد وهم. افترض، أنني اضطررت لكي يكون التواصل بيننا ممكنًا، لخلق إيحاء صدى، صوت، نظرة، هويّة مزيفة.

افترض الآن، بالتبعية، أن كل ما يقوله هذا الراوي، كذب محض، بما في ذلك هذه الكلمات ذاتها.

ومع هذا، لنتمادَ أبعد من ذلك. افترض (واختيار فعل "يفترض" وثيق الصلة بالمصطلح اللاتيني (suppositio) افتراض، ليس عشوائيًا)، أن كلّ ما قصّوه عليك طوال حياتك كذب محض. تاريخ البشرية. مجمل المعرفة الإنسانية. الحالة التي عليها الإنسان وطريقة تواصله مع العالم.

افترض أن ذكرياتك الخاصة تعرّضت للتشويه من قبل عقلك، افترض أن قصّة حياتك (التي تختار أن تحكيها لنفسك) تعرّضت أيضا للتشويه بفعل قصور الذاكرة، وبسبب الاحتياج النفسي للخداع الذاتي وبسبب آليات الدفاع عن الأنا الخاصة بك. وبناء عليه، عزيزي القارئ، فإن هويّتك أنت أيضًا مزيفة.

حضرتك، وصوتي وجميع ما بيننا كلُّه كذب. سوف نلتقي، من منطلق هذا القبول فحسب، في المكان المناسب لكي نبدأ تواصلنا. وانطلاقًا من هذه المقدمات يمكننا أن نبدأ تحاورنا. لأن قصّة الإنسان ليست أيَّ شيء آخر سوى قصّة الوهم.

ناقص ستة

في القرن السادس قبل الميلاد عاش فيلسوف وشاعر ونبيٌّ يوناني اسمه أبيمنيدس الكريتي، وكان أوّل من سلط الضوء على الإشكالية الملازمة لكل راوٍ، والمتمثلة في احتمالية الراوي الكاذب.

تحكي الأسطورة، أن أبيمنيدس لجأ، فرارًا من حر الظهيرة على بحر إيجة، إلى كهف رطب.وإذا صدقنا رواية ديوجانس اللايرتي، فقد نام هناك، طوال ستة وخمسين عامًا متّصلة. يصحح بلوتارك هذه المعلومة، محاولًا إضفاء أكبر قدر من المنطقية على الرواية، مؤكدًا أن نومه لم يستغرق سوى خمسين عامًا فحسب.أدرك حين استيقظ أخيرًا من سباته، أنه قد نال نفحة من الآلهة وأن الكشف الإلهي يعتريه بلا انقطاع.

هرع إلى المدينة وشرع يكيل لوجه الجميعحقائق كاللكمات. قال من بين كثير منها:"كل الكريتيّين كاذبون!".

ومع الأخذ في الحسبان أنأبيمنيدس كان كريتيًا، فإن تأكيده قد خلق معضلة كبيرة. لأنه إذا كان أبيمنيدس كريتي، وكل

الكريتيين كاذبون، فإنه حين يؤكد أبيمنيدس أن"كل الكريتيين كاذبون"، فإما أنه لا يكذب، وبناء عليه فإنه لا يقول الحقيقة، أو أنه يكذب ومن ثم يقول الحقيقة، وهذا يعني بصورة تلقائية أن هناك كريتي واحد على الأقل غير كاذب.

لم يلبث الفلاسفة اللاحقون أن انتبهوا لأبعاد المشكلة الحقيقية، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك محاولين عرض المسألة بصورة أفضل لإبراز طابعها المتناقض بشكل أكبر. ومن ثم، غيروا فرضيتهم الأساسية لتصبح "كل تأكيدات الكريتيين كاذبة دائمًا". أو إلى أخرى مكافئة مثل"لا يقول أي كريتي الحقيقة مطلقًا"، أو أكثر يُسر مثل "هذه العبارة كاذبة"، أو بصورة أكثر يُسرٍا "أنا أكذب". وأمضوا بقية حياتهم يحاولون إيجاد حلٍّ للمعضلة، مما نتج عنه عشرات الأعمال والنظريات في مجالات علم الدلالة، والمنطق، والرياضيات وفلسفة اللغة.

في النهاية، حُلت الإشكالية في القرن العشرين. فقد تمكن كورت جوديل، بين آخرين، من التوصل إلى الحل من خلال صياغته "مبرهنة عدم الاكتمال"، التي تثبت أنّ أينظام بديهي متكرر، متسق ذاتيًا وقويًا بما يكفي ليصف حساب الأعداد الطبيعية، يحتوي على تأكيدات لا يمكن إثباتها أو دحضها داخل النظام ذاته. أو نظرية برتراند راسل عن الأنماط، التي تجاهلت هذه الفئة من الجمل المتناقضة لكونها سيّئة التركيب، بعبارة أخرى، لأنها لا تتوافق مع قواعد التركيب في نفس ذات المنظومة التي تنتمي إليها.

بعبارة أخرى، لاستيعاب ما يجري حين أؤكد أنني أكذب، يتعيّن علينا التميز بين اللغة وما وراء اللغة التي تشير إلى تلك اللغة. وبالمثل في حال ارتقينا إلى مستوى أو مجموعة مستويات أعلى (مثلي الآن، وأنا أغامر بالدخول في هذه العقدة)، بين ما وراء اللغة (ميتالغة) وما وراء وراء اللغة الخاص بما وراء تلك اللغة، وسوف نتحدث لاحقًا عن ما وراء وراء وراء اللغة لما وراء وراء اللغة الخاص بما وراء تلك اللغة، وهكذا دواليك. ستنمحي حينئذ التناقضات الدلالية بمجرد اكتشافنا أن"هذا حقيقي" أو "هذا زائف" لا ينتميان إلى نفس المستوى من ما وراء اللغة في "أنا أكذب".

تكمن في هذه الصفة الإنسانية بامتياز الخاصة بالإحالة الذاتية، في هذه الحلقة، هذه القفزة أو الدائرة التي تلاحقنا، مثلما سنرى لاحقًا، بعض الجوانب الأكثر إثارة للاهتمام في حالتنا هذه. بعضها ليس حاسمًا تمامًا بالنسبة لمصير البشرية -على سبيل المثال، تلك المتعلقة بخصائص القص الماورائي (الميتافيكشن) أو القص الذاتي (أوتوفيكشن)، الذي أصبح جنسًا أدبيًا واسع الانتشار- ولكن يكمن، بدون شك، في جوانب أخرى جذور كافة الإشكاليات الاشتقاقية الكبرى. ومن بين هذه أيضًا، الجانب الذي يشغلنا هنا.ويكمن أولًا وأخيرًا، في هذه العقدة، هذه القفزة أو الدائرة مركز كل شيء: وداخلنا نحن أيضًا: إمكانية السرد الخيالي والوعي.



سيُتاح الوقت لتناول كافة هذه المسائل الجوهرية. وأتعهد بأن نعود ونوضحها بالتفصيل. وبالرغم من ذلك، بما أنه قد توصلنا إلى حل للمعضلة الشكلية الخاصة بالكذب، هذه العقبة الأولى الزائفة، أعتقد أنه سيكون من الأجدر لك أن ترافقني. أن تأتي معي وأن نرجع لأبعد من ذلك بكثير.

قبل ذلك بكثير: الطبيعة

تعال معي، ثق بي. لا أنتوي خداعك. من المحتمل أنهم جعلوك تظن حتى الآن أن الكذب أمر مقصور علي الرجال والنساء فحسب.ربما يتعلق تعريف الحقيقة الذي ظلَّ متداولًا حتى هذه اللحظة، بشكل ما أو بآخر، بالمواءمة بين ماهيتها وبين ما يُزعم أنّه ماهيتها، بعبارة أخرى، المواءمة بين الواقع والتفكير. ومن ثم، قد يبدو أن الحقيقة تتوقف فحسب على تدخل الذكاء البشري، وهي ممارسة تقتصر علينا فحسب. ومع ذلك، عند هذا الحد، قد يجدر بنا التساؤل: هل الطبيعة لا تكذب؟

فلننتقل إلى بداية العالم. ولا داعي للعودة إلى فجر التاريخ، أو حتى عصر نشأة الكوكب. يكفي أن نتوقف عند تلك اللحظة، عندما بدأت الأشياء تكتسب الشكل الذي نعرفه، وتحديدًا قبل ظهور البشر. تحيط بنا الغابات، تتخللها الأنهار، الجبال الشاهقة وهناك أعماق البحار، تمرح فيها جميعًا الحيوانات المعروفة وبحريّة مطلقة. باستثنائنا. لكن دعونا نولي المزيد من الاهتمام. أليس هذا الذي يختبئ بين

الأفرع طائر يتطابق لونه تمامًا مع لون أوراق الشجر؟ أليس ريش تلك البومة أيضًا له نفس الشكل والملمس الخشن لجذع تلك الشجرة؟على من يتحايلون؟ على مفترسيهم، بدون شك. ومع ذلك، ما هذا الفهد الأرقط الرابض وسط الأحراش الجافة، بدرجة لونه المشابهة للون للعشب؟ ألا يستخدم أيضًا التمويه لكي يخدع طرائده؟ فلنبتعد على مهل، بدون أن نلفت الأنظار. فلنلجأ إلى ضفة النهر، وسط سكون العالم هذا الذي بالكاد ارتسمت ملامحه. تريث. حتى هنا، داخل الماء، سواء أنت أو أنا سنواجه صعوبات حقيقية في تمييز الأسماك فوق مرقد الأحجار، لأن قشر ظهورها يتخفّى بإتقان في ذات نفس أشكال حصى الشاطئ. على العكس من ذلك، لو تمكنا الآن من الغوص والتموضع أسفلها، لن نستطيع أيضًا الجزم بأننا نرى الأسماك من هناك، حيث سندرك أن بطونها ذات اللون الفاتح تعكس بدقة وإحكام لونًا يُمكّنها من التماهي مع السماء المضيئة.

تعتبر الحرباء هي المثال الأكثر شهرة لخاصيّة التمويه في الطبيعة عند الحيوانات (cripsis) المشتقة من اللاتيني (kryptos) وتعني المُشفّر أو المُخفّى، وهي معروفة بقدرتها على تغيير درجة لون جلدها حسب الظروف. ومع ذلك، فإن شهرتها ليست عن جدارة، وتحوّلها ليس بمنتهى الدقة كما لا تملك أدنى قدر من التحكم فيه. يكفي أن نقوم بجولة في الأرجاء لكي نكتشف نماذج لأجناس من الكائنات أكثر تعقيدًا: ولكي لا نذهب بعيدًا، لدينا الحبّار، فليس لديه فحسب

القدرة على اكتساب لون آخر في غضون ثوانٍ معدودة، بل وفي نفس الوقت، تغيير نسيجه، وتركيبته الخارجية بالكامل، علاوة على إفراز صبغات لونية متغيرة وفقا لقاع البحر، ثم يجعلها تتحرك على امتداد جسمه في اتجاه معاكس لحركته الحقيقية. وليست كلّ الحيل الاستراتيجية مرئية. أبعد قليلًا من ذلك، وفي نفس منطقة الشعاب المرجانية، تقذف أبناء عمومتها الأصغر من الحبار دفقات من الحبر تحجب الرؤية، بالفعل، لكنها بالإضافة إلى ذلك تخدع أعداءها الطبيعيين بكيمياء ألوانها.

من ناحية أخرى، بالإضافة إلى كلّ هذه الحيوانات التي تحاول التماهي مع محيطها، يمكننا هنا وأكثر من ذلك، رؤية الكثير من حالات المحاكاة (المشتقة من "mimos"، أي التقليد): عند تلك الحيوانات التي تحاول أن تبدو مثل حيوانات أخرى، سواء كانت خطرة، أو مسالمة أو منفّرة. مثل الذباب الذي يتظاهر بأنه نحل، أو الأفاعي التي تتخذ هيئة الشعاب المرجانية الوادعة، أو ذلك النوع من البوم الذي يبني أعشاشه بين الصخور لكي يحمي بيضه عن طريق إصدار صوت مشابه تمامًا للحيّة ذات الأجراس. ولنركّز جيِّدًا الآن، مع البومة التي اعتقدنا في البداية أننا رأيناها تتظاهر بكونها جزءًا من جذع الشجرة، لم تكن حتى من الطيور في الحقيقة، بل إحدى فراشات الكاليجو بأجنحتها المنشورة، لتعطي مظهر بومة بتزييف متقنٍ بدقة مذهلة. تُظهر على كل جناح عينًا محدّقة،

كبيرة ومستديرة، ذات لون أصفرَ قويٍّ وحدقات سوداء متسعة عن آخرها من الداخل. لدرجة أنه في هذ اللحظة، وعلى الرغم من انشغالها بملكوتها، يمكننا أن نقسم أنّ البومة غير الحقيقية ترمقنا بنظرات حادة. بطبيعة الحال، لا تقتصر حالات العين هذه على الحيوانات المعرضة لأن تصبح فريسة فحسب، مثل الفراشات أو الأسماك. حتى النمور تظهر من خلال خداع بصري عيونًا مرسومة بدقة على ظهور آذانها، في صورة بقع بيضاء تحول دون تعرضها للهجوم من الخلف.

من ثم، فإن الغابة البكر، تغصُّ بفخاخ الخداع.

وعلى الرغم من أنني كلفتك عناء المجيء حتى هنا، في هذا التوقيت غير الملائم، لربما لم يكن هناك أيُّ داعٍ على الإطلاق حتى لمغادرة منزلك. ولربما كان كافيًا أن تلاحِظ هِرّك لبضع دقائق، الذي لزم السكون في هذه اللحظة، متربّصًا، يعتقد في وجود فرصة لصيد العصفور الذي ينقر على الجانب الآخر من الزجاج. ألا يكذب أي حيوان لمجرد قبوعه ساكنًا بلا حراك؟ ألا يحاول الإيحاء بأنه غير موجود حيث يوجد بالفعل؟يكذب كلُّ من يتربص بلا حراك؛ والضحيّة التي شلها الخوف كذلك. ولكن، إذا حاولت حضرتك مباغتة الصيّاد الصغير، قافزًا نحوه فجأة كالمجنون، محركًا الذراعين في الهواء، وتفلح في إظهار أنيابك له، تجعله يزمجر ويتقوس ظهره وينتصب شعره، ألا يتظاهر هرُّك موحيًا بأنه أضخم من حقيقته. مع تقوس ظهره وانتصاب شعره، ألا يكذب الهرُّ مجددًا؟

وبناء عليه، فإن الكذب كان موجودًا في الطبيعة سابقًا بكثير على ظهور اللغة، وسابقًا على ظهورنا بكثير. ولم نكن سواء أنت، أو أنا، أو أيُّ شخص آخر يتصوّر ذلك.

تخيل مدى عدم اليقين لدى بواكير القردة الأولى عند تعرضها لهجوم حلم. كمَّ الحيرة عند الاستيقاظ. ياله من ارتباك حينما يُنتزعوا فجأة من تلك القصّة الأخرى، من ذلك الواقع الآخر يعتريها شعور ظاهري ومحمّل بالأخيلة، وتكتشف نفسها في الكهف، وحيدة، متجمّدة من السكون، بدون الأرنب الأبيض الذي تمكنت من اصطياده، ومرة أخرى بدون رفقة والديهم، الذين نفقوا قبل وقتٍ طويل. ما هي الأحلام إذن إلا أكذوبة كبيرة إضافية؟

وماذا عن الجنس؟ إنه واحد من أكبر الأكاذيب الطبيعيّة في عالمنا، التي شقّت طريقها من الغابة وصولًا إلى أعماق المجتمع والتي مازالت تتحكّم في حياتنا إلى اليوم، بصرف النظر عن إلى أيِّ مدى يمكننا استيعاب غرائزنا وأنماطنا البيولوجية. كما ترجع ضخامتها أيضاُ إلى أنها كذبة مزدوجة. فمن جانب، يخدعنا الجنس، من خلال الانجذاب، حيث يجعلنا نتصور أن تلك السيقان أو ذلك الظهر أو العنق أكثر اشتهاء من الفخذين المشعرين لغزال ورائحة المسك الحلو التي تفرزها غدده. يجعلنا هذا نفكر أننا نحن من نفضل بمطلق الحرية هذا الشخص على ذاك، هذه البطن، هذا الصدر أو هذين الكاحلين على اللغد المنتفخ والموشك على الانفجار

لطائر الشانية، الذي لا تقاوم إناث جنسه درجة احمراره القاني. ويخدعنا الجنس، من جانب آخر، من خلال وهم النسب. يعاني الآباء من خداع سراب الاعتقاد بأنهم يرون انعكاسهم في صورة أبنائهم، وأن هؤلاء نسخٌ مكرّرة منهم، امتداد لوجودهم، خطوة نحو الخلود. إلا أن هذا الوعد الزائف مجرّد حيلة جديدة من الطبيعة. البشر لا يتكاثرون، هذا يقتصر فقط على الأنواع. البشر ليسوا أكثر من مجرد حاملين للرموز الجينية.

لذا، يعد الانجذاب الجنسي والتكاثر، أوهامًا سابقة بكثير على تكوين المجتمعات. وتسبق بكثير أيضًا ظهور المفهوم شديد التعقيد عن الغرام، الذي يتعين عليّ أن أخصص له قسمًا خاص لاحقًا.وعلى هذا المنوال فإن الأكاذيب الأولى سابقة على ظهور اللغة. كما تعتبر الأكاذيب الأولى المدبَّرة، وليدة التبصر، سابقة على اللغة. تلك التي منشأها العقل الذكي، وفي القدرة على استشراف المستقبل واستباق ما سيحدث. ندت، في لحظة ما من قديم الأزل، عن أحد الكائنات الرئيسية البدائية، صرخة تحذير لم تكن حقيقية. وعلى الرغم من أن هذا لم يسبق حدوثه من قبل، لابد وأنه في صباح يوم بعينه، وربما في الظهيرة، عنَّ لقرد كبوشي التحذير لأول مرة من قدومأحد الحيوانات المفترسة، فندت عنه صرخات حادة وتقافز بعصبية. لكن، لم تكن في هذه المناسبة لأجل إنقاذ حياة رفاقه، بل ليجعلهم يفرون ويفوز وحده بالسلطعون الذي رآه يزحف وسط العشب. الأكذوبة الدلالية الأولى.

ستظهر اللغة لاحقًا، بعد ملايين السنين، بكل تأكيد، ومثلما نعرفها ستكتسب الأكاذيب القدرة على أن تصبح أكثر تعقيدًا وإتقانًا، لتنتج عنها الفنون والمعتقدات والعلوم ومجمل الثقافة المعاصرة.

بالرغم من ذلك، أيها القارئ اليقظ، كنت أودّ أن تكون قد انتبهت إلى أنه لا توجد فحسب أكاذيب سابقة على وجود الإنسان، بل تفوقه. وليست البومة تحديدًا من تختار اكتساب ريش مماثل لجذوع الأشجار، ولا الفهد الذي يقرر التلون بالأصفر وسط السافانا. كما لم يكن أمام الحرباء أو الحبار فرصة الاختيار. يكمن الكذب في الأنواع وليس الأفراد. في الطبيعة، وفي خطتها الكبرى وفي سعيها الذي لا يكلُّ من أجل البقاء والتطور نحو مكان بعينه، حيث تكمن إرادة الحثّ على ارتكاب الخطأ.لا يحتاج التدليس والغش والخداع إلى الإرادات الصغيرة لدى الكائنات التي تتحلى بالذكاء. تحاكي كؤوس بتلات زهرة الأوركيد إناث النحل، ولا تكتفي بتقليد هيئتها فحسب، بل تحاكي إنتاجهامن الفيرمونات، لكي تتمكن بذلك من جعل ذكور النحل تقوم بتلقيحها. وليس لديها حتى جهاز عصبي.

أكدتُ لك أنني لن أخدعك، وأنه بوسعك أن ترافقني بلا مخاطر، كذبت.

لعلك تعرف الطرفة التي حكتها ابنة ج. د. سالينجر* عن الكاتب في مذكراتها. تتذكر مارجريت سالينجر في مقطع من "صائد الأحلام"، واقعة في طفولتها، تسببت لها في صدمة، ربما بسبب حداثة سنها. كان الأب والابنة جالسين أمام نافذة حجرة المعيشة، بمنزلها فيبلدة كورنيش، نيوهامشير، يتأملان الغابات والجبال الشاهقة، الحقول، الحيوانات، والمزارع. ثم نهض الكاتب، وفرك يده في النافذة بحركات تحاول محو كل شكل من الأشكال الممتدة خلفها وقال:

-كل هذا مجرد، وهم. أليس هذا رائعًا؟

حسنًا إذن، هذا ما حدث لنا الآن. لم يكن أي شيء مما رأيناه حضرتك وأنا حقيقيّ: سواء الغابات، أو الجبال، أو البحر، أو البومة، أو الفهد، أو الأسماك، أو الألوان، أو الروائح. كانت ضرورية لكي يفهم بعضنا بعضًا فحسب. أتستوعب؟لم يعد لها وجود؟

لا شيء مما يفوق إدراكنا، ولا شيء مما يصلنا عن طريق الحواس حقيقيّ. أو على الأقل لم نتمكن حتى الآن من الإقدام على هذه القفزة الهامة. سنبقى هنا في الوقت الراهن، منغلقين على أنفسنا. وكل ما عدا ذلك مجرد وهم.

---

* جيروم ديفيد سالينجر (1 يناير 1919-27 يناير 2010) كاتب أمريكي اشتهر بروايته الحارس في حقل الشوفان. المترجم

اثنان

يعتبر الكذب بالفعل أمر بين اثنين، وفقًا لمنظور بعينه.

ويتطلب على الأقل طرفين متعارضين لكي يحاول أحدهما جعل الآخر يعتقد أن حقيقة أمر ما ليست كذلك. أو شخصين؛ أحدهما إلى جانب الحقيقة، وعلى الجانب الآخر شخص لديه الحد الأدنى من القدرة على الإدراك. ومع ذلك، أخشى أنه، من منظور شديد الصرامة، أن هذين الوجهين للعملة هما مجرد وجه واحد فحسب للعملة وللعالم.أيها القارئ لهذه السطور، من المحتمل، أن هذا البحث عن الحقيقة لا يتسع لأكثر من طرفين: حضرتك وكل ما عداك.

ظلت هذه الثنائية حاضرة منذ البدايات، حتى عند طرح مقاربة المشكلة ذاتها. يجدر الحديث حول تاريخ الفلسفة، عن مسارين كبيرين رئيسيين، بدأهما، وكما هو متوقع، كلٌّ من أفلاطون وأرسطو، على الترتيب. شرع أرسطو بمنح ماهية الحقيقة وجودًا في ذاتها: الحقيقة فريدة، مثاليّة، وأبديّة ولا تتبدل، وموجودة بصورة مستقلة عن العقل في عالم الأفكار.

ابتعد الثاني عن هذا التماهي بين الحقيقة والواقع، وجعلها أكثرَ مادّيّة وحصرها في مجرد خاصيّة لبعض الموجودات، يوضح أرسطو في كتابه الرابع عن الميتافيزيقا: "الباطل هو زعم وجود ما هو غير موجود، أو عدم وجود ما هو موجود؛ أما الحقيقة فهي القول بوجود ما هو موجود أو عدم وجود ما هو غير موجود"، ليبتدر بذلك المفهوم الدلالي للحقيقة، وليقربنا بذلك من فكرة المواءمة والتوافق. ومع ذلك، تبين أنّ المسارين يقودان إلى طريقين مسدودين، عادا بنا إلى نفس نقطة البداية التي انطلقنا منها. أتحدث عنا نحن. قاوم المفهوم الأرسطي مرور القرون متماهيًا مع مذاهب الاسمانية، والإمبريقية، والمادية والبنيوية والتفكيكية، ليلقي بنا في هذا العالم مع حالة من الشك المستمر مازلنا نعيش فيها إلى الآن. على العكس من ذلك، حظي المسار الأفلاطوني بحفاوة شديدة من جانب المسيحيّة، لأغراضها الخاصة، لتبلغ ذروتها عند القديس أوغسطين، الذي أقر بأن الرب هو المصدر الوحيد المحتمل للحقيقة. وبعد قرون، سيشير نيتشة (الذي يُعد بالتحديد أحد أهم أعلام مذهب الشك الثلاثة) سيشير إلى هذا المفهوم للحقيقة على أنه تواطؤ مدبّر من قبل أرسطو وأفلاطون واليهود المسيحيين لتكبيل الإنسان في سجن المنطق وإبعاده عن العواطف. يعد اختراع الحقيقة وفقًا للمفاهيم النيتشوية، من الأكاذيب الكبرى في الثقافة الإغريقية اللاتينية، وعند الغرب الفخ الذي نصبه الجبناء بدافع الخوف من الحياة لإبعادنا عن غرائزنا الحيوية. ومع ذلك، منذ الفكر الأفلاطوني، كانت هناك بكل

تأكيد محاولات كثيرة للخروج من المستنقع. كما كانت هناك محاولات عديدة لدمج المفاهيم الأرسطية في صلب بنائها النظري، بدءا من القديس توما الإيكويني في صميم المدرسة الاسكولاستية، وتلتها بعد ذلك مبادرات ديكارت، مالبرانش، لايبنتز ومفاهيمهم عن الحقيقة بالمنطق والحقيقة بالقوة.

يبرز من بين كل هؤلاء، وبصفة عامة بين جميع العقول المفكرة عبر التاريخ، واحد من الرجال، أخذ بدون شك، بصورة أكثر جدية مسألة إخضاع الحقيقة لكافة أنواع الاختبارات، إنه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت. ونكون بذلك قد تجاوزنا نقطة اللا عودة.

يحكي ديكارت نفسه، أنه لاحظ منذ نعومة أظفاره اعتياده قبول قدر كبير من الآراء الزائفة على أنها حقائق، ولهذا، اعتبر أنه يمكن تناول كل ما بُني عليها في السنوات اللاحقة، على أنه محل شك فحسب وقابل للنقاش. ولهذا، قرر، عندما اعتبر أنه قد حانت اللحظة المناسبة، وأنه قد بلغ نضجه الفكري وهو في منفاه أثناء إقامته الطويلة الهادئة في هولندا، حيث حظي دوما بدفء المدفأة، (قرر) التصدي لهدف حياته: رفض كافة معتقداته بشكل منهجي والشروع في البناء على حقيقة واحدة لا جدال فيها. كتب في البداية، لتجاوز هذه المرحلة الأولى من الشك، "مقال عن المنهج"، أرسى فيه قواعد التفكير السليم وتلك القواعد الأخرى المعنيّة باستخلاص الحقائق عن طريق التحليل والاستنتاج. ولكنه لم يكتف بذلك، ودأب على اتباع

قواعده الخاصة، لينشر بعد أربع سنوات "تأملاته الميتافيزيقية". ويؤسس في مستهل هذه التأملات، منهجه في الشك، دون أن يتوصل ربما لتخمين تبعات ما كان يوشك على الإقدام عليه، بإرادة فولاذية.

قرّر ديكارت، كخطوة أولى، لوضع نفسه في فرضية أقصى درجات الشك، وبما أنه لاحظ أن الحواس تخدعنا أحيانًا ولا يمكننا التأكد متى تقودنا إلى الخطأ أم لا، (قرّر ديكارت) تجاهل كل ما يصدر عن إدراكنا. في المقام الثاني، تساءل ديكارت، بينما يلاحظ أنه حتى مع رفض الحواس، أنه من الصعب عليه أن ينكر على نفسه أنه جالس هناك أمام نار المدفأة، مرتديًا روبه المريح المُنشَّى والأوراق بين يديه: وماذا لو غرقت في النوم بسبب هذا الدفء اللذيذ الساري في قدمي ورادوتني الأحلام؟ تعد هذه الفرضية الثانية أكثر تطرفًا من سابقتها، لأن استحالة التمييز بصورة قاطعة بين اليقظة والنوم، جعلته يشكك في كل شيء تقريبًا: هل أستطيع التأكد بصورة يقينية تامة من وجودي في الحجرة؟ ألا يمكن أن أشك حتى في جسدي ذاته، في ألمي، وفي باقي المثيرات، في هذه الأيدي التي أراقبها مشدودة إلى آخر امتداد ذراعي؟ لم يعد متبقيًا سوى شيء واحد يتظاهر بمقاومة فرضية النوم. سواء كنا نائمين أو مستيقظين، فإن حاصل جمع اثنين وثلاثة سيظل دومًا خمسة والمربع له دائمًا أربعة أضلاع. وتظل الحقائق الرياضية فوق أي منهج للشك. أي منهج؟ عند هذه النقطة يهاجم الفيلسوف

العقلاني، أثناء بحثه عن الحقيقة التي لا مراء فيها، بكل قوة من خلال فرضيته الثالثة، عبقريّة الشر أو الربّ المخادع. ماذا لو أن الرب القدير قد خلقني على قدر من الذكاء يجعلني أقع دائمًا في الخطأ، فأرى كل ما هو حقّ باطلًا، وكل ما هو باطل حقًّا؟ لن تسلم أيٌّ من معارفنا بلا استثناء، وفقًا لمنظور هذه الفرضية.

سيبقى شيء واحد قائم على حاله بعد هذا الزلزال المدمر، لا يكاد يذكر. وبعد الخضوع للعديد والعديد من الشكوك، يتشبث، ديكارت الضائع، المنهك، والمشوّش وسط عالم محطّم، في النهاية بيقين وحيد: إنه في كل الأحوال، وحتى في ظل أسوأ أقسى الافتراضات، لابد أن يوجد شخص يشكّ، وأن يكون هناك شيء عرضةً للخداع. شخص يفكر ومن ثم يكون موجودًا، مقولته الشهيرة أنا أفكر إذن أنا موجود (cogito ergo sum). جزيرته.

سينادي رينيه ديكارت، انطلاقًا من هذه الوحدة الأدنى لدى الشخص المفكر، بإعادة بناء الحقيقة. سيؤكد أولًا وجود عدة أفكار أصيلة، كامنة داخل ذلك الأنا: أفكار الوجود، الفكر والأبدية ذاتها: سوف يطابق فيما بعد فكرة الأبدية، الأكثر إثارة للجدل بين الأفكار الثلاثة، مع فكرة الرب، وسوف يحاول إثبات وجوده. ولهذا سوف يؤكد أن فكرة أبدية، أزلية، قائمة بذاتها، عليمة، كلّية القدرة، لا يمكن أن تنبع من داخلي، أنا الفاني، بل يجب أن يكون مصدرها علّة خارجية. حينئذ، سوف يكون من السهل عليه، بمجرد إثبات فكرة وجود الرب، إعادة

تصور فكرة وجود العالم: لا يمكن أن يكون الربُّ كلّيُّ القدرة مخادعًا، لأن الخداع يتوقف على نوع من الخطأ، عيب، نقيصة في الإنسان، وبناء عليه، من المستحيل أن يكون ناتجًا عن كيان إلهي، كلّيِّ القدرة، تتسم أفعاله دومًا بأن لها تأثير حقيقي. وإذا كان الربُّ موجودًا وهو خير مطلق، فإنه لن يسمح على الإطلاق بأن أخدع نفسي، بأن يدعني اعتقد أن الكون موجود إذا لم يكن موجودًا. لذلك الكون موجود.

وهكذا أثبت مؤسس المنهج العقلاني بهذه الطريقة وجود العالم من خلال فعل إيماني.

صنع ديكارت عددًا لا يحصى من الفخاخ لكي يتمكن من القفز إلى ما بعد تلك المرحلة الأولى من الذاتوية، للخروج من عزلة الأنا (cogito) وإعادة بناء بقية الواقع. يمكننا التوقف لتحليل إذا كانت فكرة الأبديّة حقيقية ومتميّزة بالفعل، حسبما تقتضي قواعد المنهج؛ أم إذا كان الفيلسوف لكي يثبت وجود الرب لم يسئ استخدام دليل القديس أنسلم الأنطولوجي القديم الفاشل؛ أم إذا كان من خلال حجته لم يحدّ من القدرة الكلّية للرب، فلا يستطيع خداعنا حتى لو شاءت إرادته ذلك. ومع هذا، يكفي تناول قدر ضئيل من المنظور التاريخي لكي نلاحظ استناد أفكاره عن الخير والكذب، بوصفها نقائص في الإنسان، إلى إطار المفاهيم الأفلاطونية-المسيحية بكل وضوح، مما دفعه إلى الاعتماد على الأحكام المسبقة التي حاول جاهدًا الهروب منها. بمقدورنا في النهاية، مواصلة

تفنيد التناقضات المنطقية التي وقعت فيها التأملات الديكارتية اللاحقة على الشك واحدة تلو الأخرى. ولكن بالرغم من كل ذلك، لا يمكننا بكل يُسر تجاهل الاحتمالية الأكثر تخويفًا، وهي أنه: يوجد هناك بعيدًا شيء ما يخدعنا. لدينا مؤشرات عديدة تدفعنا للتفكير في أن الواقع يخدعنا وأن الطبيعة السابقة على وجود البشرية، جُبلت على الكذب بصورة جوهرية.

ولهذا، فإنه منذ الوهلة الأولى لاعتمادنا صلاحية الشك المنهجي، وبمجرد انتباهنا لمخرجها الزائف، سنعاود اكتشاف أنفسنا، ونحن عالقون، هنا في الداخل.

الواقع بوصفه تجربة محاكاة

سأفكر أن السماء والأرض والألوان والصور والأصوات وكل الأشياء الخارجية الأخرى، ليست سوى مجرد أوهام وخداع حيكت للتأثير على عدم يقيني. سأعتبر نفسي بلا يدين، بلا عينين، بلا لحم وبلا دم. وسأحاول البقاء ثابتًا على هذه القناعة، وإذا لم أستطع، أن أعرف مطلقًا حقيقة واحدة بواسطة هذه الوسائل، سيكون بوسعي على الأقل اللجوء لخيار إسقاط حكمي. هذا هو ما سأفعله. ومع ذلك، سيكون هذا القرار أكثر صعوبة من المتوقع. سوف يحتاج لمثابرة وعزيمة، نظرًا لأن فتور الهمة على مر الأيام سوف ينتهي بي غارقًا في جمود حياتي الروتينية. وحينئذ، مثل عبد يحلم بالاستمتاع بحرية خيالية، سأبدأ بالشك في أن تلك الحرية مجرد حلم، سأخشى الاستيقاظ منه. وسأتواطأ مع الأوهام اللذيذة لكي أظل غارقا في خداعي لأطول وقت، بين الضباب...

لا، هذه ليست كلماتي. على الرغم من أنني لم أضعها بين علامتي تنصيص لكي أجعلك تصدق ذلك. كما إنها ليست

مقتبسة من فيلم خيال علمي عن المستقبل، كما أنها ليست جزءًا من فيلم سينمائي ضخم الانتاج، من نوعية الديستوبيا، التي تحاول إظهار أن كل ما ندركه عن الواقع قد يكون نتاج تكنولوجيا خاصة بحضارة أخرى أو ذكاء اصطناعي أو لغزو جنس فضائي. إنها الكلمات التي استخدمها ديكارت عام ١٦٤١، عقب الخضوع لفرضية روح شريرة. عندما كان لا يزال يعتقد أن بوسعه الخروج من المكان الذي وضع فيه كل كائن مفكر.

ولم يتوقف الوعي بالعيش في الوهم عن الاستفحال، منذ ذلك الحين وحتى عصرنا الحالي. حتى غزا ثقافتنا.

ومع ذلك، تعدُّ فكرة الواقع بوصفه محاكاة جزءًا من الفلسفة منذ القدم. وُجِدت في الفكر الشرقي من خلال مفهوم (māyā) المايا؛ في نصوص (Upanişads) الأوبانيشادا المقدسة أو مدرسة (Vedānta) الفيدانتا (الغاية بالهندوسية)، والمايا هي الوهم باللغة السنسكريتية، العالم بشكله الظاهري، الأنا في تجلّيها الظاهري مقابل ما يظلُّ مخفيًّا وراء حجبه، بمعنى المطلق، الكائن الأعلى، البراهمان (الروح الفائقة)، التي بالنسبة لها يمكن أن تكون الظواهر الإمبيريقيّة غير واقعية تمامًا. كما كانت موجودة عند أفلاطون، منذ اللحظة التي فصل فيها العالم المحسوس عن عالم المُثُل، مما نتج عنه نظرية معرفة أوضحها بجماليات فنية مدهشة من خلال أسطورة الكهف الشهيرة. وسوف يكرّرها مرة أخرى، على الرغم من إدراكه أنها حددت

مسار الفلسفة، وسيعرفها بالتأكيد، نظرًا لأهميتها عند الوصول إلى هذه النقطة: يطلب منا أفلاطون أن نتخيل بعض الناس داخل كهف، وجدوا أنفسهم أسرى به منذ نعومة أظفارهم، مكبلي الأقدام والأعناق، ومن ثم لا يستطيعون سوى النظر إلى الأمام؛ ويوجد خلفهم جدار يفصلهم عن باقي الكهف، عن ناس آخرين يحملون في أيديهم الأشياء المصنّعة بمختلف أنواعها، وعن النار التي هي مصدر الضوء الوحيد والمنفذ إلى الخارج؛ لم يحظ المكبّلون بأي اتصال مطلقًا مع العالم الخارجي، وعلاقتهم الوحيدة مع الواقع من خلال الظلال التي ترسمها النار على الجدار في أعماق الكهف، ظلال مشوهة لأشياء مصطنعة يضفون عليها وجودًا من الواقع، يزعمون أنها منشأ الأصوات التي تتردد من رجع الصدى، وسيبنون عليها علاقات سببية وهمية. إننا نحن، هؤلاء السجناء العاجزين عن السير على أقدامهم أو عن النظر إلى العالم الخارجي في ضوء الشمس بدون أن يعشي أبصارهم، المحكوم عليهم أن يظلوا مستندين إلى تكهّنات واهية حول الواقع واعتناق مجموعة من المعتقدات، بعيدة كل البعد عن الإنسان الحقيقي.

وبناء عليه، كل هذه الشكوك حول هذا الذي نطلق عليه الواقع، ليست إلا مجرد مظهر يلاحقنا منذ البداية: ولم يكن ما نجح فيه منهج الشك سوى تحفيزها. لم يؤد التفكير الديكارتي إلى المنهج العقلاني فحسب، بل سرعان ما سيلقي بنا، ولا أقل، في أحضان المثالية الذاتية، التي أسسها المفكر الجامح

جورج بيركلي. انتهى بيركلي لتأكيد أن المادة الممتدة لا توجد أبعد من حدود العقل، وأن الموجودات كائنة فحسب طالما أنه يوجد من يدركها، وبإدراكها توجد (esse est percipi). تشبعت الفلسفة الحديثة والمعاصرة بهذا الشعور الخاص بالسير بين السراب، أو بالحدس تجاه أننا لا نستطيع تحاشي مضاعفة السراب كلما حاولنا المضي قدمًا.

ينجح برتراند راسل في القرن العشرين في التعبير عن ظلال الشك هذه بصورة جمالية مماثلة وموحية. فعلها في الفصل الأول من مؤلفه "مبادئ الفلسفة" "١٩٢٧" مسترجعًا فرضيّةً طرحها لأول مرة، إلا أنه لم يشارك فيها مطلقًا، خلال مؤتمره التاسع "تحليل العقل" عام ١٩٢١:

> لا توجد استحالة منطقية في الفرضية القائلة بأن العالم قد خُلق منذ خمس دقائق، بالمثل تمامًا كما هو حال، مجموعة سكانية "تتذكر" ماضيًا غير واقعي تمامًا. لا يوجد رابط منطقي وجوبي بين أحداث اللحظات المختلفة؛ ومن ثم، لا شيء مما يحدث الآن أو في المستقبل يمكن أن يدحض الفرضية القائلة بأن العالم قد بدأ منذ خمس دقائق.

وبأسلوب مشابه لما حدث مع الفلسفة، تشكلت منذ آلاف السنين، فكرة الواقع كمحاكاة في السرد (الذي يحظى على الأقل بنفس القدرة على تشكيل عالمنا). ربما شهد الشرق أيضًا أول ظهور له، من خلال طرفة، ستتحول بعد فترة من الزمن إلى قالب الهايكو الشعري، وأخيرًا، إلى شيء مشابه

للقصة متناهية الصغر. يحكي علماء الطاوية، أنه ذات ليلة، قديمًا في القرن الرابع قبل الميلاد، رأى المعلم جوانغ زي [ويكتب اسمه أحيانًا (Zhuang zi) كما يكتب أيضًا (Chuang Tse) أو (Chuang Tzu)]، في الحلم أن فراشة تقفز من زهرة إلى زهرة، فشعر بسعادة لأنه أصبح فراشة. ومع ذلك، استيقظ متحيرًا ذلك الصباح، لأن الحلم كان شديد التكثيف لدرجة أنه نسي تمامًا مَن كان طيلة مدته. سأله تلاميذه:

- أيها المعلم، لم نرك حزينًا من قبل، ماذا ألمّ بك اليوم؟

رمقهم المعلم بنظرات شاردة، وكأنها عائدة من عالم آخر.

- لدي مسألة أطرحها عليكم وأريد منكم أن تحلّوها.

- حسنًا تفضل، أخبرنا بها.

- حلمت البارحة بأنني صرت فراشة.

انفجر تلاميذه في الضحك، معتقدين أنها مزحة.

- لكنك مستيقظ الآن. لماذا يتعين علينا أن نظل قلقين؟

- أعيروني انتباهكم. هذه هي المعضلة. إذا كان بوسعي الحلم وأستطيع أن أتحول في أحلامي إلى فراشة، ماذ يمنع حدوث العكس تمامًا. بنفس الطريقة تستطيع فراشة أن تنام وتحلم بأنها تحولت إلى جوانغ زي. ومن ثم أخبروني، هل حقًا حلمت بأنني صرت فراشة أم أن الفراشة هي التي تحلم الآن بأنها أصبحت جوانغ زي؟

يبدو واضحًا أنه في سياقات مثل هذه وأخرى مماثلة، أن فرضية الشك الخاصة بالحلم توجد عليها أمثلة سابقة شديدة القدم في جميع الثقافات. وبالمثل فإن الثقافة العربية بصدد هذه المسألة تشير إلى أن كل شيء في الواقع له مقابل في الحكايات الخرافية، مثل حكاية "حلم الرجل الفقير" من ألف ليلة وليلة. بينما في الثقافة الغربية يمكننا أن نذكر بداية من بندار "الرجل حلم ظل"، وصولًا إلى شكسبير "نحن نفس الشيء المصنوعة منه الأحلام، وحياتنا القصيرة محاطة بحلم"؛ منذ سوفوكليس "نحن، جميع الأحياء، لسنا أكثر من مجرد محاكاة وظل خفيف"، وصولًا إلى كالديرون دي لا باركا، حيث يوضح في ذروة عمله الدرامي "الحياة حلم" (١٦٣٦) شخصية الواقع الوهمية من خلال الأبيات الشهيرة على لسان بطله سخيسموندو.

ما هي الحياة؟ مجرد وهم،

ظل، خيال،

وأكبر الممتلكات ضئيل:

والحياة كلها حلم،

والأحلام، مجرد أحلام.

الطريف في الأمر، أن لويس كارول قرر ختام كتابه "عبر المرآة وما وجدته أَليس هناك" ببيت شعري يكاد يكون متطابقًا:

أليست الحياة ما هي إلا حلم؟

يقرر عالم الرياضيات والمنطق، الموقر المعروف بالاسم المستعار لويس كارول، عقب التوغل في عالم الأحلام والمتناقضات من خلال العمل الذي منحه الصيت، "أليس في بلاد العجائب"، إعادة صياغة الجزء الثاني، عبر المرآة، الذي يغوص من خلاله في عالم التكهنات، ويضاعف مستوى المشكلات، مؤكدًا على فكرة الحلم داخل الحلم. تلتقي أليس في الفصل الرابع بشخصيتي التوأم تويدلدوم وتويدلدي، في مشهد، سيكشفان لها أنها ليست سوى شيء بلا أهمية في حلم الملك. (إنه يحلم الآن) يخبرها تويدلدي. وبأي شيء يحلم في اعتقادك؟

- لا يستطيع أحد أن يعرف (هكذا كان يتعين على أليس أن تجيب).

- إنه يحلم بكِ (يصيح تويدلدي ويصفق منتصرًا وهو يتحدث، لأن شخصيات كارول كانت غريبة الأطوار على هذا النحو). وإذا كفّ عن الحلم بكِ، أين يمكن أن تكوني في اعتقادك؟

- هنا في نفس المكان حيث أوجدُ الآن، بكلّ تأكيد.

- لا! (أجابها باحتقار)، لن تكوني في أي مكان. لأنك لست سوى جزءٍ من حلمه!

يضع شقيقه التوأم تويدلدوم حدًا للنقاش.

- إذا استيقظ ذلك الملك، فستنطفئين كشمعة.

من بين العديد من الأمور الأخرى، تحول الكاتب خورخي لويس بورخيس، لأكثر مروج لطرفة فراشة جوانغ زي في لغتنا (أكثر من أوكتافيو باث أو ليثاما ليما) حيث أدرجها في العديد من نصوصه ضمن مختارات أنطولوجيا أدب الفنتازيا، التي أصدرها عام ١٩٤٠ بالتعاون مع أدولفو بيوي كاسارس وسيلفينا أوكامبو، ليضفي عليها هناك بنيتها* التي ربما مازالت معروفة إلى اليوم، كما ضم الإصدار مقطع لويس كارول. وكان في نفس الوقت، يشعر بأنه ممسوس مثل جميع من سبقوه أو أكثر بهاجس فكرة الوهم وتكهنات الحلم، لدرجة أنه سيكون من المبالغ فيه أن نُجري هنا حصرًا لكل قصائده، وقصصه القصيرة، ومقالاته، وتحليلاته التي يمكن تتبع أثر هذا الموضوع فيها. كما يحسب من بين مؤلفاته أيضًا عمل بعنوان "كتاب الأحلام" (١٩٧٥)، جمع فيه مرة أخرى هذه المقاطع، لكي تضم صفحاته جميع أحلام البشرية الكبرى، منذ أحلام الأنبياء الأولى في الشرق الأقصى وصولًا إلى آخر حيل السرد المعاصر. ومع ذلك، ربما كانت قصته القصيرة، "الأطلال الدائرية"، أفضل محاولاته على الإطلاق لبلوغ الطموح القديم، تصوير الحياة على أنها حلم، من خلال بطل يتصدى لمهمة بالغة الأهمية تتمثل في الحلم بإنسان: "أود أن أحلم به

* بلور بورخيس من خلال معالجته واحدة من أكثر الحكايات متناهية الصغر شهرة لدى المغرمين بجنس السرد الخيالي: " حلم جوانغ زي بأنه فراشة. وعندما استيقظ لم يعرف إذا كان زي هو من حلم بأنه فراشة أو أن الفراشة هي التي حلمت بزي". (المؤلف)

بأدق تفاصيله، وأفرضه على الواقع"، ويتمكن بورخيس، شيئًا فشيئًا، من خلال التركيبة المعقّدة للقصة، من عرض بنية عالم مكون من البشر (أو الآلهة) يحلم بعضهم ببعض.

قدم شيئًا مماثلًا في نصِّه الموجز "كلُّ شيء ولا شيء" (Everything and Nothing)، الذي خصصه لشخصية شكسبير. عندما يجد الشاعر الإنجليزي نفسه على مشارف الموت في سطور النص الأخيرة، ينفخ الحياة في العديد والعديد من الشخصيّات، ولإدراكه أنه بين يدي الرب يتجرأ على أن يطلب منه:

- أنا، لا أريد الآن، بعد أن كنت العديد من الرجال بلا جدوى، سوى أن أكون واحدًا هو أنا.

فيجيبه صوت الرب الهادر وسط عاصفة رعدية:

- أنا أيضًا لم أكن أنا. لقد حلمت العالم مثلما حلمت أنت عزيزي شكسبير، بأعمالك، وكنت أنت موجودًا بين أشكال حلمي، وكنت مثلي كثيرين ولا أحد.

من المهم توضيح أنه، على الرغم من أن بورخيس استخدم الرب موضوعًا وأداة سردية في عدد لا يحصى من المواقف، إلا أنه لم ينته مطلقًا لتأكيد وجوده. وواقع الأمر، أن فكر بورخيس بالكامل، يتأرجح حول شيء مشابه لهذه المعضلة: هل الحياة يحلم بها شخص ما (قد يكون في النهاية مجرّد مفهومنا المبهم عن الرب) أم بالأحرى حُلم يحلم بنفسه؟

ومع ذلك، ما تزال متبقية قصة قصيرة أخرى للعبقري الأرجنتيني تكتسب هنا أهمية خاصة. نص ينأى عن فرضية الحلم، وبالرغم من ذلك، يجسد بدقة أكثر بكثير مما جرى منذ بداية ظهور تيار ما بعد الحداثة: وكيف انتهى الحال بالثقافة (البناء البشري الذي تمخض عن الواقعية المفرطة التي تطفو فوق رؤوسنا) بابتلاع كل ما كنا نستوعبه من قبل بصورة حدسية على أنه حقيقي وتواصلنا الضعيف مع العالم. في قصة "Tlön, Uqbar, Orbis Tertius" أو "تلون، أوكبار، ترتيوس*"، تجمع سكاني سرّي من العلماء وكبار المفكرين، يكرّسون أنفسهم لإعداد موسوعة عن كوكب تلون. بمعنى أن، أفراد هذا التجمع السكاني نذروا أنفسهم تمامًا للمهمة الشاقة من أجل إعداد تاريخ، علم الميتافيزيقا، علم اللاهوت، الجبر، الهندسة، اللغة، أو الجغرافيا الخاصة بكوكب لا وجود له. فتتضاعف الوثائق والمعارف حول هذا الكوكب الخيالي، إلى أن تصبح أكثر تأثيرًا في العالم الحقيقي. لدرجة أن تلون وسكانه، المثاليون بطبعهم، ينكرون مُثل بيركلي المادية ويعتبرونها انحرافًا للعقل، يستبدلون في النهاية العالم المعروف بالكامل، بعالم أكثر واقعية منه.

بطريقة مماثلة بشكل مخيف، عندما نضيف معرفة جديدة وخيالات إلى محيط تراثنا الثقافي، فإننا لا نكف عن فرض

* عنوان القصة، المفترض أنه يشير إلى محاولة تأليف موسوعة مشابهة للموسوعة البريطانية عن عالم خيالي اسمه (تلون)، ابتكره بورخيس وشعبه الأسطوري السري (أوكبار)، الذي يعيش في هذا العالم ويعتنق فلسفة بيركلي التي تنكر المادية. (المترجم)

طبقات وطبقات أكثر على نموذجنا عن الواقع، وتحويله إلى شيء مختلف أكثر فأكثر عما كان عليه.

صاغ صديق بورخيس الحميم وزميله المخلص، أدولفو بيوي كاسارس، المحرر الثاني لأنطولوجيا الأدب الفنتازي، بالتعاون مع زوجته سيلفينا أوكامبو، أداة رائعة أيضًا تصور الواقع كمحاكاة. في روايته "اختراع موريل"، يكتشف عسكري هارب مختبئ في جزيرة مهجورة ملوّثة بالإشعاعات، فجأة، الوجود المستحيل لفوج سياحي. يدفعه الفضول، لعجزه عن العثور على تفسير لما يفعلونه هناك إلى التجسس عليهم، فيلاحظ سلوكيّات أخرى غير مألوفة، مثل محاولتهم التغلب على البرد على الرغم من الحرّ الخانق. وفي النهاية، سيلاحظ في أوقات معينة أنه يتألق في السماء قمران وشمسان. لم يعد هناك سوى تفسير واحد محتمل فحسب، إثر تعاقب سلسلة من الظواهر الغريبة: أن أحد السائحين (موريل) اخترع آلة قادرة على إعادة انتاج الواقع.

من وجهة نظرنا، قد نتصور أن ما يشعر به أي متفرج في مواجهة تأثيرات الآلة التي اخترعها موريل، لن يختلف كثيرًا عما اختبره أولئك الذين حضروا العرض الجماهيري الأول للأخوين لوميير، بعد ظهر أحد أيام يناير ١٨٩٦ حينما عرضا في الجراند كافيه بباريس "وصول قطار إلى محطة لاسيوتا". باستثناء أنه هذه المرة من خلال ثلاثة أبعاد متداخلة*.

---

* لولا الواقعة الشهيرة في تاريخ السينما لما بدت أكثر من مجرد أكذوبة أخرى من الأكاذيب

ولا يعقل أن ننهي هذا الإحصاء الذي يتناول كيف انهارت قناعاتنا بشأن الواقع تحت أقدامنا بدون ذكر الشخص، الذي يعد ربّما، مؤلف أدب الخيال العلمي الأكثر تأثيرًا في الثقافة المعاصرة: فيليب ك. ديك، الذي قالت عنه الأستاذة المتخصصة في هذا النوع الأدبي، أورسولا ك. لي غوين: "لدينا بورخيسنا المحليّ". ولا يمكن أن يقاس تأثيره على صيغتنا الحالية في إدراك العالم من خلال القراءة المباشرة لأعماله فحسب، والتي لطالما كان تغلغلها أبطأ في نسيج المجتمع، بل ينبغي علينا أن نأخذ في الحسبان المعالجات السينمائية المستمرة لأعماله، والتي ضمنت اكتساب رؤيته الفريدة للعالم تأثيرًا أكبر وأسرع في المجتمع. تتمحور كل أعمال فيليب ك. ديك حول فكرة انهيار، تشرذم أو التشكيك في الواقع.

حاولت أعماله، على مدار أكثر من عقدين (بداية من أعمال مثل عين في السماء ١٩٥٧، وصولًا إلى فاليس* ١٩٨٢، مرورًا بعدد لا يحصى من القصص القصيرة وروايات أخرى مثل الزمن المحطّم ١٩٥٩، الحقيقة قبل الأخيرة ١٩٦٤، أوبيك ١٩٦٩، أو انهمرت دموعي، قال رجل الشرطة ١٩٧٤) تقديم

الكثيرة التي تنسجها مخيلتنا عن العالم. يؤكد البروفيسور مارتين لويبردنجر، أنه على الرغم من الإشارات التي لا حصر لها خلال العقود الأخيرة في وسائل الإعلام والكتيبات المتخصصة حول تاريخ السينما، التي تؤكد أن المشاهدين شعروا بـ"خوف، رعب، وحتى هلع"، و"تشبثوا بمقاعدهم"، "خرجوا يعدون مهرولين من الصالة خوفًا من أن تدهسهم القاطرة". لا يوجد أي تقرير يوثق ردّ الفعل هذا. ومن ثم يجب إحالة هذه الأسطورة عن المجتمع المعاصر إلى مملكة الفنتازيا التاريخية. من ناحية أخرى، سيظل وصول قطار (كما ساد الاعتقاد دومًا) مجرد فيلم وثائقي. يتناول بالفعل شريطًا أخرجه لويس لومبير، مشهدًا معدًّا سينمائيًا، حيث المسافرون المزعومون الذين يظهرون به مجرد كومبارس، من أقارب عائلة لومبير، وقد تلقوا توجيهات ألا ينظروا إلى الكاميرا، وأن يتظاهروا بالتلقائية. أكذوبة فوق أكذوبة. (المؤلف)

* اختصار مصطلح نظام ذكاء حيٍّ نشطٍ واسع النطاق. (المترجم)

إجابة على السؤالين الأكثر إثارة لحيرته: ما هو الواقع وماهي ماهية الإنسان. وسواء استخدم التكنولوجيا، أو المخدّرات، وقد تكرر هذان الموضوعان المرتبطان كثيرًا في إنتاجه الأدبي، وحسبما يؤكد المؤلف في نهاية عقد السبعينيات خلال حوار بعنوان "كيف يمكن أن نشيّد عالمًا لا ينهار بعد يومين"، فإن هذا الإنتاج تناول باستمرار مسألتي من نحن وما هذا الكون المحيط بنا، الذي نطلق عليه اللا ذات أو عالم الظواهر الإمبريقية.

يعتقد بطل روايته الزمن المحطم، من بين جميع شخوصه، التي قد تصلح نموذجًا بالنسبة لنا، أنه يعيش في عام ١٩٥٩ في منطقة أمريكية سكنيّة هادئة. بسبب قدراته على التنبؤ وبسبب المتناقضات الكثيرة التي يصطدم بها، تبدأ الشكوك تساوره في أن العالم الذي يعيش فيه ليس كلّه حقيقي. يكتشف، حينما يحاول الهرب من مدينته، عقب اجتياز كافة المعوقات العبثية، أن زمنه الحقيقي في عام١٩٩٨ . لكن يوقع به خاطفوه ويمحون ذاكرته. يكتشف أثناء محاولة ثانية للهروب، ولكن يرافقه هذه المرة صهره، (وهو مثل جميع الباقين، مشترك في المسرحية الهزلية الرهيبة)، أن مدينته الفردوسية مشيدة وفقًا لذكريات طفولته وأحلامه، لحمايته من حرب في المستقبل مع غزاة من القمر. تتمثل السلطة الفعلية في هذه الحبكة بالتحديد عند ديك، من خلال القيادات العليا في الجيش، الذين يستخدمون مهارات بطله للتنبؤ بالمواقع التي ستسقط فيها قنابل العدو النووية التالية.

لعلك لاحظت عند هذه المرحلة التشابه الكبير حقًا مع فيلم "ترومان شو"، والذي قدمه للسينما بيتر وير عام ١٩٩٨ بالتحديد. ومع ذلك، فإنه ليس عمل فيليب ك. ديك الوحيد المنذور لكشف أكذوبة الواقع الكبرى، فالكاتب اكتسب ثقلًا كبيرًا فيما يختص بأسلوب إدراكنا اليوم للعالم المحيط بنا. حظي الكاتب الأمريكي بالقدرة على إثارة دمار حقيقي في ثقافتنا من خلال قصص لا تتجاوز العشرين صفحة. فكر، على سبيل المثال، في مضمون قصة "نستطيع أن نذكرك إياه بالجملة" ١٩٦٦، والتي يحلم بطلها بالسفر إلى المريخ، على الرغم من أن مدخراته لا تسمح له. فيقوم بزيارة شركة ريكول (Rekall Inc.) المتخصصة في زرع الذاكرة الصناعية، وتعرض عليه زرع كل تفاصيل ذكريات مغامرة على الكوكب الأحمر، الذي يفترض أنه سافر إليه بصفته عميل سري. تظهر المشاكل حينما اكتشفوا عندما حاولوا تعديل ذاكرته، أن البطل كان بالفعل عميلًا سريًّا للحكومة، قامت السلطات بمحو كافة المعلومات السرّية التي كان يعرفها. عند هذه النقطة، يمكن لقارئ القصة (وبالتأكيد قارئ هذه السطور) أن يدرك بالفعل دوامة المتاهة التي فتحت تحت قدميه: واعتبارًا من هنا سيكون من الصعب تمييز إذا كان كل ما يجري يحدث بالفعل، أو جزءًا من عرض إجازات اشتراه الزبون. ولكان من اليسير أيضًا التعرف على قصة الفيلم الشهير (استحضار تام*)، ١٩٩٠، ومعالجة سينمائية لـبول فيرهوفين، وبطولة نجم الحركة أرنولد

* ترجم عنوان الفيلم تجاريًا في إسبانيا إلى "التحدي التام". (المترجم)

شوارزنيجر. ومع ذلك فإن تأثيراته أكبر من ذلك بكثير لو اتسع المجال، ولا تتوقف التأثيرات الحقيقية لهذه القصة وغيرها من القصص القصيرة عن التفريخ حتى النصف الثاني من عقد التسعينيات، في إطار حركة ذات بعد عالمي، لتشمل أعمالًا سينمائية مثل "اثنتي عشر قردًا" ١٩٩٥، "أيام عجيبة" ١٩٩٥، والفيلم الياباني "شبح في القوقعة" ١٩٩٥، "افتح عينيك" ١٩٩٧، على الرغم من أن أليخاندرو أمينابار لم يعترف بتأثير ديك المباشر، "جاتاكا" ١٩٩٨، "المدينة المظلمة" ١٩٩٨، "إيجزيستنس" ١٩٩٩، "المستوى ١٣" ١٩٩٩، "أن تكون جون مالكوفيتش" ١٩٩٩، وربما كان أكثرها وضوحًا من الباقين في فيلم "ماتريكس" ١٩٩٩.

تحول الفيلم الأخير بلا منازع إلى أيقونة لعالم الواقع الافتراضي الذي تمخض عنه الحاسوب. يشير ماتريكس من بين الكثير من الإحالات إلى، أليس في بلاد العجائب للكاتب لويس كارول*، كما أصبح عملا كلاسيكيًا، وبات معروفًا لدي

---

* يتلقى نيو بطل فيلم ماتريكس، رسالة على شاشة حاسوبه ستؤدي به إلى اكتشاف زيف عالمه: "استيقظ، نيو. الماتريكس يستحوذ عليك. اتبع الأرنب الأبيض". وهكذا سيمضي في أثر أحد قراصنة الانترنت، يدعى مورفيو، الذي سيكون بمثابة مرشده في عالم الأحلام، على غرار ما حدث مع أليس، ويحذره:

هذه هي فرصتك الأخيرة. لن يكون أمامك مجال للتراجع، بعد الآن. إذا تناولت الكبسولة الزرقاء، تنتهي القصة. سوف تستيقظ في فراشك وستصدق ما شئت أن تصدقه. أما إذا تناولت الكبسولة الحمراء، فستبقى في بلاد العجائب، وسوف أرشدك إلى أين يقود جحر الأرنب. تذكر، إن كل ما أعرضه عليك هو الحقيقة، ولا أكثر من ذلك.

من ناحية أخرى، فإن بطل "استحضار تام"، بطولة شوارزنيجر عرضوا عليه قبل تسع سنوات حبة حمراء، وأوضحوا له أنها تمثل رمزًا لرغبته في الرجوع إلى الواقع.

وبالرجوع في الزمن لأبعد من ذلك، فإن شخصية عرافة الأوراكل، التي ستتحول إلى برنامج مفكر مندمج في شيفرة الماتريكس، قد تعبر ليس عن قط شيشاير أو اليرقة الزرقاء فحسب، بل أوراكل دلفى، والذي وفقًا لأفلاطون في مؤلفه "الأبولوجيا"، أنار بصورة حاسمة بصيرة أستاذه

الكثيرين على أنه عمدة الأعمال الرقمية، ظاهرة جماهيرية، اجتذبت قدرًا كبيرًا من المتابعين وأسس لثقافة شعبية واسعة تتمحور حول إدراك الواقع كمحاكاة.

كما يعد ذروة تأثير الدومينو الذي أثاره فكر فيليب ك. ديك بنهاية القرن، والانتشار الأوسع للفيروس الذي لقح به ديك وبورخيس صميم ما بعد الحداثة، والتي كانت بدورها محاصرة بالفعل بالشكوك. على الرغم من أن تداعياته ظلت تتفاقم في العقد التالي*.

يمتلئ عصرنا بالكامل بمثل هذه الصور، التي تنتقل كالعدوى بمنتهى السهولة. ويتوقف إدراكنا لما هو واقعي على موروثنا التاريخي، وكيف نتعلم تأويل الصور وكذلك على طريقة بناء هويتنا الفردية والجمعيّة أيضًا، وكيف نكتب أو نعيد كتابة تاريخنا، وعلى كيف تتشكل العادات، الأساطير، الخيال الشعبي، الانحيازات والأحكام المسبقة. تتراكم الأفكار، تتطور أو تتبدل حول الإنسان. تجري الأمور على هذا النحو

سقراط، ليغير على هذا النحو وإلى الأبد مصير مبتكر أسطورة الكهف. (المؤلف)

* في الجزأين التاليين "ماتريكس يعاد تحميله" 2003، و"ثورات الماتريكس" 2003، أو أفلام مثل "دوني داركو" 2001، "إشراقة أبدية لذهن صافٍ" 2004، "البداية" 2010، إخراج كريستوفر نولان. أو "سان جزنيبيرو" الموسم الرابع من مسلسل "المرآة السوداء" 2016، أو جميع أجزاء مسلسل "العالم الغربي" 2016، الذي يسعنا أن ندرج فيه مقطعًا من إبداع ديك بدون الإخلال بتناغمه:

اكتشف السيد جارسون بول فجأة أن واقعه عبارة عن شريط سينما مثقوب يتنقل من بكرة إلى بكرة داخل صدره. شرع من فرط انبهاره في إعادة ملء وإضافة المزيد من الثقوب إلى الشريط. فتغيّر عالمه في الحال. حلّق سرب من البط عبر الغرفة حينما أحدث ثقبًا جديدًا. في النهاية، مزق الشريط بالكامل فاختفى العالم، (فيليب ك. ديك: كيف تشيد عالمًا لا ينهار بعد يومين) 1978. (المؤلف)

دائمًا، على الرغم من أننا لم نتمكن بعد من المضي أبعد من عقلنا أو إثبات باقي العالم، وفي نفس الوقت، لا يوجد أحد منا بوسعه التفكير أو الاعتقاد مطلقًا بمعزل عن الآخرين. ولا يستطيع أن يفعل هذا حتى أكبر العباقرة السابق لعصره، فكل فكرة تولد من أفكار أخرى سابقة عليها، والنابعة من الإطار المعقد الذي يكون المعرفة المتراكمة في نظم الكتابة لدينا وفي كافة العقول الأخرى مجتمعة. على الرغم من حقيقة أن عقول الآخرين، حتى الآن، ليست أكثر من تخمين وامتداد لذاتيتي.

وعلى هذا النحو، نجد أنفسنا دوما على حافّة العوالم.

في توازن دائم وهش بين المادي والميتافيزيقي. بين الأنا والآخرين. بين الإدراكات والأشياء المادية في حد ذاتها. بين المظهر والجوهر، أو ما يفترض أنه كذلك.

نتعجل نسج شبكة خيالاتنا، على شفير هاوية من العدم المطلق تحت أقدامنا.

أول أكذوبة كبرى

يعد الإبداع والقدرة على الخيال، من أفضل السمات التي تميز بها القرد العاري* منذ ظهوره في العالم. يتيح الخيال المجرد فحسب، وليست القوة، أو الحجم، أو المقاومة، أو السرعة، للإنسان التميز عن باقي الأنواع. وتعتبر القدرة على التخيل، مثل المخالب لدى النمر أو السم لدى الأفاعي، السمة المتطورة التي مكّنتنا من البقاء على قيد الحياة، والتكيف، وفي النهاية السيطرة على محيطنا.

سمح لنا الكذب، والخداع، والادّعاء أكثر من أي شيء آخر عداها، بالديمومة. كما يعد نظم الشعر، السرد، تأليف الحكايات الخرافية، الحدس، التزييف، مراحل أساسية ضمن عملية المعرفة. ويعتبر الخطأ، استراتيجة المراوغة، الزعم، التخمين، الاستعارة، الافتراض، من بين العديد من الوجوه الكثيرة لأسلوب حياتنا في العالم. تعد طريقتنا في تشييد

* القرد العاري، أو (The Naked Ape) باللغة الإنجليزية، عنوان كتاب علمي شهير نُشر عام 1967 من قبل عالم الحيوان وعالم السلوك البريطاني ديزموند موريس، ويدرس خصائص الحيوانات التي تبرز تفرد الجنس البشري عن باقي فصائل الحيوانات. (المترجم)

العالم. ولن يكون للعالِم أو الفيلسوف خيار الإيقاع بأي شيء ذي قيمة، إذا لم يتوافر لديهما إمكانية طرح شباك فرضياتهما (وهي إحدى أشكال الكذب). ومثلما نحتاج للأدب لكي نحكي ونروي لأنفسنا الأحداث الخاصة بحياتنا، ولكي نشرح لأنفسنا أحداث التاريخ أو النظريات من خلال إطار سردي مفهوم، لا يمكن فهم الحياة ذاتها أو الهوية نفسها إلا على أنها مجرد حكاية.

ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، فإنه حتى أكثر البشر تشكّكًا، لا يستطيع، مهما بلغ وعيه بهذا، ورغبته في تصديق زيف كل ما يحيط به، ومهما أدرك أنّ كلَّ معارفه مجرد ظنون، أن يرفض بصورة قطعية كلّ ما تمليه عليه الحواس. لا يستطيع أي عقل سليم ألا يشعر بالتعاطف تجاه نظرائه أو تجاهل الألم الجسدي.

وبناء عليه، فبمجرد ظهورنا، وجدنا أنفسنا منجذبين نحو القيام بأفضل ما نجيد فعله. وكان أول شيء فعلناه هو الكذب والتخمين والمقامرة بإطلاق أول فرضية عظيمة: وجود العالم.



التفكير السحري والتفكير الخيالي

على الرغم من أننا نجيد الكذب أكثرَ من أي جنس آخر، يكشف التفكير (مثل العديد من السمات المتطورة) أيضًا عن هفواته وعيوبه. تستخدم ذكور الأيائل قرونها الضخمة كسلاح، ولكي تثبت أيضًا فحولتها أمام الإناث، ولكن يؤدي استطالة قرون الوعل المتفرعة لثلاثة أمتار طولًا وزيادة الوزن ثلاثين كيلوجرامًا سنويًا، لإهدار طاقة ضخمة، كما أن تحمل كل هذا الوزن فوق رأسها طوال شهور التزاوج ليس به أي ميزة على الإطلاق.

يُسهِّل المنقار الطويل على طائر الطنان استخراج الرحيق من الأزهار، وهكذا تحديدًا، يصل طائر الطنان لأبعد مما يستطيع أن يصل إليه أي من منافسيه بفضل منقاره البالغ طوله اثنتي عشر سنتيمترًا؛ ومع ذلك، فإن هذا الطول المفرط يضطره لأن يظل دائمًا منتصب الرأس لحفظ توازنه ولا يسمح له بالاعتناء بنفسه أو التخلص من العوالق، لأنه يتجاوز ارتفاعه. ساعدنا الذكاء البشري، بنفس الطريقة، على البقاء على قيد الحياة والحصول على الطعام، لكن كانت له عواقب أخرى لا حصر لها. ولم تكن كلها نافعة.

يكمن جوهر تفكيرنا في الإسقاط. ويشمل ذلك إسقاط كافة أشكال الأوهام والأشباح والسراب على الواقع.

ولهذا السبب، كان أول شيء فعله الإنسان بمجرد ظهور جنسه البشري، هو تأكيد إيمانه بوجود العالم، حتى قبل أن يجمع أدلة دامغة، ومستندًا إلى الحدس فحسب. لم تكن تلك الفرضية الأولى سوى محض افتراض عابر، مثل باقي الافتراضات. ومع ذلك، وعلى الرغم من أننا توصلنا عبر القرون إلى صياغة تكذيب لا يقبل نقضًا أو إبرامًا من وجهة النظر المنطقية، وعلى الرغم من أننا جمعنا قدرًا هائلًا من البيانات العلمية تثبت أن الكون لا يشبه على الإطلاق ما ندركه عنه، إلا أننا مازلنا إلى اليوم نحتفظ بنفس الفكرة. نعيش، بالفعل، حالة من الشك الدائم، مثلما تيقَّنَّا من أن القرن الحادي والعشرين عالق في دائرة الواقع كمحاكاة، ومع ذلك فلا أنت ولا أنا نستطيع إنكار ما يصلنا عبر الحواسّ، لعجزنا بطبيعة الحال عن فعل ذلك. لن نسير عرايا في الشارع وكأن العقول الأخرى غير موجودة، ولن نستيقظ غدًا يراودنا تفكير في أن قوانين الفيزياء ربما قد تغيرت وأصبحنا قادرين الآن على الطيران، و(على الرغم من أن ذلك لن يقلّل ولو ذرة من شعورنا بأننا مرتبطون بالواقع بخيط واهٍ) لن نلقي بأنفسنا من النافذة لإثبات وجود المادة. سنظل، على العكس، متتشبثين بظروفنا الواهية، بتلك المشكلة التي تزعجنا، بذلك الألم الذي يضجرنا، بذلك المرض، مرضنا أو مرض شخص عزيز علينا،

مع إدراكنا أنه سيظل باقيًا على حاله، ينتظرنا، عندما نستيقظ في اليوم التالي. وسوف نميز بكل وضوح بين كافة درجات أوهامنا: الحازمة والصارمة، الخاصّة بالأشياء الملموسة؛ والتي تنتمي إلى الثقافة المشتركة؛ والحميميّة والمحصورة في نطاق عالمنا العقلي الخاص.

الأمر التالي الذي سيفعله الإنسان المتردد، وغير الراضي عن تأكيده المتسرع الأول، هو الإقدام، مع بداية عصرنا، على إطلاق فرضيته الكبرى الثانية: وجود الهويّة.

وسيبدأ بعد ذلك بكثير، وبعيدًا عن أيَّ شكوك، حول تلك الذات المفكرة، تلك اللحظة الإشراقية، المنبثقة من ذلك الإدراك الضئيل، والتي سيتمكن ديكارت من إثباتها، في مراكمة كافة أشكال الأمور الوهمية. ولن تعدو أن تكون أكثر من ذلك، خداع، وغش ومظاهر محضة. لأن الشيء الوحيد الذي يجعل تلك الذات المتماسكة تكتسب هويّة شخصية معقدة هو استمراريتها عبر الزمن، ولا أكثر من ذلك. ولبناء تلك الاستمرارية النفسية ليس لدينا سوى ذاكرتنا، وهي ليست معصومة من الخطأ، وتعمل بواسطة الصور، ومن خلال نسخ مشوشة، نابعة من مخيلتنا أو من تجربتنا، التي تفرض ترتيبًا زمنيًّا متقلّبًا قد يكون في النهاية مدسوسًا علينا (على غرار حالة راسل أو مثلما في قصة ديك)، التي أشرنا إليها قبل دقائق قليلة، على الرغم من زعمها احتواء سنوات من الذكريات.

وعلى هذا النحو، نظر الإنسان حوله، بهويّته الفردية الجديدة المتوهجة، التي تتسم بالاستمرارية المزعومة، الماضي، والشخصية وقصة السيرة الذاتية، وابتسم. فإنجازه قد شرع في البدء توًا. حقيقه الأمر، أنه قد وجد نفسه، على غرار الثدّييات العليا في عالم سابق على ظهوره، حقًا. ولكن على عكسها، لن يتوافق مع ذلك العالم سابق التجهيز، بل ستدفعه السمة المميزة لتطوره للمضي قدمًا، لكي يصنع عالما وفق معاييره.

تبدأ حينئذٍ المرحلة الثالثة من عملية الإيهام الخاصة به، والتي مازلنا غارقين فيها: بناء هرمه الأجوف.

حقيقة ما جرى أنه على هذا النحو، عاريًا كما هو، ومعرّضًا للخطر، يتقاذفه الحظ والاحتياج، إضافة إلى قلقه على مستقبله، ومعتمدًا فحسب على ذكائه الفطري، لن يكون أمامه حلٌّ آخر يلجأ إليه سوى التفكير السحري. وانطلاقاً من تصميمه على إعادة بناء العالم، فإن الضعف والخوف سيكونان من ثم دافعه لاختيار أسهل الطرق. وسيحاول الإنسان عندما تسيطر عليه الحاجة للتحكم في الحظ والطبيعة، اللذين يشعر أمامهما بأنه شديد القوة وشديد الضآلة، خداع القوى الخفيّة التي يتخيل أنها تختبئ وراءهما. وسوف يستنتج، تماشيًا مع منطق التفكير السحري، أن ما حدث ذات مرة في ظروف بعينها سيتكرر مجددًا في نفس الظروف. وسوف تنكشف عدم جدارة حكمنا عندما تتضمن هذه الظروف، ليس مجرد الأسباب الضرورية

فحسب، بل أيضًا العوامل المسببة.

قادنا هذا الربط الخاطئ، هذا الخلط بين السببية والمصادفة إلى خرافات لا عقلانية. والشامان ليس إلا مجرد محتال آلهة. يعتقد أنه يعرف وظيفة العالم العميقة، معتمدًا على مراقبة التكرارات، ويحاول تعديل أحداث المستقبل بواسطة استخدام حيلة ما. وبينما ينتج رفاقه منهمكين في القنص وصيد الأسماك وجمع الثمار، يحاول المشعوذ التأثير في تلك العمليات ذاتها ناصبا فخًا للقوى الأخيرة. ويصمم لأجل ذلك الطقوس، ويستخدم صيغًا تخلو من أي مغزى دلالي، ويبتكر رموزًا تضفي على الواقع معانِيَ مجرّدة لم تكن موجودة هناك من قبل. يحاول إخفاء قدر هائل من العناصر عن الآخرين ليحافظ على مكانته المتميزة في المجموعة. عندما يحاول الشامان علاج جرح الصياد، ربما يستخدم بضربة حظ، خلاصة نبات لديه خصائص مفيدة، لكن يمزجها بدوزينة من العناصر غير المفيدة كانت موجودة هناك بالصدفة. وسوف يحدث نفس الشيء مع المشعوذ الذي قرر تكرار نفس الظرف لمجرد أنه تزامن مع حدث وقع بضربة حظ.

لذلك حاول الإنسان خداع الطبيعة، وتوهم قوى خيالية ولفق لها أفخاخًا اصطناعية. وانتهى به الأمر إلى وقوعه شخصيًا في شباكه الوهمية.

يتلألأ عقلنا بكل أسف. ويتلألأ بصورة خاطئة.

لاحقًا، بعد أن نهجر نحن معشر البشر القبيلة وحياة الترحال، وتشرع التجمعات السكانية الصغيرة في التحول إلى مدن، سوف يبدو لنا التطلع للسيطرة على المستقبل غير كافٍ. وسوف نقوم بمهمة جديدة أكثر طموحًا، بحثًا عن مغزى قد يفسر وجودنا.

سوف يبدأ التفكير السحري في التعايش مع واحدة أخرى من عقد عقلنا، وهي التفكير الأسطوري. وسوف يبدأ شيئًا فشيئًا في الحلول محله في غالبية الفضاءات.

يفتقر هذا العالم غير المكتمل بعد لنظام ومغزى. لذا احتاج عقل الإنسان البدائي لاختراع سياق يفسره ويدعمه، رواية تضفي معنى على وجوده في عالم لم تتوافر فيه بعد طبقات المفاهيم والإطار التجريدي. وبناء عليه، تتطلب الأسطورة وجود راوٍ وبعض المستمعين يتسمون بالذكاء. وطقس، بخلاف ما يحدث في السحر، لن يكون بصريًّا، بل اجتماعيًا، تستبدل فيه الصيغ الخالية من مضمون دلالي بالمعاني. يشرع الرجال والنساء في اختراع قصص: حكايات تُروى على دفء النار بعد أن يكونوا قد أشبعوا جوعهم، عندما يحين وقت الترفيه؛ وأساطير، عندما يُعاد خلق الأحداث التاريخية الخارقة لإشعال حماس تلاحم الشعب؛ وأساطير، تضفى عليها عندما تُروى صفة القداسة وتكون مصحوبة بشعائر طقسية.

لا ينظر مبتدع الأسطورة إلى نفسه على أنه مختلق لخيال.

ولا يعرّف كل مشعوذ نفسه دومًا على أنه كاذب. بل يشعر أنه مختار من قبل الآلهة، ويعتقد أن الحقيقة كُشِفت له بصورة مباشرة عن طريق الإلهام. أدرك العبث الوجودي، ولهذا السبب اختلق قصة قوامها العدالة، تعوض الظلم غير المفهوم المتسبب في بؤس من حوله. ومن ثم ليس أمامه من سبيل آخر سوى تقسيم العالم إلى نصفين: نصف خاص بنا نحن الفانين الذين نعيش الزمن العادي، ونصف خاص بالآلهة والأسطورة، المستقرين للأبد في زمن خالد، عبارة عن ماضٍ لا يمضي لأنه محمل بالمعاني.

وهذا ما يحدث، عندما ينجح الإنسان في الكفّ عن القلق بشأن بقائه على قيد الحياة، ويبدأ في التأمل بشأن وجوده. ينتقل السحر إلى مرتبة ثانوية وتبدأ عقليته التأملية في التفكير في ابتكارات أكثر تعقيدًا.

وتنشأ الديانات.

الرب المخادع

يجوب البشر الكوكب ويواصلون بلا كلل بناء العالم.

يرون الغابات فيبتدعون أشجارًا مقدسة. في أساطير الشمال، يصف أودين الكون على أنه شجرة مران رمادية عملاقة تضم العوالم التسعة. وينطبق الأمر نفسه على الأوبانيشادا في التراث الهندوسي، حيث تظهر شجرة كونية، معكوسة هذه المرة، تمثل الكون، تغرس جذورها في السماء وتمد فروعها نحو الأرض. في عصر بوذا، انتشرت في كل مكان، الأماكن المقدسة التي تمثل عوالم مصغرة تتكون من أحجار، ماء، أشجار، ولم تفلح سواء البوذية أو الهندوسية في انتزاع مكانتها الدينية. وستظل الأشجار، من وادي السند إلى مصر، بذرة الخصوبة الكونية التي لا تنضب، وستتجسد في صورة آلهة عارية مهيبة. تمتلك هذه الأشجار، في حضارة بلاد ما بين النهرين، قوى مقدسة لأنها رأسية، ولأنها تنمو، ولأن لديها القدرة على إعادة إنبات أوراقها من جديد بعد تساقطها. تظهر الشجرة المقدسة في اليونان، منذ الحضارة المينوسية وحتى نهاية العصر الهيليني، دائمًا إلى جوار صخرة، وسوف تتجسد تلك الشجرة أو أشيرا

(أم الآلهة) على المذبح في عالم الساميين. خلع البشر على كل من براعم السلاميات، الشجيرات، زهرة اللوتس، قوة رمزية باعتبارها تجليات جوهرية للكون.

وتكرر نفس الشيء، أينما ولى الإنسان المميز بذكائه الناقص بصره.

ينتابه على الفور، إذا تأمل صخرة، شعور بأن صلابتها وصلادتها تثير فيه تجلّيًا مقدّسًا. ويشرع في تكريس نفسه لتمجيد أوابد الميجاليث الجنائزية، وتشييد المونوليث، الدولمينات والنصب القائمة للخصوبة. كانت القبائل القديمة في الهند، تضع إلى جوار المقابر نصبًا يصل ارتفاع طولها إلى ثلاثة أمتار، لكي تتعلق بها روح المتوفي وتكون بمثابة ملجأ لها بالقرب من الأحياء. ويطلب حديثو الزواج أطفالًا من الأوابد الميجاليثية. كما اعتادت النساء العواقر في قلب أستراليا، اللاتي تعتقدن أن أسلافهن ساكني الدولمينات، يمتلكن القدرة على إخصابهن، على حك أنفسهن بسطح الأحجار. كما تتماحكن في قبيلة مايدو بكاليفورنيا بصخرة على هيئة أنثى حبلى. علاوة على ذلك في مدغشقر مثلما في جزيرة كاي، يضعون طبقة من الشحم الزلق على هذه الكتل الحجرية المخصبة.

إذا لاحظ الإنسان، سيد الرئيسيات، الماء لاحقًا، فلن يكون بوسعه تجنب التفكير في أنه مصدر جميع الأشياء في كل الوجود، وفقًا للديانة الفيدية. وسوف يتبادر إلى ذهنه قدرته التطهيرية. وسيفكر في التعميد. في الوضوء. وفي الفيضان

الكوني. سيختلق آلهة مثل رب البحر إيجير في الميثولوجيا الاسكندنافية، أو مثل بوسايدون، في الميثولوجيا الإغريقية، التي تعج بالعديد من الآلهة الأصغر مثل الحوريات، إلهات المياه الجارية، النوافير والينابيع. وسوف يكون هناك العديد من الشعوب الأوروبية التي ستقدم القرابين إلى أنهارها، مثل الكيمبريين والفرنجة والألمان والسلاف.

باختصار، يبدو أن الإنسان عاجز عن النظر في أي مكان دون اختلاق أطياف. لأنه ينسج كلما خفض نظره نحو الأرض أو رفعه صوب السماء، رؤى دينية أرضية أو سماوية. يتحدث الماوري السكان الأصليون في نيوزلنده عن إلهة للأرض وإله للسماء متعانقين (بابا ورانجي) تناسل منهما عدد لا يحصى من الأبناء. ويظهرعند القبائل الإفريقية الزوجان الأزليان الأرض والسماء، وهما أودونا وأولورم عند شعب اليوروبا (جنوب غرب نيجيريا وبنين وغينيا)، وعند شعب الإوي (غانا)، أو الأكوابيم (غانا)، والنازمبي-مابونجو (أنجولا)، ونازمبي إله الشمس العظيم عند شعب الباويلي (كندا). أما في جنوب كاليفورنيا، فيطلقون على الأرض اسم تامايوفيت والسماء اسم توكميت. بالنسبة لشعب النافاجو (إريزونا) تحمل الزوجة الأرض اسم نيهوسدزان وتعني المرأة الأرض، ويحمل زوجها السماوي اسم ياديلكيل هاستكين وتعني الرجل السماء. تحكي الأسطورة الإغريقية، أن أول ما أنجبته الأم الأرض، جايا، كان كائنًا مماثلًا لها لكي يتمكن من تغطيتها، فظهرت السماء المرصعة بالنجوم، (أورانوس). ستتحول نفس السماء

في النهاية إلى الإله الأكبر لدى العبرانيين وإله العهد القديم، يهوه، بعد أن تطور انطلاقًا من التجليات العبرانية المقدسة المبكرة السماوية والأرضية في التقاليد السامية وصولًا إلى هاشيم الذي يتجلى من خلال العواصف، بصوته الرعدي، وسهام بروقه ونيران غضبه وطوفاناته.

يبدو أن ولع أسلاف الإنسان الفنتازي بالتمجيد لن تكون له نهاية، حيث تحتوي السماء ذاتها على عناصر كثيرة تحتمل العديد من التأويلات، وستتحول النجوم إلى رموز لأبراج التقويم، وسيمنح القمر منذ العصر الحجري الحديث، قوة تفوق الظواهر الكونية، على الزراعة، المطر، خصوبة الأنثى والحيوانات، طقوس البدء والموت؛ وسيجسد الشمس من خلال العديد من المعبودات الأخرى، وسيقتصر على الأسطورة المصرية وحدها إلهام خلق آلهة مثل حورس، أتوم، خِبر رع، خنوم، رع، آمون رع أو آتون. لكن عندما حاول وضع قدمه على الأرض والتركيز على الأرض وعلى عملها، لم يستطع الفكاك من طموح تحسين محاصيلها من خلال أكثر الممارسات حماقة.

في استونيا، كان الرعاة يبذرون الحب عراة في منتصف الليل، وفي الهند، ستجر النساء المحراث عرايا أثناء مواسم الجفاف. وسيغمر الفلاحون الألمان أنفسهم بالماء لضمان جودة المحصول، اتباعًا لمقاربة فطرية بين المطر وتدفق السائل المنوي. وفي فنلندا تهرق النساء حليب أثدائهن على

البذور المنثورة. ويقدم شعب الأزتيك قرابين إلى أول براعم محصول الذرة ويتعاملون معه وكأنه من المعبودات؛ وبعد ثلاثة أشهر من فترة الإنبات، يقطعون رأس فتاة صغيرة أمامه، تمثل ربة الذرة الجديدة (تشيكوميكواتل)؛ وبعد شهرين من ذلك، يضحون بأنثى أخرى، تمثل ربة حصاد الذرة (توسي). المؤكد أن الكثير من السكان الأصليين في الولايات المتحدة ومثلهم بعض القبائل في أفريقيا، يمزقون جسد الضحية الشابة ويدفنون أشلائها بين أخاديد الغيطان. في البنغال، يجب أن تكون الضحايا اللاتي ستقدمن قرابين بدورهن بنات ضحايا أخريات، منذورات منذ ولادتهن للقربان؛ مع أنهن تعشن حياة جيدة لبعض الوقت، على قطعة الأرض الممنوحة لهن والتي يُسمح لهن بالزواج فيها من شهداء آخرين. كما تقدم قرابين زراعية في مصر، سوريا وبلاد ما بين النهرين، وتوجد معالم شاهدة عليها في ألمانيا والسويد وبولندا أو اليونان. في الانجيل، يطلب الرب من إبراهيم، لزيادة نسله ومباركة بذرته: "خذ ابنك، وحيدك، الذي تحبه، اسحق، واذهب إلى أرض المريا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ". (سفر التكوين، إصحاح ٢٢:٢).

وبناء عليه، نجح الإنسان، في غضون بضعة آلاف من السنين، في ملء العالم بكل الأمور الخيالية والافتراءات التي لم يكن لها وجود في أي مكان من قبل، في عملية دموية لم ينقصها التعذيب الجماعي والقتل والاضطهاد، والحروب المقدسة والإبادة.

الأمر الوحيد الذي يفرِّق في الواقع الدين عن الشعوذة، اللذان يكمن منشؤهما في ذات نفس الالتباس السببي وفي نفس الخيال الطوباوي، أن الدين أكثر تنظيمًا. يحاول الدين لم شمل وتجميع وتوحيد المعتقدات المكتسبة وأنماط العبادة، ليكون منها قاعدة شاملة. ويكمن طموح الدين في أن يجعل من كل ذلك كيانًا أكبر وأكثر ديمومة، وبصفة خاصة، ضمان الاحتفاظ بسلطته.

يجب أن تُؤدى كل شعائر الدين الطقسية وفقًا لقواعده، والتي ستصبح شيئًا فشيئًا أكثر دقة، وإجبارًا وتعقيدًا. وستقتصر فحسب على التزايد أكثر فأكثر، لضمان تفردها في مواجهة خصومه.

ولا يزال من أسباب التناقض، في حالة الشقيقين المتطابقتين تقريبًا، شروع أحدهما في اضطهاد الآخر بمثل كل هذا الغضب والتعصب الشديدين. وبمجرد أن شعر الدين بما يكفي من القوة والأمان، أعلن الحرب على الشعوذة وعلى الكفار، أي على كل أولئك الذين لم يؤمنوا بنفس أفكاره غير الواقعية. واندلعت حرب بلا هوادة. سيظهر في سفر الخروج وصايا مثل "لا تدع ساحرة تعيش". أما سفر اللاويين فيحذر "من استشار ساحرًا أو عرافًا، وانصرف إليهم، فأنا خصمه وسأبيده وسط قومه". يصبح الصراع على السلطة شيئًا فشيئًا أكثر شراسة، وستتوافر للأكثر عدائية وتنظيمًا بين الشقيقين كل إمكانيات الفوز. في إطار الديانات ذاتها، سيصبح دعاة

التوحيد الأكثر انتشارًا بكفاءة أكبر مقارنة بالمشركين، ولا يرجع ذلك إلى أن أحد الفريقين اقترب أكثر من الحقيقة، التي تعد من المفاهيم التي يشتبكان حولها بصورة عابرة، أو لأن أي شيء في قصصهم يجعلها الأفضل. بل لأن تعدد الآلهة يبدد التشدد ويشجع على درجة أكبر من التسامح، بينما يحمّس وجود معبود واحد المتعصبين.

أوضحت المسيحية الأمور منذ بداياتها، فيما يتعلق بالسابقين على العقيدة الأفلاطونية، واليهودية والإله المصري آتون المدعوم من قبل اخناتون، حينما حولوه إلى المعبود الرئيسي الأوحد في منطقة البحر المتوسط: لن تسجد إلى إله غيري*.

تمكنت المسيحية على هذا النحو من فرض عقيدتها على الغرب، لتقحم على ثقافتنا عددًا لا يحصى من الأكاذيب المستحدثة: فكرة الخطيئة، فكرة الذنب، والكثير غيرها بدت مألوفة لدينا إلى درجة أننا لا نستطيع التمييز بينها في تفكيرنا، مثل التكفير، اللعنة الأبدية أو البعث؛ وفكرة فريدة من نوعها عن الخير، جعلتنا نفكر أن أيًا منا لا يسعه أن يكون خيِّرًا بالفطرة، بل بدافع الخوف من الرب وبدافع الأنانية الكامنة في البحث عن خلاص أنفسنا؛ كراهية النساء؛ كراهية المثليين؛ القهر الجنسي؛ فردوس غير محدد المعالم وسطحيٍّ وجحيم مرعب مليء بالتفاصيل؛ فيما تقبع فكرة خلود الروح خلفية لكليهما.

* "لا تسجُدوا لإلهٍ آخَرَ لأنّي أنا الرّبُّ إلهٌ غيورٌ". (سفر الخروج: 34:14) (المؤلف)

سينطلق خوف الإنسان، منذ أن شعر بأنه يمتلك هوية شخصية زائفة، من فقدانها، إلى أبعد حتى من غريزة البقاء على قيد الحياة. وإذا كان هناك زمن أبدي تعيش فيه الآلهة، فلماذا لا يطمح هو في الحفاظ دومًا على هويته الثمينة في ذلك المكان الأبدي؟ كان من الضرورة فحسب إضافة قشرة من الأهمية على ذلك الوهم الأولي لتحويله إلى شيء أرفع شأنًا، الروح، التي تشارك بدورها في حفل التمجيد ويمكن أن تنال نصيبها من كعكة القداسة. وبخلاف الديانات الشرقية الرئيسية، انتهى الحال بالديانة المسيحية، التي كان أقصى مبتغاها تفكيك الأنا الوهمية لكسر سلسلة التناسخات، لأن تصبح أحد أكبر المروجين للفردانية. على هذا النحو، أكدت المسيحية، لكي تعلن نفسها المنقذ الوحيد الحقيقي من هذا الخوف المتجذر، ولكي تتمكن من إخضاع المؤمنين بها بوعدها لهم بالثواب أو العقاب الشديد، الدائمين، هكذا إذن، وبدون براهين قاطعة أو مُسوِّغات، أكدت أن الروح خالدة.

نُشر بشكل متزامن، في القرن السادس عشر، تحديدًا عام ١٥١٦، عملان مختلفان، يطرحان العديد من الاعتراضات على مسألة خلود الأرواح. من جانب، كتاب حول خلود الروح، للفيلسوف الإيطالي بيترو بومبوناتزي. ومن الجانب الآخر اليوتوبيا، لتوماس مور، والذي بخلاف الأول لم يصنف مطلقًا على أنه مُنظّر ملحد، بل سيصل الأمر إلى ترسيمه من قبل الكنيسة الكاثوليكية، القديس توماس مور. لم يتمكن أيٌّ منهما

من العثور على حجج عقلانية متماسكة تؤيد مثل هذه الطبيعة الخالدة. مما يعني أنه لم يكن ممكنًا وفقًا للمنطق الخالص إثبات شيء آخر سوى حالتنا الفانية، وكان لزامًا اللجوء إلى الإيمان والكشف الإلهي لإيجاد سند لهذه المعتقدات. أود أيضًا هنا التوصية بقراءة محاورات ديفيد هيوم اللذيذة المنشورة عام ١٧٧٧، بعد عشرين عامًا من كتابتها، بعد وفاته بصورة متعمدة. في «حول خلود الروح»، فضح الفيلسوف الاسكتلندي بصورة قاطعة مغالطة الخلود، وكافة حججها (المادّية تحديدًا، التي استندت بالنسبة لهيوم إلى معارف واقعية)، التي أيّدها علم الأعصاب لاحقًا. اعتبر الرائد السابق لعلم التجريب المعاصر أنه توجد علاقة ارتباط بين الجسد والروح في الطفولة، وأثناء ريعان الشباب وانهيار الشيخوخة، ومن ثم نستخلص فحسب استنتاج أن المرحلة التالية قابلة للتنبؤ بها بقدر ما هي حتمية: فناء الروح بعد الموت. بمرور الزمن، أظهرت لنا الأدبيات الطبية حول الحوادث المؤلمة وأبحاث الأمراض العقلية وتجارب تقسيم الدماغ، أن العقل أو الهوية أو ما يسمى بالروح، تعد شيئًا غير مستقر بقدر ما هو سريع الزوال. نعرف اليوم أننا بإجراء جراحة في هذا الجزء أو ذاك من المخ يمكننا محو ذكريات قديمة أو التلاعب بقدرات الذاكرة على المدى القصير، لدينا القدرة على التأثير في عملية الكلام وإثارة مختلف أنواع التلعثم. درسنا كيف أن الاضطرابات الانتكاسية لا تؤثر أثناء الحياة، على الذاكرة أو الوعي أو الكلام فحسب، بل أكثر من ذلك، في كل الجوانب

المرتبطة بشخصية أو هوية المرضى. ويفتح هذا الباب لعدد لا يحصى من الأسئلة المثيرة: الشخص الذي يعاني مرضًا له تأثير عقلي أثناء طفولته ولا يبلغ مطلقًا برغم مرور السنين طور الشخصية الناضجة، هل سيبقى في الآخرة إلى الأبد باعتباره الطفل غير المكتمل الذي ظل عليه قبل عقود من مرضه، أم سيدخل جنة الرب، كشخص بالغ، وهي الحال التي لم يسبق له أن عاشها في حياته؟

يمكننا مواصلة بحث كافة البراهين الداحضة لوجود روح خالدة واحدة تلو الأخرى. لكن عند هذا المستوى من القصة ربما تعتبر الأدلة التي أوردناها كافية بالفعل، ومن غير المنطقي الاستمرار، بعد أن ذكرنا توًا الفكرة الأكثر تعقيدًا من بين الأفكار التي أسست للفكر السحري والأسطوري، وغيرها من الأفكار النابعة من ضعفنا النفسي، وهي فكرة الإله.

إذا كان هناك شيء تلوذ به المسيحية عندما لا تجد طريقة أخرى لإثبات باقي عقيدتها الإيمانية فهي فكرة الإله، الكائن العلوي الخيالي ذروة جميع الأفكار الفنتازية التي يفرزها العقل البشري. الوهم الأول الذي يدعم الحالة الميتافيزيقية لباقي الأوهام. إله كلي القدرة ومحيط بكل شيء ويسمح للشر بأن يسيطر على العالم، ولا يملك القدرة على المغفرة الأبدية وقدم من خلال العهد القديم أدلة لا تحصى على أنه قاس، عديم الرحمة، غيور ومنتقم، وسوف يرسل إلى الأرض في العهد الجديد أيضًا ابنًا سيتجلى في العديد من المواقف

عنيفًا، متقلبًا، متعسفًا، مستبدًّا، نزقًا*. إله كلي القدرة عليم بكل شيء يخلق بشرًا مليئين بالنقائص والعجز، وبقدرات معرفية وفهم محدودة، تتيح له استيعابًا بائسًا للأشياء فحسب، وليس معرفتها المباشرة، ولكنه يطالبه في الوقت نفسه بالإيمان المطلق بوجوده الذي لا دليل عليه. إله مكتفٍ بذاته وكامل لا يعوزه شيء، ولكنه يشتاق لأن نعبده، نوقّره ونقدسه دومًا، في تجلٍ غريب لا حدود له للأنا. إله، على الرغم من أن قدرته لا حدودٍ لها، لم يتعطف علينا بالتجلي لنا من جديد مطلقًا، إلا في الأزمنة الغابرة في عصر قبائل الجاهلية التي كانت تهيم في الصحاري يحركها الجوع، الجهل والتفكير السحري. إله تنبع منه الحقيقة وكلمته هي الحق، (يوحنا، ١٧:١٧)، ويطلق عليه إله الحقيقة (اشعيا، ١٦:٦٥)، ومع ذلك، عندما خلق أفضل ما في جميع العوالم الممكنة، شيّده على أساس المظاهر، وملأه بالحدس المضلل والخداع، وجعل، حتى قبل ظهور الإنسان

* ربما كانت أكثر الأحداث العنيفة شهرة التي قام ببطولتها يسوع هي حادثة التجار في الهيكل: <<صنع سوطا من الحبال وطردهم جميعًا من الهيكل مع الغنم والبقر. وسكب عملات الصيارفة وقلب موائدهم. وقال لباعة الحمام: "أخرجوا هذه الأشياء ولا تجعلوا بيت أبي بيتًا للتجارة>> (يوحنا، 2:15). ومع ذلك، حقيقة الأمر أن هناك مقاطع لا تحصى يُسوَّغ فيها العنف: <<لاتعتقدوا أنني جئت لألقي سلاما على الأرض. ما جئت لأجلب السلم، بل السيف>> (متى، 10:34)؛ <<جِئْتُ لأُلْقِيَ نَارًا عَلَى الأَرْضِ، فَمَاذَا أُرِيدُ لَوِ اضْطَرَمَتْ؟>> (لوقا، 12:49)؛ <<أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ، أَقُولُ لَكُمْ: بَلِ انْقِسَامًا>>. (لوقا 12: 51)؛ <<أردف يسوع: "لكِنِ الآنَ، مَنْ لَهُ كيسٌ فَليأخُذهُ ومن له خرج كذلكَ. ومَنْ ليس لهُ فليَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سيفًا>>. (لوقا، 22:36)؛ <<مَنْ يَتَسَبَّبُ فِي أَنْ يُخْطِئَ أَحَدُ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ الذِينَ يُؤْمِنونَ بِي، فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُرْبَطَ حَجَر طَاحُونَةٍ ثَقِيلٌ حَوْلَ رَقَبَتِهِ، وَيُرْمَى فِي الْبَحْرِ>> (مرقص، 9:42). كما تنتشر في الأناجيل النزوات والتجاوزات التي يخاطب بها حتى أمه ذاتها: حدث في عرس قانا الجليل الذي دعي إليه يسوع وحواريّوه، عندما تجرأت مريم، المغلوبة على أمرها دائمًا، على تنبيهه إلى نقص النبيذ، مما أثار سخط الابن: << مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ؟>> (يوحنا، 2:4). والأكاذيب: <<الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ بَعْضًا مِنَ الْوَاقِفِينَ هُنَا لَنْ يَذُوقُوا الْمَوْتَ، قَبْلَ أَنْ يَرَوْا ابْنَ الإنسان آتِيًا فِي مَلَكُوتِهِ>> (متى، 16 : 28) (المؤلف)

بوقت طويل، (مخلوقًا مسلّحًا بقدرة وحيدة هي الخيال)، كل ما يخلقه، من أشياء، حيوانات ونباتات، تشعر بميل حقيقي للكذب.

على مرّ التاريخ، لطالما دحضت كل حجة عقلية دعمت وجود الإله من قبل العقل نفسه. بعضها شديدة الزيف، لدرجة أنها تسقط بدون جهد يذكر، مثل ما يعرف بـ"الحجة التاريخية"، "دليل من التراث" أو "دليل بإجماع العامة"، لتسويغ هذا الوجود، لمجرد أن كافة شعوب الأرض آمنت في لحظة ما بإله. إنها حجة بدون أي سياق توضيحي، بل تستند على الأرجح إلى دليل إمبيريقي مزعوم ومنحاز، ويمكن الرد عليه على أي حال من الفرضية المتضمنة هنا: إذا تقبلنا أن كل البشر يولدون بعيب متكرر، وعندما يبدؤون باستعمال قدراتهم المعرفية لا يستطيعون تجنب التخيل، التوهم، وإسقاط هويات متخيلة، فهذا ليس دليلًا على أي شيء على الإطلاق، مثلما لا يثبت ميلنا الكوني للأنانية أو انتشار إصابة جنسنا البشري بالسرطان، سوى ضعفنا فحسب، وليس وجود أي كيان في حد ذاته يسمى (الفكرة المثالية للأنانية أو السرطان الإلهي).
من ناحية أخرى، نظرًا لأن فرض الأديان في تراجع مستمر في المجتمعات الأكثر تقدّمًا، حيث يتم استبدالها بخيالات أكثر ملاءمة للأشكال الجديدة من التنظيم الاجتماعي، مثل العلم، يمكن استنتاج أنه نتيجة لذلك أن فكرة وجود الإله تتجه نحو التلاشي.

رُفضت حجج أخرى، من قبل المدرسة السكولانية ذاتها، مثل حجة القديس أنسلم، والتي كما رأينا كيف تقبلها ديكارت في النهاية، في محاولة للفرار من الذاتوية (السولبسية). يرى أنسلم أسقف كنتربري أن فهمنا يمكنه استيعاب اللا نهائية، ولكن تلك اللا نهائية أو الإله، سيكون أعظم وأكثر كمالًا إذا كان له وجود حقيقي مما لو كان يحدث فقط في أذهاننا؛ لذلك، يجب أن يكون للا نهاية وجود. وعلى هذا النحو أُثبت وجود الإله. سيشكك القديس توما الأيقويني ذاته في سان أنسلم، لأنه في المقام الأول، يفسر الجميع الإله على أنه الكائن الأكبر الذي يمكن تصوره فحسب. ولكن بالرغم من تقبل هذه الفرضية بشأنه، سيحذره من أن هذه الفكرة تقتضي وجودًا مثاليًّا فحسب، وليس حقيقيًا. وسيؤكد إيمانويل كانط، الذي عمد المنطق الأنسلمي باعتباره "الحجة الأنطولوجية"، على أن الإثبات البديهي لوجود الإله لا يمكن استنباطه إلا كمسلمة للمنطق العملي، أي من خلال مسألة إيمانية. وعلى غرار كانط، سينفي كثيرون غيره إمكانية إثبات وجوده علميًا. ومن بين هؤلاء بوبر، الذي اعتبر أن مسألة وجوده لا يمكن تزييفها، لأنه لا يمكن دحض فكرة "الإله موجود" بتزييف إمبيريقي محدد، مثلما يحدث مع الأشباح أو أي اختراع خيالي آخر.

وحتى الحجج القوية الداعمة لوجود الإله، مثل "الحجة الغائية"، ذات الجذور الأرسطية والتي تتوافق مع الحجج

الخمسة عند توماس الإيقويني، قوبلت بالرفض الشديد وعلى نطاق واسع. تود هذه الفكرة أن توضح في النهاية، أنه يبدو أن الكون له غاية، وأنه شديد التنظيم وبالغ التعقيد ولا يمكن أن ينشأ مصادفة، ومن ثم يجب أن يكون قد خُلق بواسطة كائن ذكي، نطلق عليه الإله. وبالرغم من ذلك، تتجاهل هذه الفكرة اليوم عمدًا الأهمية الرهيبة للصدفة في نشأة الكون وكيفية بداية الحياة. احتاج الكون لملايين السنين لكي يقوم بكل حركة من تحركاته، ولم يخلق في ستة أيام بقوة الديميورغوس، أو خالق الكون المادي، بل تطلب الأمر فترات طويلة من الزمن حتى يمكن أن تتلاقي المصادفات والظروف العشوائية.

كما يحدث التطور أيضًا بصورة عشوائية، عن طريق التجربة والخطأ، وكما يعرف جميع علما الأحياء فإن نسبة الخطأ تفوق بكثير نسبة الصواب بصورة لا تقارن. سبق ديفيد هيوم، الذي استنتج هذا الطرح، فكرة الانتخاب الطبيعي ذاتها: هل يمكن أن يبقى على قيد الحياة حيوان لو لم تكن أعضاؤه منضبطة بصورة جيدة؟ وحدها الحيوانات التي تتأقلم بصورة أفضل تبقى على قيد الحياة. وحتى العالم لم يكن ليصمد إذا لم يكن منضبطًا بصورة جيدة. ولماذا لا يكون هذا النظام الظاهر راجعًا إلى وكلاء غير أذكياء يوجد تشابه غامض بين أفعالهم وسلوكيّات البشر؟ تدفعنا الحجة الوجودية فحسب إلى التساؤل أي خالق ذكي أبدع عقل الإله، وهو بدوره شديد التنظيم، وهكذا إلى ما لا نهاية.

لا يمكن إثبات بصورة قطعية، سواء وجود الإله أو خلود الروح، ولا حتى بالتجربة الإمبريقية، أو من خلال المناهج العلمية أو استنادًا إلى الحجج العقلية. لا يسعنا فحسب سوى انتظار عون المعجزات. لكن، على أية حال، فلنقرّ بذلك، لقد توقفت المعجزات عن الحدوث منذ وقت طويل. لسبب غامض، وقعت فحسب في العصور المظلمة وفي أماكن حيث كان الإنسان غارقًا في الجهل.

وبوصولنا إلى هذه النقطة، لا يسعنا سوى الاستعانة بالاستنتاجات التي توصل إليها فويرباخ في كتابه "جوهر المسيحية" (١٨٤١): الإله لم يخلق الإنسان على صورته وشاكلته، بل كان الإنسان هو من خلق الإله عن طريق استقراء صفاته الخاصة خارج عقله بفضل استخدام الخيال. تخيّل الإنسان في البداية صورة للإله بالنظر إلى ذاته، بمعنى أنه حول جوهر ذاته المفكرة المجردة إلى كائن خيالي. ومنح بعد ذلك، هذا الكيان وجودًا حقيقيًا في العالم الخارجي. لهذا، يعد جوهر الإله، الجوهر الموضوعي للفنتازيا، التجسيد لكل شهوات، رغبات وآمال البشر.

سيقول فويرباخ إن الدين، على هذا النحو، يبني معبودًا عبارة عن إله متأنسن (أنثروتيولجي)، نتاج لحب الإنسان لنفسه بمثابة صيغة لتأكيد الذات. ومع ذلك، ستظل آلهة الأديان الأخرى دائمًا، بالنسبة إلى كل ديانة، مجرد أفكارٍ خاطئة عن الإله فحسب. وسينتهي الحال بالديانة المسيحية، تحديدًا، إلى

تعزيز الانفصال بين الإنسان وذاته، نظرًا لأنها تعتبر الإله نقيض له. تعتبر الديانة المسيحية أن الإله هو كل ما يمثله الإنسان، ولكن في أبعاد ضخمة بصورة لا نهائية: إذا كان الإله هو الكائن اللا نهائي، فسيكون الإنسان كائنًا محدودًا، إذا كان الإله كاملًا، فسيكون الإنسان ناقصًا، إذا كان الإله خالدًا، فالإنسان، فانٍ، إذا كان الإله كلّيَّ القدرة، فالإنسان عاجز؛ إذا كان الرب معصومًا، فالإنسان عاصٍ وخطّاء. تُعرف أكذوبة الإله والإنسان على أنهما طرفا نقيض متعاديان، سيمثل الطرف الأول منهما كل ما هو إيجابي بصورة مطلقة، وجوهر كل الحقائق، أما الثاني، فعلى النقيض فيمثل كل ما هو سلبي، وكل ما يكاد يكون العدم.

ومن ثم، سيكون من الضرورة بمكان أن نكشف أن السر الحقيقي الكامن وراء علم الأديان هو الأنثربولوجيا. سيحدث التحول الحاسم في التاريخ في اللحظة التي يستوعب فيها الإنسان أن إدراك الإله ليس أي شيء آخر سوى إدراك النوع البشري. وإلا فإننا سنظل نعيش مخدوعين، أو بعبارة أفضل، نخدع أنفسنا بإله خارجي ما هو إلا سراب نابع من أنفسنا.

يمكننا أن نعتبره كذلك أو نلوذ بالإيمان. لا يمكن أن ننكر على أحد خيار الاعتقاد في وجود الإله بدافع الإيمان.

يمكن عن طريق الإيمان، بكل تأكيد، تسويغ وجود الإله. أو أي شيء آخر.

أكاذيب الكنيسة

كل إنسان حر في أن يؤمن بما يحلو له في عقيدته.

على الرغم من أنه يحبذ لو أن كلّ مؤمن، علاوة على إيمانه، ومحاولته التعبير عن رأيه، وحتى فرض رأيه على الآخرين أن يُخضع معتقداته الحقيقية أولًا إلى عملية تطهير عميق، وأن يتآلف مع الأفكار الأساسية للتاريخ وعلم اجتماع الأديان. لأنه من الكذب ادعاء أنّ كل الأمور تتساوى في القيمة.

يُعدُّ من المألوف في وقتنا الحالي إعلان الكثير من الرجال والنساء أنهم مسيحيون ولكن، في نفس الوقت (لأمر يتعلق بكسل فكري، لن يرضي ربهم على الإطلاق)، لا يخصصون بضع دقائق قليلة لكي يفكروا فيما يؤمنون به حقًا. وهناك إجابة موحدة شائعة، إذا سألت تلك الجموع الغفيرة من الأمة المسيحية لماذا لا تذهب إلى القداس:

- أؤمن بالرب ولكن لا أؤمن بالكنيسة.

تبدو لي الإجابة منطقية إلى حدٍّ ما. لأنه أولًا وأخيرًا ربهم موجود في كل مكان، ولا تكاد توجد في الكتب المقدسة إشارة

للرغبة الإلهية في إقامة كنيسة باسم الرب، لا أكثر من سطر يشير إلى حجر (متى، ١٦:١٨)، على العكس، تغزر الإشارات التي تحرم قطعيًا الكهنوتية المكرسة (العبرانيون، ٧: ٢١-٢٥). ومع ذلك، ينبغي التساؤل، نظرًا لأن مفهوم الرب ومبادئ المعتقدات الإيمانية عملت على تشييد وتطوير الكنيسة عبر التاريخ، بقرارات المجامع الكنسية، أي إله بالتحديد يؤمن به المسيحي الذي يؤمن بالرب وليس الكنيسة؟ يحتاج مؤمن من هذا النوع إلى تصحيح وتوضيح معتقداته بأسرع ما يمكن، لأنه كيف يمكن أن يكون متأكدًا من أنه يعبد الإله الحقيقي إذا كان يركز إيمانه فحسب على رواية كنيسة لم تفعل شيئًا آخر سوى الكذب؟

ترجع جذور صراعها من أجل السيطرة على السلطة والحقيقة الإيمانية، إلى جذور المسيحية ذاتها. فقد قررت الكنيسة في القرنين الأول والثاني من عصرنا، صلاحية وعدم صلاحية أكثر من خمسين إنجيلًا ووثيقة تتناول شخصية يسوع الناصري. لماذا إذن اختيرت الأناجيل الكنسية الأربعة دون الباقين، مثل إنجيل مريم المجدلية أو إنجيل يهوذا؟ بدون أدنى شك، لا يعدو أن يكون الأمر مجرد صراعات ومنافسات داخلية، نظرًا لأنها كانت نصوصًا متزامنة، مصدرها تيارات ومذاهب مختلفة كانت تظهر في منطقة البحر المتوسط. اعتمد كل شيء على من يصل أولًا أو من يرسخ آلياته السلطوية بصورة أفضل. لو أن القديس إيرينيئوس أسقف ليون لم يثبت

أنه أقوى من الحركة الغنوصية، ولو فُرض إنجيل يهوذا على الكنيسة، لاختلفت العقيدة المسيحية الحالية تمامًا عن ما هي عليه*.

من ناحية أخرى، لا ينبغي على أي أحد التخلي عن اعتبار وجاهة الشكوك حول تاريخية الأحداث المروية في الأناجيل الكنسية، والتي تعد من الأمور الراسخة في أبحاث جميع المتخصصين. وتعد أسباب عدم الثقة كثيرة، إلا أن البعض منها فقط يعد جوهريًّا. في المقام الأول، يرجع تاريخ كتابة هذه النصوص إلى قرن بعد وفاة يسوع وهذا يحول دون أن يكون مؤلفوها شهودًا مباشرين على حياة الشخصية المحورية في المسيحية: تعتبر بردية **٥٢، أو "قصاصة يوحنا"، أقدم مخطوطة محفوظة من العهد الجديد، ويرجع الخبراء كتابتها إلى ما بين عامي ١٢٥ و ١٦٠ بعد الميلاد. ثانيًا، كتبت الأناجيل الأربعة الكنسية باليونانية، وليس باللغة الآرامية، التي كان يتحدثها (على الرغم من أنه لم يكن يعرف الكتابة) يسوع وحواريّوه. ثالثًا، على الرغم من المفارقة اللافتة للنظر

---

* لكانت توافرت لدينا فكرة إيجابيّة بالكامل عن يهوذا الاسخريوطي، بوصفه الحواري الأثير وشريك يسوع في تضحيته، وما كنا سمعنا مطلقًا حديثًا عن الصلب أو القيامة، ولكانت انتصرت أيضًا المبادئ الغنوصية التي يقال عنها اليوم إنها فاضحة: بالنسبة للغنوصية خالق هذا الكون ليس إلها علويًا أو معبودًا ينبغي علينا تقديسه، بل هو الأخير في سلسلة طويلة من الآلهة التي خلق بعضها بعضًا، والأضعف والأقل اكتمالا بينها جميعا، ويتحتم الفرار منه. (المؤلف)

** بردية مكتبة ريلاندس 52 (P52) أو قصاصة القديس يوحنا: هي قطعة من مخطوطة بردية (تصل إلى 9 بـ 6،4 سم) محفوظة في مكتبة جون ريلاندس في مانشستر. يحوي أحد وجهي البردية سطورًا من إنجيل يوحنا 18: 33-31 باليونانية وفي الوجه الأخر سطور من 18: 38:37 تعتبر هذه البردية أقدم قطعة باقية لأي نص من العهد الجديد الكنسي، لكن ليس هناك إجماع على تأريخها. أسلوب الخط هادرياني مما يقترح تاريخًا بين 125 و160 للميلاد. لكن بالاعتماد على الباليوغرافيا يمكن أن تكون البردية قبل 100 للميلاد وإلى ما بعد 150 للميلاد. (المترجم)

للأسلوب الأدبي في الأناجيل الثلاثة الإزائية (متى، مرقس، لوقا)، إلا أن هناك تناقضات فيما يتعلق بأحداث السيرة الذاتية التي يحاولون تضمينها، وهي تناقضات تصبح أكبر مقارنة بإنجيل يوحنا، ومن ثم سيكون من المستحيل تمامًا تنسيقها إذا أخذ في الحسبان مجمل محتوى ما يعرف بالإناجيل المحرفة (أبوكريفا). توضح هذه الملابسات الثلاثة أن المؤلفين الحقيقيين لهذه الكتب كانوا أشخاصًا مجهولين، دوّنوا البيانات من مجموعات أقوال يسوع التي تم تداولها في عصره، وأضفوا عليها صياغة سردية ووقعوا بأسماء الشخصيات الأكثر أهمية في حياة صاحب السيرة الذاتية، أو مع الآخرين الذين يتمتعون بمكانة مرموقة في مجتمعاتهم. ومع ذلك، وبالرغم من الاستحالة المنطقية والعلمية القطعية لأن تكون الأناجيل الأربعة الكنسية قد كتبت من قبل الحواريين الأربعة، ما هو موقف الكنيسة الرسمي من هذه الأدلة؟ الكذب. ما تزال الكنيسة، حتى اليوم، متمسكة بنفس الموقف بدون أن يبدو أنها مهتمة بما يجري من حولها.

لطالما دافعت الكنيسة، وتدافع عن الأصل الرسولي للأناجيل الأربعة. ومن ثم فإن ما بشر به الحواريون بتكليف من المسيح، ثم بوحي من الروح القدس، ونقله لنا الرسل كتابة، يمثل أساس العقيدة، أي الإنجيل بصيغه الأربعة، وفقا لكل من متّى، مرقص، لوقا، يوحنا (مجمع الفاتيكان الثاني، ٢٥ يناير ١٩٥٩).

وهكذا، قبل وقت طويل من بدء الكنيسة في تغيير العقيدة

المسيحية بشكل جوهري في مجامعها المسكونية المختلفة، كانت جذورها ذاتها، قد تأسست مثل كل ما هو بشري تقريبًا، على التوترات الداخلية والاحتيال والباطل. ومن ثم قد تكون تلك مثلما قد تكون أخرى غيرها، أحداث حياة يسوع، وكذلك المبادئ والقيم التي أثرت في النهاية بشكل كبير في العقيدة المسيحية.

ومع ذلك، فلن أشكك هنا في مسألة وجود يسوع الناصري تاريخيًا. سأعتبر أن وجوده مؤكد، على الرغم من ندرة الوثائق حول عصره، وبالرغم من أن أيًا من الكتاب المتمرسين في المدن التي مر بها لن يغفل مطلقًا معجزاته، وعلى الرغم من أن كل الإشارات حول حياته مصدرها بصورة حصرية نصوص دينية ترجع لقرن بعده ولا توفر أيٌّ من المصادر السابقة على الأناجيل تفاصيل لسيرته الذاتية على الإطلاق*. سوف أفترض أنه حدث في وقت ما أن عاش شخص بذاك الاسم، تجمعت فيه سمات شخصيات أخرى من نفس العصر وتوافقت حوله مذاهب مختلفة كانت تتعايش في الشرق الأوسط. سوف أتقبل فرضيته التاريخية، على الرغم من تزايد أعداد الخبراء الذين يشككون فيها، نظرًا** للصعوبة المترتبة على إثبات عدم

* لم يُعثر على أي أثر للمسيح قبل الأناجيل وعلى مدار قرن كامل في التاريخ. كما لم يُعثر حتى في رسائل القديس بولس، الذي عاصره على أي معلومات عن حياته بوصفه شخصية حقيقية. على العكس، يتحدث في كافة الإشارات عن مسيحه كما لو أنه قد عاش في زمن سحيق، منفصل عن زمنه تمامًا، ويصوره، متمسكًا بدقة بالنموذج الأصلي للبطل الأسطوري. (المؤلف)

** قائمة موجزة للمؤرخين وعلماء اللاهوت والمتخصصين الذين يشككون في تاريخية وجود المسيح، متضمنة أيضًا جون م. اليجرو، بروسبر ألفاريك، جوزيف أتويل، هيكتور أبالوس، نايجل باربر، برونو باور، تشارلز برادلو، توماس إل برودي، فرانشيسكو كاروتا، ستيفن

وجود شخص من عصر آخر. بمعنى، لمجرد أن الإحداثيات الوجودية البحتة غير قابلة للتزوير فحسب: وفقا لكلام بوبر، لا نستطيع حصر العالم بأكمله بغرض تحديد أن شيئًا غير موجود، لم يوجد من قبل، ولن يوجد مطلقًا.

في المقابل، سوف أشكك في حجر الزاوية الذي تقوم عليه المسيحية، الأكثر مركزية في الأكاذيب الملفقة من قبل الكنيسة الكاثوليكية: صلب وقيامة المسيح.

على الرغم من أن الواقعة لم تنتشر في المجتمع بالكامل، إلا أنها معروفة جيِّدًا لدى الدارسين، المترجمين، ومفسري النصوص المقدسة، أنه في محاكمة يسوع المزعومة أمام بيلاطس البنطي لم يكن هناك متهمان مطلقًا. بدأ تعديل القصة التي وصلت إلى عصرنا، بعد عدة عقود، عندما أخذ المجتمع المسيحي يبتعد عن اليهودي. ولكن المؤكد أنه قبل

كار، ريتشارد كاريير، لويجي كاسيولي، هال تشايلدز، جريتا كريستينا، بول لويس كوشود، غاري كورتني، جيري كوين، فيليب آر ديفيز، ريتشارد دوكينز، هيرمان ديترينج، إيرل دوهرتي، آرثر دروز، آرثر دروج، تشارلز فرانسوا دوبوي، ماريا دزيلسكا، لينا أينهورن، ألفار إليجارد، ديفيد فيتزجيرالد، تيموثي فريك، روبرت دبليو فونك، بيتر غاندي، نيل جودفري، فيليس جراهام، توم هاربور، فريتز هيدي، جودفري هيغينز، كريستوفر هيتشنز، آر. جوزيف هوفمان، بول هوبر، ستيفان هولر، كينيث همفريز، جون جي جاكسون، بيتر جنسن، مايكل كالوبولوس، بيتر كيربي، أبنير نيلاند، ألفين بويد كون، رافائيل لاتستر، هارولد ليدنر، صامويل لوبلينسكي، جيرد لودمان، دينيس ماكدونالد، بيرتون ماك، مايكل مارتن، جيرالد ماسي، جوزيف مكابي، هاريتا ميني، كريستوس مورفوس، إيوانيس مبوسيوس، دي إم موردوك، ديريك مورفي، بايام نابارز، كورت نول، ميشيل أونفراي، جورج أوري، كلارك دبليو أوينز، توماس باين، ميناس باباجورجيو، مايكل ب. بولكوفيتش، ستيفن بينكر، روبرت إم برايس، جاي راسكين، سالومون ريناتش، صامويل ماكس ريزر، جون ماكينون روبرتسون، لورين روسون، رينيه سالم، جونار صمويلسون، ديفيد أوليفر سميث، رودولف ستيك، جوردون شتاين، فاليري تاريكو، توماس إل تومسون، بيير توليب، مايكل تورتون، دانيال أونتربرينك، إدوارد فان دير كايج، راؤول فانيجم، توماس إس فيرينا، نيكوس فيرغيديس، جورج لاس فيرغناس، روجر فيكلوند، باربرا والكر، جورج ألبرت ويلز أو فرانك زيندلر. (المؤلف)

هذه التعديلات، يسوع وباراباس كانا شخصًا واحدًا. نعرف الآن أن باراباس هي النطق اليوناني لمصطلح بار آبا بالآرامية وتعني "ابن الرب"، وترتبط بعلاقة اشتقاقية مع مصطلح بار - ربام وتعني "ابن معلمنا". ويتوافق المصطلحان مع نفس لقب، "معلم"، مثلما كان أتباع المسيح ينادونه. الطريف، أن اسم باراباس الأول كان يشوا، أي يسوع، وهي معلومة أخرى، حرصت السلطات الكنسية بقوة على إخفائها، لدرجة أنه اختفى الآن مصدرها (متى، ٢٧:١٦)، في ثمانٍ من كل عشر ترجمات للمخطوط الأصلي. سجن هذا اليسوع المعلم، وفقًا للأناجيل، لاشتراكه في فتنة، وكان سجينًا مشهورًا بين اليهود، واتهم بالتحريض ضد الامبراطورية الرومانية. ويتفق هذا الأمر مجددًا مع الروايات الأولى عن المسيح. وهكذا، عندما سأل بيلاطس البنطي، حاكم مقاطعة يهوديا الرومانية، جمهور الحضور عن السجين الذي يجب أن يطلق سراحه في عيد الفصح العبري، صرخ الحشد الذي اجتمع حول قائده:

- يسوع المعلم! يسوع باراباس! يسوع المسيح!

لا يمكننا نسيان أنها نفس الحشود التي أيدت قبل قليل يسوع عند دخوله المدينة، وكان أغلبها من أتباعه وأنصاره.

يغير هذا الحدث كل شيء.

بداية، لم يخن الجنس البشري كلُّه يسوع بهذه الصورة شديدة الخسة. وهذا لا يقلل جزئيًا من ضخامة تضحيته

فحسب، ولكن يخفف بصفة خاصة وبنسبة كبيرة ثقل الذنب الذي نحمله على عاتقنا منذ ذلك الحين.

من ناحية أخرى، لم تكن لهذا التلاعب بالنصوص المقدسة من قبل المسيحيين الأوائل، والمخطط له عندما تزايدت الأعمال العدائية مع بقية المجتمعات اليهودية، نتائج على المدى القصير فحسب. لسوء الحظ، نجحت ازدواجية المسيح ومسرحة خيانته من قبل بني إسرائيل في الكشف عن صورة شديدة التشويه لليهود في عصره، ساهمت في تقديم صيغة للزعم الأساسي حول معاداة السامية على مر التاريخ، وإثارة كراهية دفعت باليهود إلى حافة المذبحة في مناسبات عديدة. وهو ما يثبت، مرة أخرى، أن صورة جيدة، أو خيالًا حيك ببراعة لديه قوة أكبر من أي منطق أو حجة.

وأخيرًا، لو أن بيلاطس البنطي تقبل في نهاية ذلك اليوم العادة اليهودية، ونزل على رغبة الشعب بإطلاق سراح سجين بمناسبة عيد الفصح، لكان انتهى الأمر عند هذا الحد. ولكان يسوع الناصري قد خرج من أورشليم على قدميه، ولم تكن معجزة القيامة لتقع على الإطلاق. نهاية القصة. ومع ذلك، في حالة أن الحاكم التزم بالقوانين والأعراف الرومانية، وأرسل يسوع إلى الصليب في اللحظة الأخيرة، لكان الباحثون قد ذكروا نظريات أخرى معقولة أكثر من واقعة قيام شخصية حقيقية وتاريخية من بين الأموات. بمعنى، أنه بتتبع نظرية الاحتمالات عند هيوم، فإن أيًا من هذه النظريات سيكون مقبولًا أكثر من

ظاهرة لن يصدقها أحد منا (بمنتهى الأمانة) إذا قصوها علينا اليوم، لولا عبء الثقافة الجاثم بثقله فوق رؤوسنا.

كما لا يمكننا إغفال احتمالية التوفيق بين المعتقدات وحقيقة أن فكرة القيامة كانت حاضرة بقوة بين كافة معتقدات تلك المنطقة من العالم: قيامة أوزيريس في مصر، بعل في كنعان، آتيس في الميثولوجيا الإغريقية، كما عاد إلى الحياة أدونيس عند الفينيقيين والآشوريين، الإله تموز عند الساميين، كما كانت القيامة بكل تأكيد الأكثر شيوعًا عند الكثير من أنبياء بني إسرائيل.

تقول إحدى النظريات أن جسد المسيح يمكن أن يكون قد سُرق من قبل حوارييه. ويتضمن العهد الجديد ذاته هذه الفرضية، في محاولة للوقاية من الشكوك المحتملة: "قولوا هذا: "جاء تلاميذه ليلًا وسرقوا الجسد ونحن نيام""، "استولوا هم على المال وفعلوا مثلما أملي عليهم. وانتشرت هذه المقولة بين اليهود على نطاق واسع حتى اليوم" (متى، ٢٨: ١١-١٥). واستمرت بالفعل، التلميحات بهذا المعنى، لقرون. ولما كان الأمر على هذا النحو، وسرق تلاميذ المسيح بالفعل جسده من قبره، وكانوا مقتنعين، بمنتهى حسن النية، بقيامته المجيدة وأرادوا التيقن من أن مسيحهم سيعود إلى جوارهم. ونظرًا لأن عشيرته كانت تتألف من نحو سبعين تابعًا، من الوارد احتمال أن بعضًا منهم نفذ الخطة عن عمد، وفي هذه الحالة نكون بصدد أكبر عملية تزوير ودعاية في تاريخ الأديان.

هناك نظرية أخرى تتمحور حول شخصية قيافا*، الذي توافرت له أسباب الرغبة في الاحتفاظ بسلطته بوصفه ممثلًا أعلى سلطة دينية بين اليهود، وتمكن من إخفاء الجثمان لكي يقول لأنصاره ابحثوا عن الرفات في الجليل تفاديًا لأن تتحول مقبرته إلى مزار يُحج إليه مما يؤدي لتضخيم أسطورته. أخطأ بالتأكيد، حساب تأثيرات ذلك الاختفاء. وهناك الكثير من الفرضيات الأخرى، التي تحلل مدى شيوع نهب المقابر في يهوديا أثناء ذلك العصر، لتزايد الطلب على أعضاء حديثي الوفاة والأشخاص ذوي القداسة من أجل الطقوس واسعة الانتشار، أو أخرى تؤكد استخدام مقابر جماعية للمحكوم عليهم بالإعدام، أو توضح أمرًا معتادًا وهو ضياع معالم مكان الدفن... وكلُّها أكثر منطقية من المعجزة.

ومع ذلك، ماذا يثبت قبر فارغ؟ بدون شك، كان مشهد اللحد الخاوي كرمز واسع الانتشار بين المذاهب العبرانية، حيث كانت تشهد حدث قيامة أحدهم على فترات متواترة نسبيًا. لكن اليوم عندما تختفي جثة من قبر، من المشرحة أو مستودع الجثث، فإن أول ما سنفكر فيه هو الاتصال بالشرطة، وآخر ما سنفكر فيه هو عودة الجثة للحياة. أو، بعبارة أخرى، إذا كانت هذه ستصبح المعجزة الرئيسية الخارقة في المسيحية كلها، ألم يكن بوسع المسيح البقاء لفترة أطول بين الأحياء، بعد القيامة؟ ألم يكن بوسعه أن يجعل عددًا أكبر من الشهود

* يوسف بن قيافا وهو حسب الكتاب المقدس من أعضاء السنهدرين ومن الذين شاركوا في محاكمة يسوع. (المترجم)

يرونه، أن يسير بين الحشود، أن يطير محلقًا أمام قيافا وباقي أعدائه؟ لأنه ما مغزى أن يحظى بقيامة، وعقبها مباشرة يرفع إلى السماء؟ لا يجب أن ننسى أن المسيح، بالنسبة للكنيسة، منذ أن أقرت ذلك في نيقيا عام ٣٨١، صار متحدًا في الجوهر مع الخالق. وبناء عليه، فقد استطاع معرفة كل أحداث المستقبل، الإلمام بمناهج علوم المستقبل الأكثر تعقيدا، تحدث جميع اللغات، وحتى أنه عرف الكتابة، ومع ذلك، قرر لسبب بالغ التعقيد، ألا يترك برهانًا آخر على ألوهيته سوى القيامة، ألم يكن بوسعه على الأقل عمل ذلك بطريقة منزهة عن أي شك؟

ما أهمية باقي أكاذيب الكنيسة، مقارنة باختراع هذه الخدعة. وما مدى أهمية عدم انتباه أي من الحواريين لمسألة عذرية مريم، التي مر عليها الجميع مرور الكرام على مدار تلك العقود، وأن يكون السند الوحيد لهذه المعجزة المذهلة مبنيًّا على خطأ ترجمة وحيد للعهد القديم (إشعياء ١٤:٧)؟

مازالت الكنيسة الكاثوليكية إلى اليوم تحرص على إخفاء هفوة أخرى محسوبة على مترجمي النص الأصلي تكمن في (استبدال كلمة "شابة" أو "صبية" بكلمة "عذراء" في مناسبة وحيدة فحسب). وهل اهتم أحد طوال كل هذا الوقت، بمسألة إنجاب مريم لأربعة أطفال ذكور آخرين من يوسف النجار والعديد من الإناث الأخريات (متى، ١٣: ٥٤-٥٨؛ مرقص، ٦: ١-٦؛ لوقا، ٨: ١٩-٢١؛ يوحنا، ١٢:٢) من أجل مواصلة الحديث عن عذريتها؟ تعتبر، بمجرد قبولنا لمعجزة القيامة

وإذعاننا للسذاجة، وغيرها من التناقضات، تفاصيل بلا أهمية. ما أهمية أن يطالب المسيح بعدم تشييد كنيسة باسمه، أو يحرم قطعيًا بصورة لا لبس فيها الكهنوت لأنه يميز بعض البشر عن غيرهم؟ باختصار، من ارتدع من تأكيد الإنجيل بكل صرامة أن "الرب الذي صنع العالم لا يسكن معابدَ شيدتها يد البشر" (أعمال الرسل، ١٧:٢٤) أو تحريمه القاطع لعبادة الصور؟

دين تلك الشعوب لا قيمة له. قطعوا فرع شجرة في الغابة، ونحته صانع بإزميله. زينوه بعد ذلك بالذهب والفضة وثبتوه بالمسامير والمطرقة حتى لا يسقط. تبدو الأوثان فزاعات في حقل بطيخ. لا تستطيع الكلام، ويجب حملها لأنها لا تستطيع السير أيضًا. ومن ثم لا تخشوها، لأنها لا تستطيع أن تضركم، أو أن تنفعكم! (إرميا ١٠: ٣-٥).

لا وجه للشبه بين عبادة الأوثان، التي تنتشر اليوم في الكنائس الكاثوليكية وحتى الشوارع لمدة أسبوع على الأقل في العام، بما تنكره النصوص المقدسة. لكن دعونا لا ننسى أن الأيقونات المسيحية نفسها عادة ما تمثل الإيمان معصوب العينين.

ربما من منطلق هذه الفكرة فحسب، يمكن توضيح كيف سادت كنيسة وحيدة، الفاتيكان، التي قالت: "لا تطمع فيما لدى غيرك من نعم"، وأحاطت نفسها بالمجوهرات والأملاك والترف، وراكمت ثروات لم يحلم بها بشر على الإطلاق.

قالت: "لا تقتل". وأطلقت الحملات الصليبية وأسست محاكم التفتيش، أكبر آلة تعذيب وإبادة صنعتها البشرية حتى الحل الأخير عند النازي.

وقالت: "لا تكذب". واختُلقت الحقيقة.

أكاذيب الإلحاد

لكن دعونا لا نخدع أنفسنا.

يكذب الملحد أيضًا عندما يدعي أن الخالق غير موجود.

صحيح أننا نستطيع وفقًا لفكر بوبر تأكيد عدم وجوده بوصفه فرضية علمية، لأن الفكرة زائفة لأبعد مدى: يكفي أن يتوافر لدينا إدراك علمي عن الخالق لدحض الفكرة. ولا يعدو الأمر أن يكون أكثر من ذلك، مجرد فرضية وتخمين، قد يفيدنا بشكل مؤقت. صحيح أيضًا أننا لم نجد حجة منطقية واحدة تسوِّغ وجوده، ولكن توصلنا بالفعل إلى عدد لا بأس به من النظريات المتناقضة من شأنها أن تجعل تفسير وجوده من الممكن الاستغناء عنه. ومع هذا، لا نعرف شيئًا أبعد من ذلك على الإطلاق عن الموجود هناك. ولا يمكننا أن نعرف. يمكن أن يقبع أي شيء على الجانب الآخر، بصورة لا يمكن لقدراتنا المعرفية توقعها أو استيعابها. في هذا السياق، كل ادعاء بتأكيد مطلق من قبل الملحد لا يعدو أن يكون أكثر من إفك محض. مسألة إيمانية أخرى.

يكذب الملحد إذا أكد عدم وجود الخالق، كما يكذب المتشكك عندما يصر على تأكيد عدم وجود الأشباح. مع ذلك، فهما درجتان مختلفتان من الكذب.

في الحالة الثانية، وعلى الرغم من أنه من وجهة النظر المنطقية، لا يتوافر لديّ حجة لا يمكن دحضها تتيح لي تأكيد وجود عقول الأشباح، على الأقل تعتبر فرضية عدم الوجود لدى المتشكك زائفة قلبًا وقالبًا من قبل الحواس. تخبرنا انطباعاتنا الامبريقية، مرة بعد مرة أن الأشباح موجودون هناك. ولا يحدث مثل ذلك في حالة الرب.

ومن ثم يجدر التمييز (لكي نبدأ في فهم بعضنا بعضًا، على الرغم من أننا سنعود لاحقًا إلى هذه المسألة)، بين مجموعتين كبيرتين من الافتراضات. تحل فكرة الربّ في المرتبة الأولى، بجانب غيرها من الأوهام الأخرى، في موقف مشابه مع الفرس وحيد القرن، الملائكة، مسخ الجوروجنا، وحش اللوياثان البحري الخرافي، وحش بحيرة لوخ نس، قارة أطلنطس، أرض الأقزام (ليليبوت)، نيفرلاند، تلون (بورخيس)، وخلود الروح. وعلى الرغم من أنها تشكل بالتأكيد جزءًا من ثقافتنا، إلا أن جميعها محل نفي مؤقت وعلمي، في انتظار نقض ذلك لإثباتها. بينما نجد من ناحية أخرى، أن المجموعة الثانية قد تضم فرضيات على عدم الوجود، ثبت زيفها، بصورة إمبريقية على الأقل، من بينها قانون الجاذبية، أو وجود الأشباح.

ولا يعني هذا أننا نستطيع عدّ المجموعة الثانية من الحقائق، أو دون ذلك بكثير، أن تكون تأكيدات مساوية لفكرة أنا أعتقد إذن أنا موجود (cogito ergo sum). تعد جميعها، بدون تمييز، أوهامًا من صنع أفكارنا.

مع ذلك، تعدُّ الفرضيات العلمية أكاذيب أكثر منطقية.

وتحديدًا، تلك التي لدينا فوق كل ذلك أدلّة محسوسة، مباشرة، ومستمرة عليها، من خلال البصر، السمع أو اللمس، إنها أكاذيب من الصعوبة بمكان عدم تصديقها.

تكوين المجتمعات

يتميز الإنسان عن غيره من كافة الأنواع بأنه يتمتع بقدرة أكبر على صياغة الأوهام، في عالم وكون أثبت فيه الكذب أنه عامل تنظيم وفعل يحظى بتقدير. دفعته هذه القدرة على الخداع إلى إخضاع غيره من كافة كائنات الكوكب الحية، وإلى سيطرة مؤقتة (بالقوة أكثر من العقل) على محيطه.

لكن دعنا صديقي القارئ، نعود إلى وضع أنفسنا، أمام القرد العاري.

شهدنا في جولاتنا السابقة كيف أن سمتيْن على الأقل من الكذب تحفّزان هيمنة الإنسان. من جهة، جلب التحكم في الأنماط الخيالية الأساسية معه تطبيقات عملية، واللغة، وحظًا من المعرفة. ومن جهة أخرى، عززت القدرة على سرد الحكايات تماسك وتنظيم جماعات أكبر عددًا. واحد واثنان: المعرفة والتماسك. ومع ذلك، ما زالت تنقصنا بشدة خاصية ثالثة من الكذب، وربما تعد أكثر أهمية من السابقتين لتكوين المجتمعات. فقد أدت قدرتنا على مواصلة الكذب وحدها،

سواء بعضُنا على بعض باستمرار، أو على أنفسنا أيضًا، للتسامح مع هذا الارتباط، ولولاها لم يكن ممكنًا أن نتحمل بأي وسيلة أخرى هذا التجاور شديد التقارب مع الأغراب. وأصبح لدينا الآن بالفعل، خاصية ثالثة: التعايش.

نحتاج، مثلما ذكرنا بالتحديد، لبلوغ الحد الأدنى من وحدة المعرفة، إلى الخيال. اضطر الإنسان الأول، قبل وقت طويل من تعلم الكلام وسرد الحكايات حول النيران، إلى اللجوء إلى الكذب من أجل تطوير تفكيره الرمزي. تعد الاستعارة البلاغية، أول ما يركز عليه العقل، من أجل إطلاق عملية التجريد: عبر آلية تسمح من خلال الإحلال، بخلق صور مفهومة للعالم. وعلى هذا النحو، تحدث القفزة الاستعارية الأولى عندما تتحول دفقة حواسنا العصبية إلى صورة ذهنية. وبهذه الطريقة، ستصبح الاستعارة الخيالية ذكرى ألم أو تجسيدًا ذهنيًّا لشخص عزيز، كما ستصير لاحقًا رسم كهوف لثور البيسون فوق صخرة. ستصبح الاستعارة تجريدًا لأي سلسلة من الأحداث، بما في ذلك التي لم تحدث بعد. وحدها الاستعارة، الإحلال، تزييف الصور، ستتيح التذكر والتنبؤ بالعملية وتكرارها من خلال ما تم سرده ذات مرة حول النيران، أو استباق تحركات الحيوانات المفترسة وطرائدها. تحدث القفزة المجازية الثانية بعد نحو مليوني عام، عندما تتحول الصورة إلى صوت. وتولد المفاهيم واللغة. وبناء عليه، لا يسعنا إنكار أن الاستعارة/ المجاز يظل كامنًا خلف أي عملية معرفية وفكرية. إنه النواة

اللغوية التي تتيح لنا سواء إضفاء معنى على العالم أو رسم عوالم ممكنة. يقتضي الحديث عن المجاز، مثلما قد يقول أومبرتو إكو، التحدث على الأقل أيضًا عن رموز، رسم فكري (إيديوغراف)، نموذج، نمط أولي، حلم، رغبة، هذيان، طقس، أسطورة، سحر، إبداع، فكرة، أيقونة أو تجسيد، بالإضافة إلى أن المجاز وحده فحسب هو الذي يجعل اللغة نفسها، الرمز، المغزى والمعنى ممكنًا. يعتبر الشعر مصدر أكثر أشكال الفهم الأساسية. لا يوجد بديل آخر، الذكاء البشري ليس لديه سبيل آخر. ولذلك، تعتمد كافّة معارفنا على التخمين والحدس والكذب. وكافة العلوم المعاصرة (على الرغم من أنها اعتلت مذبح الحقيقة، مثلما فعل الدين قديمًا)، لم تكن تستقي مصدرها من نفس الآليات الشعرية فحسب، مهما كانت أعداد البشر العاديين، بل إنها لكي تتقدم اضطرت بالإضافة إلى ذلك، إلى الاعتماد على أفكار، بعبارة أخرى، على مجموعات من النظريات البديهية، والمسلَّمات المؤقتة وفرضيات لا تقل عنها خيالًا.

ستعد قدرة الإنسان على الترابط، بمجرد أن تمخضت المعرفة الرمزية عن اللغة، هي ما سيميز الإنسان العاقل عن غيره من باقي أبناء الجنس البشراني/ أو الهومو، وليست اختراعاته أو أدواته. بادئ ذي بدئ، ستتمكن الجماعات الصغيرة من البشرانيات، بفضل اللغة من تنظيم نفسها ووضع استراتيجيات للصيد؛ بالطريقة نفسها التي تفعلها السنوريات

العليا، باستثناء أن هؤلاء يحتاجون إلى سنوات من الخبرة لكي ينسقوا فيما بينهم، بينما سيشرع البشر في التمكن من تلخيص كل تعليمهم في جمل قليلة موجزة. وسيزداد تنظيم هذه المجموعات تعقيدًا، كلما طوروا مهاراتهم اللغوية. ولكن لن يتوقف الأمر عند هذا الحد، فسوف تظهر في المرتبة الثانية، الحكايات حول النيران عندما لم تصبح المجتمعات كبيرة بعد. تعزز الحكايات والأساطير المتداولة الأواصر بين أفراد القبيلة، وتوفِّر تفسيرًا موحدًا للعالم، ورؤية مشتركة. تمنحهم ماضيًا ينتمي إليهم، أحداثًا أسطورية تصورهم على أنهم أبطال وتجعلهم أكثر قوة كشعب، وتطلعات ومهمة جماعية تعد هي نفسها بالنسبة للجميع. يبدأ هكذا تكوين المجتمعات الأولى. سيتمخض التفكير الأسطوري عن ديانات ستكسبنا هوية في مواجهة الآخرين، وآلهة سنحارب من أجلها دون أن نهاب الموت. تعد الوسيلة الوحيدة للعمل مثل جيش نمل، على الرغم من الاحتفاظ بهامش من الحرية الفردية. يعد الشعور بالانتماء منشأ كافة أشكال الرموز الوطنية، والشعارات والرايات. ستُختلق حقائق مغايرة، ستوحد وتفرق في نفس الوقت، معتقدات أسطورية سوف تؤَسس عليها هويات قومية. أساطير حول العرق، النوع، القواعد الاجتماعية، العادات، الحقوق والقوانين، والتراث، والتاريخ، والعلم، سترتدي دوما قناع الحقيقة، وليس لها منها إلا النذر اليسير، أو لا علاقة لها بها على الإطلاق. سيفيد أي مُسوِّغ في تشجيع الترابط، من الانتماء إلى طبقة اجتماعية، إلى نادٍ، إلى حيّ، إلى شركة

أو حتى إلى تشجيع فريق رياضي، مهما تغير لاعبوه على مر الزمن، رؤساؤه، رعاته الرسميون، وحتى شعاره وأهدافه. قادنا هذا التفكير الأسطوري نفسه، بالرغم مما ينطوي عليه من فظاظة وبدائية، إلى فرض هيمنتنا على كافّة الأنواع الأخرى، للسموّ على بقية الحيوانات الأخرى، وحتى السيطرة عليها وإخضاعها وافتراسها، أو التمكن من إبادتها بالكامل.

ومع ذلك، لم نتوقف للحظة بعد عند العنصر الثالث المعنيّ باستخدام الكذب، والذي لولاه لما كان من الممكن أن تظهر الحضارات. يعتبر التحضر ذاته بالكامل نتاج قدرتنا على الخداع.

كيف كان من الممكن أن نتحمل التعايش مع الآخر لو عرفنا تصوره الحقيقي عنا؟ من يستطيع الاستمرار في الحياة في مجتمع إذا كان مضطرًّا دومًا للكشف عنما يدور فعليًّا في عقله؟ هل كان من الممكن نشوء أقلِّ تجمع من البشر لو لم يكبتوا جميعًا مشاعرهم، ولو لم تتوافر لدينا القدرة على قول شيء آخر غير ما نفكر فيه ونشعر به؟

يكمن وراء التعليم الجيد، والسلوكيات، وقواعد المجاملات والتعايش، رغبتنا في تقنين الخداع. يقتضي التعامل مع الآخرين الالتزام بحالة مستمرة من المداراة، نحاول من خلالها إبراز أفضل صورة لنا. يجب أن أبتسم وأكون لطيفًا لكي يتحمّلني الآخرون، على الرغم من أنني قد لا أكون بالضرورة سعيدًا من داخلي.

- كيف حالك؟ (قد يسألنا أي غريب في المصعد أو من يستقبلنا في أي محل، وفقًا لقواعد التحضر الراسخة). "بخير"، سوف نكذب. ولن يعنّ لأحد، في المقابل، أن يجيب:

- أنا حزين، كما ترى. أشعر بالفشل التام منذ سنوات. منذ أن أدركت أن عملي لا يشعرني بالرضا وليس لدي أي شغف حقيقي. حياتي تخلو من معنى، أشعر بالضياع التام. بالإضافة إلى أنه لم يغمض لي جفن طوال الليل، لأنني تناولت شيئًا سيئًا، وأمضيت الليلة ذهابًا وإيابًا إلى الحمام بسبب الإسهال الحاد غير اللطيف بالمرة. وحضرتك، كيف حالك؟ لقد جئت بحثًا عن قميص أبيض. من أجل عُرس. سوف أذهب بمفردي.

تعتمد كافة أشكال التقدم الإنساني، منذ التجمعات السكانية البدائية وصولًا إلى المدن الكبرى، على الترابط، ومن ثم، على الكذب الاجتماعي. نحتاج إليه ونعتمد عليه في كلّ لحظة. عندما أبتسم، عندما أومئ بالموافقة، وعندما أعبر عن الرفض، وأنني لست مهتما باصطحاب الأطفال هذا المساء بين اجتماعي في الخامسة والآخر في السادسة. نكذب عندما نتجمّل، وعندما نفاضل بين ما نلبس، وعندما نسير بثقة بين طاولات متراصة أمام (تراس) واجهة مقهى مزدحم، وعندما نظل جالسين منتصبي القامة ولا نتهاوى على الأريكة، بالرغم من شعورنا بالإنهاك التام. الظهر مستقيم تمامًا. نكذب عندما نومئ، وعندما نقر بشيء، عندما نخفف من حدة الكلام، وعندما نجاري التيار السائد، أو عندما نبالغ في الابتسام. نحاول، بصفة

عامة، إرضاء الآخرين، ويروقنا أن يتصرف الآخرون بالمثل معنا. وإذا كان هناك شخص غير لطيف، فإنه يثير استنكارنا ونقول إنه يتصرف كأحمق، لأنه كذلك بكل تأكيد. على الرغم من أنها بادرة ذكاء، أوضح بادرة على الذكاء. ولولا الشعور بالتعاطف لما قامت للحضارة قائمة على الإطلاق. هناك بعض الأشخاص الذين يتحصّنون بصراحتهم المطلقة لكي يقولوا كلَّ ما يفكّرون فيه، متذرعين بأن ذلك يجعلهم أكثر أصالة، إلا أن هذا في الحقيقة يبرهن فحسب على حماقة، وعجز عن فهم واقع معقّد وعلى أحد أعراض الانطواء الواضحة.

– ألا يعجبك؟ (يسأل المضيف متطلعًا إلى الطبق الذي تركته دون أن يمس).

– لا، يا للقرف. لم أحبّ اليقطين في حياتي أو هذا الشيء الأخضر هناك. كما أصابني اللحم المطهوّ بهذه الطريقة بشعور قوي بالغثيان بمجرد أن تذوقته. وبالمناسبة، منزلك أيضا بشع، هل أنت من صممت ديكوراته؟

كان من المحتمل أن تدفع هذه السلوكيات غير الكاذبة، عندما كان الناس مازالوا يجلسون إلى المائدة مسلّحين، ولم تكن قد وُجدت بعد قوانين تعنى بحمايتنا، البشرية نحو مستقبل أكثر غموضًا. أو إلى فنائها هكذا فقط، مثلما حدث بالفعل مع أجناس أخرى من القردة العليا. أصبح من المُلِّح، منذ اللحظة التي ظهرت فيها السمة التطورية للذكاء، إدخال

تحسينات وميزات جديدة لحماية بعض الأفراد المفكرين من بعضهم من خلال أقنعة التظاهر. الإنسان العاقل العاقل.

ولا يقتصر الأمر على نوع من المجاملة، أو دون ذلك. يصبح الكذب لا غنى عنه أيضًا عند مواجهة المخاطر. وليس مفيدًا من أجل إقامة علاقات صداقة فحسب (على سبيل المثال، عندما لا يقر صديقك أنه معك من أجل المصلحة فقط)، وإلا فإنه سيكون من المستحيل القتال كتفا بكتف إلى جانب شخص اعترف لك بأنه سيلوذ بالفرار بمجرد أن تتاح له الفرصة، وأنه سوف يستخدمك كدرع واقٍ إذا اقترب سهم، وأنه لن يحملك بأي حال من الأحوال إذا سقطت جريحًا. ستتفكك الجيوش في الحال. وهو ما قد يكون أمرًا جيدًا، لو لم يكن هناك جنود موهوبون يكذبون بشكل أفضل بعضهم على بعض.

يُفرض الترابط من خلال الخداع على كافة مستويات بنية المجتمع. يعدّ الكذب أساسيًا من أجل التعايش مع الغرباء؛ ومن أجل الوثوق فيمن يصطادون، يحاربون أو يعملون معك؛ للحفاظ على الصداقات؛ وحتى من أجل تكوين أقوى الروابط الأساسية والحميمية داخل الأسرة الواحدة.

- أفكر منذ سنوات في رجال آخرين عندما أقيم علاقة معك. ولو كنت اكتفيت بالتفكير فيك وحدك، لما شعر هذا الجسد المتعطش، جسدي المهمل بأي شيء.

- لا تشغلي بالك يا حبيبتي. أنا معك بدافع الروتين فحسب ولأنني لم أجد شيئًا أفضل. ولكن هذا يمكن أن يتغير في أي لحظة.

مع هذا النسيج الاجتماعي شديد الاختلال، سيكون من الصعب تربية الأبناء. وكذلك إنجابهم، لو لم تكن مضطرًا.

ومع ذلك، مازال متاحًا مستوى أعلى من الحميمية القائمة بين الأزواج، أو في علاقات القرابة المباشرة، حيث يصبح اعتياد الكذب خلاله لا مفر منه. ذلك الذي يدور برؤوسنا.

سيكون من المستحيل تمامًا التعايش مع الآخرين لو لم نستطع خداع أنفسنا. وإذا لم يمتلك كل فرد القدرة على الكذب على نفسه قبل أي شخص آخر، لما كان بوسعه على الإطلاق تحمل التقارب مع الآخرين. نحتاج لكي نتسامح مع الوجود مع الآخرين، لاستعمال الكذب، في اثنين على الأقل من مقاصده: إخفاء الأسرار وخداع الذات.

في المقام الأول، يعتبر إخفاء ما نفكر فيه، عدم البوح بما يجول في أذهاننا أو قول عكس ما نفكر فيه، الطريقة الوحيدة للحفاظ على أبسط قواعد الخصوصية، ما تبقى في هذا الجانب من أدمغتنا. وإذا اضطررنا للاعتراف بكل أسرارنا، ولم يكن بوسعنا الصمت، التظاهر أو الكذب بشأن ما نخفيه في صدورنا، فلن يقبل أي أحد العيش مع آخر غيره، وسنهيم على وجوهنا فرادى في الصحراء مثل ذئاب القيوط أو الفهود. تعتبر

الحياة ممكنة في المجتمعات، لأننا بداية، نستطيع الاحتفاظ بالدائرة الحميمية بمأمن عن الآخرين. وبشكل عملي، تتأسس العلاقات الإنسانية في مجملها على ما يعرفه وما لا يعرفه بعضنا عن البعض الآخر. سواء في الحرب، أو في التجارة، أو في السياسة أو في الحب. ونستمر في الكذب، بدرجة أكبر أو أقل، حتى عندما نقول أننا نفتح قلوبنا. وهذا الكذب ليس أكثر أو أقل من الحالة التي لا غنى عنها للحرية. من الممكن أن يشي بنا سلوكنا الخارجي في بعض المواقف، لكن لا يستطيعون أن يستنطقونا لنبوح بما نحتفظ به في رؤوسنا، إلا من خلال التهديد، والإكراه، وعن طريق وسائل التعذيب، أو جهاز كشف الكذب، أو حقننا بمصل الحقيقة.

لأنه من بوسعه تقبلنا على حالنا؟ ولا حتى نحن. بل نحن دون ذلك بكثير.

ومن ثم، ففي المقام الثاني، نجد أنفسنا مضطرين لاستخدام استراتيجية نفسية لخداع الذات. يعد من المنطقي، في عالم (طبيعي أو اصطناعي)، يكافئ الكذب، تخمين أن اعتقادنا في وهمنا الخاص، ينطوي على ميزة، لأنه يساعدنا في فرضه على الآخرين باقتناع أكبر. وعلى الرغم من أن هذا صحيح بنسبة كبيرة، إلا أن الدوافع التي تحرك خداع الذات أكثر تعقيدًا. لا يعمل عقلنا وفقا للمفاهيم فحسب، بل والمشاعر أيضًا. وهذا الأمر الأخير، بالتحديد يصعب التحكم فيه، منذ استيقاظنا وطيلة الوقت الذي نظل محتفظين فيه بوعينا. ولا يعني هذا

أننا لا نحب حقيقتنا، لكن ما يثير الرفض لدينا هو ذاتنا نفسها، التي تعد المرشح الذي نرى من خلاله حقيقتنا ولا يمكننا الاستغناء عنه. وسنظل هناك أينما ذهبنا. مع ذكرياتنا، مع سلوكنا في الماضي، وعيوبنا في الحاضر، وظروفنا الصعبة. تعد الحاجة إلى هروبنا من أنفسنا سبب محاولة كافة شعوب الأرض تخدير نفسها بطريقة ما أو بأخرى؛ وجربوا في تلك الأماكن الغريبة التي لم يعثروا فيها على أي مادة لبلوغ ذلك، منع الأوكسجين، الإلقاء بأنفسهم ليسقطوا متدحرجين على المنحدرات، الرقص بلا انقطاع حتى بلوغ حالة التغييب المنشودة. لا نستطيع احتمال أنفسنا. أصبح وجودنا لا يطاق، على الرغم من أننا جئنا للعالم بآلية متسلسلة صممت من أجل إخفاء النقائص. على الرغم من أننا نستطيع من خلال الخداع الذاتي رؤية أنفسنا في صورة أفضل بكثير مما نحن عليه. نبالغ في تقدير أنفسنا، نجمل الأحداث، لا نسمع ما لا نريد أن نسمعه، نقص على أنفسنا الأحداث منقوصة، نمحو من تاريخنا العناصر التي لا تهمنا، نطوّر ذاكرة انتقائية بفضل ما نتناساه من ذكريات مؤلمة ونجمّل الأحداث بصفة عامة، نصيغ نوعًا من الفنتازيا لكل ملمح من حياتنا، نكرر مرة تلو الأخرى الخطابات المفيدة لنا، مع تجويدها في كل مرة، نعد صورة ذهنية عن أنفسنا نظهر فيها دومًا أفضل مما تخبرنا به المرايا والصور الفوتوغرافية. ومع ذلك لا نحتمل أنفسنا. كما نخدع أنفسنا، في بعض المناسبات، وعلى حسب اليوم، والشخصية، أيضًا في الاتجاه المعاكس، مقلّلين من شأن أنفسنا. لكن، يُعدُّ

العكس هو الأكثر شيوعًا. يعتقد ما بين ٨٠٪ إلى ٩٥٪ من العاملين المؤهلين، أنهم ينجزون عملهم بصورة أفضل من بقية زملائهم. وتصل النسبة إلى حد الإجماع عند سؤال أي شخص إذا كان يعتبر أن الحياة عاملته بإنصاف، في مجال عمله أو في مجال تخصصه. كلنا نعتقد أننا أفضل مما هو معروف عنا. كلنا نعتقد أنه قد أصابنا سوء حظ ما، ووقع علينا بعض الظلم أو ضرر نسبي. ولا يوجد أي أحد من بين هؤلاء الذين يستمتعون بأمجاد النجاح والتقدير، يقر بأنه أسوأ مما يتصوره الناس عنه، لا يعترف أحد بأن إنجازاته خادعة أو تعد نتيجة لضربة حظ. ومع ذلك، يعتبر أن هذا هو الطبيعي. ولن نجرؤ على الحديث بهذه الصراحة المطلقة حتى مع أنفسنا. لا يوجد أحد، في وضع انفعالي سليم وحالة معنوية جيدة، وحتى لو كان وحيدًا في الغرفة، سيقف أمام المرآة ويقول لنفسه:

- مازال دمي فائرًا من النقاش الذي جرى قبل بضعة ثوان، لكن أعلم أنني لست على حق. أنا خنزير. لقد تلاعبت بالحجج بدافع الأنانية فحسب، لأنني أناني لا يريد مطلقًا أن يلتزم بشيء أو يتحمل مسؤولية أيّ شخص. على الرغم من أنني ألقي باللوم دائمًا على الآخرين. وإذا كنت قد تسببت بالفعل في قليل من الضرر بدون قصد، فلأن ذلك يجعلني أشعر بأنني أفضل، أما إذا تضرّر شخص آخر، فإن هذا يجعلني أشعر بارتياح وسعادة. لديّ شخصية مثيرة للاشمئزاز إلى حد ما وخسيسة بنسبة كبيرة.

القدرة على انتقاد الذات لها حدود. ومهما حاول الإنسان

أن يُخضِع نفسه لها، توجد الكثير من الأمور التي لن يستطيع البوح بها مطلقًا لأنه ليس بوسعه حتى تخيّلها. وتتم بعض عمليات خداع الذات عن وعي إلى حد ما؛ عيوب اكتشفناها منذ سنوات، إلا أننا توصلنا خلالها إلى عدم التفكير فيها وقطع السبيل أمامها في معظم الأحيان، مشاعر ذنب نحاول محوها، أمور اعترفنا بها في أي لحظة ضعف، ولكن سوف ننكرها عندما نشعر بتحسن من جديد، وقرارات نحيلها دائمًا إلى الغد. ومع ذلك، يتسرب الكثير غيرها دائمًا من أسفل خط الضمير. ولا نملك أي سيطرة عليها كما لا يمكننا حتى تخمين مضمونها. تظل كامنة في أعمق أعماق اللا وعي. لحسن الحظ.

العقل نفسه مصمم للحفاظ على التوازن. والكذب ضروري للغاية وصحّي للغاية (في بعض الأحيان)، لدرجة أنه ينظم أجهزتنا في أوقات الأزمة. يخفض العقل المكتئب دفاعاته، ويدفعنا إلى أوهام مرضية، ويضعف الجهاز المناعي، ويجعلنا عرضة للأمراض، ويقصر العمر. كما تعتمد الأجسام القوية والصحية على عقل سعيد ومخادع لذاته.

وعلى هذا النحو يمكننا في النهاية أن نكون فكرة شبه تقريبية عن وضعنا الحقيقي.

تم الزج بالإنسان في مؤامرة من الأكاذيب. في عالم يتكيّف مع الكذب، في مجتمع مبني على الأكاذيب وبيولوجيا اختلقت من أجل الكذب. ولهذا فإن كافة الأنشطة الإنسانية مرتبطة بفعل الكذب.

الحرب والاستراتيجية

أكد الخبير الاستراتيجي الصيني سون تزو، في كتابه فن الحرب، في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح، أن كل عملية عسكرية تقتضي دربًا من الخداع. يقول، ادّعِ العجز، عندما تجد نفسك في وضع الهجوم. تظاهر بالتَخاذل إذا كان جيشك على أهبة الاستعداد وقواتك تهم بالانطلاق. تظاهر بأنك تتهيأ للانسحاب بعيدًا، حين تخطط لهجوم على تخوم خطوط العدو. عندما تخطّط للهجوم على هدف بعيد، تظاهر بأنك ستشن الهجوم على مكان قريب للغاية. أحبط عزيمتهم بتصورك عن الانتصار، فاجئهم بإرباكك إياهم. انصب الفخاخ وقدم فرائس تنجح في جذب عدوك. واستعد للانقضاض عليهم عندما تتملكهم الثقة؛ وتحاشاهم حين يكونون أقوياء بالفعل. تنتشر قوة عسكرية من خلال الخداع، وتحتشد من خلال الإيهام بالمكافأة، وتنتصر بواسطة التفريق والإرباك.

أثناء الحرب ضد الهون، أرسل أحد أباطرة أسرة هان عشرة كشافين للتجسس على الشعب الغازي. وأجمعوا كلهم في

تقاريرهم على أن الفرصة سانحة في تلك اللحظة للانقضاض عليهم. حينئذٍ أرسل الامبراطور آخر عناصر الاستطلاع يدعى لو يينج. وحينما عاد من مهمته، أكّد هذا الكشاف على عكس سابقيه أنه لا سبيل لتحقيق النصر عند مهاجمة حشود الهون. أراد الامبراطور أن يعرف، فسأله:

مالذي جعلك تظن ذلك؟

جرت العادة أن تستعرض القوتان قواهما إذا كانتا متساويتين (قال)، على العكس، لم أر حين تجسست عليهم سوى ضعفاء وعجائز. وهذا يثبت أنهم أقوياء يتظاهرون بالعجز. ومن ثم لا أوصي بشن أي هجوم.

صُدم الامبراطور حين سمع تلك الحجج، واستشاط غضبًا، وأمر بإلقاء القبض على لو يينج لأن حماقته أعاقت مصالح الامبراطورية. ثم حشد جمعًا غفيرا من القوات التي توافرت له وتقدّم صفوفهم بنفسه، عازمًا على أن يقضي قضاء مبرمًا على أولئك الهمج المعتدين. وبالرغم من ذلك، ما إن اقتربوا من خصومهم حتى وجدوا أنفسهم محاطين بالآلاف المؤلفة من الهون، الذين أحكموا حولهم الحصار وقطعوا عنهم الإمدادات حتى اضطروا للاستسلام.

بدأ أثناء الحرب العالمية الثانية، عام ١٩٤٣، في قاعدة أمريكية بولاية تينيسي، تجنيد العناصر الأولى المكونة للفرقة الثالثة والعشرين من القوات الخاصة، والتي ستضم ثلاث

وحدات متخصصة بصورة حصرية في الخداع: سريّة مهندسي التمويه، وستتولى الاستراتيجية البصرية، وسريّة المؤثرات الخاصة، وهي المسؤولة عن الخداع السمعي، وسريّة الإشارات الخاصة، والمكلفة ببث أوامر زائفة عبر الراديو عن تحركات القوات. وفي غضون بضعة أشهر، انضم إلى هذه الوحدة التيكتيكية، نحو مائة من المهندسين المعماريين، مصممين، ممثلين وفنانين من مدارس الفنون في نيويورك وفيلادلفيا. كما وصل بهم الأمر إلى البحث عن مجندين في وكالات الإعلانات، وكلهم ثقة في قدرتهم على استخدام موهبتهم ومخيّلتهم في خداع العدو.**مكتبة .. سُر مَن قرأ**

تركزت مهمتهم الأولى على اليوم (د)، لكي يوفروا لجيش الحلفاء التغطية اللازمة لجعل النازي يعتقدون أن الإنزال سيتم على الساحل الشرقي الفرنسي، وليس في نورماندي. أعدّوا لأجل هذا الهدف ما يكفي من الخدع الآلية لإضفاء الانطباع بأن القوات مكونة من ثلاثين لواءً، يضم كلُّ واحد منها ثلاثين ألفًا. وتمكّنوا عقب العديد من النماذج الفاشلة، من تصميم عتاد قابل للنفخ من الدبابات والمدرعات الجيب والمدافع والطائرات المقاتلة، يمكن نقلها بدون جهد، ونفخها في دقائق معدودة، وبدون أن تترك أي أثر على مرورها. كانت معسكراتهم مكونة من مخيمات لا يوجد بداخلها أي جنود، والصناديق الخشبية لم تحتوِ على رصاصة واحدة، والجالونات لم يكن بها نقطة وقود واحدة. عملوا تسجيلات

أيضًا بقلعة فورت نوكس، بمساعدة مهندسي مختبرات بيل، لكي يتمكنوا من إعادة انتاج أصوات المركبات العسكرية وهي تتحرك، وكذلك إطلاق قذائف المدفعية أو الجنود وهم ينصبون جسورًا متحركة لعبور نهر. وأخيرًا تنكر الممثلون في زي ضبّاط يتقلدون أعلى الرتب، لكي يتولوا مهمة تأكيد الإنزال الوشيك لحشود الجيش الضخم. أي أنه بالإضافة إلى دبابات شيرمان، والشاحنات الدودج وقطع المدفعية الحقيقية، بدأت تصل إلى انجلترا شحنات أخرى بحجم حقيبة السفر، ويتحول محتواها، بمجرد نفخها بجهاز ضغط هواء، لنماذج مقلدة بإتقان مثالي لدرجة أنه تبرز من حوافها مسامير برشام زائفة. تمركز الجيش الوهمي في عدة نقاط استراتيجية على الخريطة لتشتيت القوات الألمانية على طوال الساحل الفرنسي، ومن ثم إضعاف دفاعتها في نورماندي، حيث من المقرر شن الهجوم الحقيقي. كان الغرض جعل هتلر يعتقد أنه سيتم إنزال غالبية القوات عند ممر كاليه، الواقع على بضعة عشرات من الكيلومترات من شواطئ نورماندي. شرعت سريّة الإشارات الخاصة في بث جميع أنواع الرسائل عبر الراديو، سواء المشفّرة منها أو غير المشفرة، بدءا من الأوامر المزيفة، وصولًا إلى الإنذارات المزيفة التي تؤكد وصول التعزيزات. كانوا قد فكّروا في كلِّ شيء: كتب بعض القساوسة شرق أنجليا (بريطانيا) إلى الجرائد، يشتكون من سوء سلوك القوات الأجنبية التي ليس لها وجود. جرى تمويه الدبابات والمركبات القابلة للنفخ بصورة سيئة لكي ترصد من الجو. كان يمكن

سماع التسجيلات الصوتية المنبعثة عبر المكبرات العملاقة على مسافة أربعة وعشرين كيلومترًا. وفي النهاية، طلب من الجنرال جورج باتون السفر إلى إنجلترا، والسماح بتصويره، لتعزيز الشائعات حول قيادته بنفسه لهذا الجيش الوهمي الهائل. نجحت العملية. بعث الألمان بالفعل إخطارات تفيد بأنه من المتوقع وصول أسطول الحلفاء الضخم إلى كاليه ودنكيرك، مدينة ساحلية أخرى بعيدة عن نورماندي. لم تُكتشف استراتيجية الخديعة مطلقًا. واستمرت الفرقة الثالثة والعشرين في التحرك على طول الجبهة، حتى أتمت إجمالي عشرين مهمة وهمية طوال فترة الحرب. اجتذب أولئك الجنود الوهميون في الكثير منها، نيرانًا أشدّ كثافة من قبل الأعداء، أكثر مما كانوا يتوقعون.

تعد الأسرار والأكاذيب في الحروب بالغة القيمة، لدرجة أن قصة هذه الوحدة التيكتيكية ظلت طيَّ الكتمان طوال أكثر من نصف قرن. ولا يزال العديد من تفاصيلها مصنفًا تحت بند السرية حتى الآن.

التجسّس ومكافحة التجسس

يدرك كل حاكم، رجل دولة، عسكري أو خبير استراتيجي أهمّية الأكاذيب في أى علاقة نزاع، حرب أو تنافس. ومن ثم، يعرف أيضًا، أنه من الأمور الجوهرية معرفة الأسرار التي يخفيها العدو لكي تتمكن أكاذيب أحدهم من استباق أكاذيب الآخر. يتضح منذ الوهلة الأولى التي يرسل فيها أيٌّ قائد أوّلَ فرد استطلاع لمراقبة الآخرين، أن المعارك الإنسانية تندلع قبل كل شيء على الصعيد الافتراضي. ولكن قدرتنا على التخيّل والتآمر تصل إلى درجة أنه سرعان ما ننسج أكاذيب على أكاذيب أخرى، فيتعقّد كل شيء إلى حد يصبح من الصعب تتبع طرف الخيط: وسرعان ما يتحول التجسس إلى مكافحة التجسس.

تضم جميع وكالات الاستخبارات الوطنية بدءًا من مكتب المباحث الفيدرالية (FBI)، وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، وحتى وكالة الاستخبارات السوفيتية السابقة (KGB) ومن الموساد حتى مركز الاستخبارات الإسباني (CNI)، إدارات لمكافحة التجسس ومكافحة الاستخبارات، الغرض

منها الحيلولة دون حصول العدو على معلومات سرية أو حساسة، وبصفة عامة، لتقديم واجهة من المعلومات المضللة.

يتضمن ذلك التشفير، إخفاء الرموز، العمليات السرية، تقنيات الخداع، العملاء المزدوجين، والتحريين السريين: وبدلًا من القبض على المشتبه بهم كجواسيس، يصبح من المفيد أكثر مراقبتهم للتحري عما يعرفونه، وماذا يدبرون، أين يذهبون وبمن يجتمعون. ونقتبس هنا مقولة كيبلينج، حينئذ لا تتوقف اللعبة ليلًا أو نهارًا.

وبالفعل، فإن نجاح عملية الخداع الاستراتيجي التي دُبرت للنازي لإنقاذ إنزال نورماندي، لم تعتمد فحسب على الجيش الوهمي المكون من فرقة القوات الخاصة، فقد لعب عميل إسباني يدعى جوان بويول، عُرف بين الألمان بالاسم المستعار (أرابيل)، ولدى البريطانيين باسم (جاربو)، دورًا مهمًا، وكان يتمتع بمهارة فائقة في الخداع، تبدو، بالرغم من استحالة تصديق ذلك، أكثر إثارة للدهشة من مهارات الألمان والإنجليز.

وُلد في برشلونة، عام ١٩١٤، تعرضت عائلته للإيذاء أثناء الحرب الأهلية الإسبانية على يد الجمهوريين، الذين قبضوا على أمه وشقيقته الكاثوليكيتين، ووجهوا لهما تهمة الانتماء للثورة المضادة. تمكن الشاب بويول من الفرار من جانب الجمهوريين، إلا أنه تعرض للضرب والحبس على يد قائده

الكولونيل بسبب إعلانه تأييد الملكية. أثرت الواقعتان بصورة بالغة على مسيرته المستقبيلة: سيتحول الشعور بالاحتقار الذي تملكه تجاه الفاشية وتجاه الشيوعية في نفس الوقت، إلى عداء صريح لكل من ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي، فقرر أن يحارب ضدهما، وهو ما ظل يفعله إلى حينه، وبدون إطلاق رصاصة واحدة.

في عام ١٩٤٠، أثناء المراحل الأولى لاندلاع الحرب العالمية الثانية، ومع معارضته لنظام فرانكو، قطع أولى خطواته للانضمام إلى الجانب البريطاني في كفاحه ضد الرايخ الثالث. وتواصل مع البريطانيين في نحو ثلاث مناسبات، ومع ذلك، في المناسبات الثلاثة أظهروا عدم اهتمام بالاستعانة بخدماته بوصفه جاسوسًا. مما دفعه إلى عرض خدماته على ألمانيا، مدّعيًا أنه مسؤول في الحكومة الإسبانية، وأنه من المؤيدين المتعصبين للنازي، ولكن نواياه الحقيقية كانت أن يعمل جاسوسًا مزدوجًا لصالح الحلفاء. سرعان ما قُبِل بين صفوف المخابرات الحربية الألمانية (الأبفير). وأعطوا له دورة مكثفة في التجسس، وعلموه تقنيات الكتابة المشفرة، وأسندوا له مهمته الأولى: تعيَّنَ عليه السفر إلى بريطانيا العظمى وتجنيد شبكة من العملاء لصالح الرايخ. لكن، لم يكن جوان بويول يعتزم الاستقرار في الأراضي البريطانية، لأنه لم يكن يعرف اللغة، ولأنه لم يكن يحتاج للوجود هناك لإنجاز ما يفكر في القيام به. ولهذا، سافر بدلًا من ذلك إلى لشبونة، وبدون أن

يغادر تلك المدينة على الإطلاق، وبالاستعانة بدليل سياحي إنجليزي، ومجلّات إحدى المكتبات العامة وتقارير الأخبار المصورة التي كان يتمكن من مشاهدتها في دور السينما، شرع في ترحال خيالي عبر كافة أرجاء إنجلترا. وأرسل إلى الألمان تقارير زائفة عن حركة السفن. كما أرسل لهم فواتير نفقاته أثناء السفريات المزعومة. ونسج شبكة كاملة من العملاء الوهمين الذين جندهم. تم رصد تقاريره واسترعت شخصيته المناقضة للواقع انتباه إدارة مكافحة التجسس البريطانية، وشرعت في تنفيذ خطة للإيقاع بالجاسوس سخّرت لها كل مواردها. وبالرغم من ذلك، كان بويول نفسه هو من عاود الاتصال بهم. وبالفعل بدأ هذه المرة، تحديدًا في أبريل عام ١٩٤٢، العمل رسميًا عميلًا مزدوجًا لجبهة الحلفاء. شرع جاربو في العمل متبعًا نفس الخط الذي كان قد بدأه في لشبونة. ركز عمله الأساسي على الاستمرار في المحافظة أمام الألمان على مصداقية شبكة العملاء الذين تمكن من تجنيدهم لصالح الرايخ، يفترض أنَّ بعضهم كانوا شخصيات مؤثرة، ولديهم معلومات قيّمة. يبرز من بينهم ويليام جربرز، رجل أعمال سويسري ألماني؛ داجوبرت، ينتمي إلى القوميين الويلزيين، ويترأس جماعة إخوان النظام الآري العالمي في سوانزي الفاشية؛ تشاميلوس، نادل من جبل طارق من منطقة تشيلسهارست اللندنية؛ بنيدكت، طالب فنزويلي يعيش في جلاسجو؛ مونبيم، شقيقة بنيدكت التي تعيش في أوتاوا، كندا؛ أحد أبناء عمومة مونبيم وبنيدكت مقيم في بوفالو، نيويورك...

وكما هو متخيل، كانت الصعوبة تكمن في أنه يتعين عليه تلفيق تقارير باستمرار عنهم جميعًا وعن كل واحد من الجواسيس الذين اختلقهم، ويتعين عليه الالتزام بالتنسيق فيما بينهم. وصل الأمر إلى أنه اختلق سبعة وعشرين عميلًا مختلفًا. كان عليه أحيانًا، الارتجال مختلقًا أسبابًا توضح لماذا لم يستطع أحد جواسيسه تقديم معلومات عن عملية ما وصلت أخبارها إلى مسامع النازي. أو استباق الأمر معتذرًا عن إصابة أحد عملائه بالمرض، تحديدًا قبل برهة وجيزة من تحرك هامٍّ للأساطيل. ومن أجل المصداقية، تعين أن يصل الأمر في النهاية إلى مصرع أحد هؤلاء الجواسيس الوهميين، وظلت أكثر من أرملة وهمية تتلقّى على مدار سنوات من الألمان معاش زوجها العميل الراحل. وبالفعل، انضمّت الأرامل، مباشرة إلى قوائم عملاء جاربو.

من كان يتصور، قبل عدة سنوات، أن الجاسوس الكتالوني، المدعو جوان بويول، سيصبح واحدًا من بين الأشخاص العشرين في جميع أنحاء العالم الذين سيعرفون الزمان والمكان المحددين لإنزال نورماندي.

أخبره الألمان في يناير عام ١٩٤٤ أنهم يعتقدون بقرب وقوع هجوم شامل وشيك على أوروبا، وطلبوا منه موافاتهم بالأخبار. وعلى هذا النحو انضم بويول بصورة طبيعية للخديعة الكبرى التي كانت تحاك ضد هتلر: يتعين عليه الآن إقناعه بأن هجوم الحلفاء سوف ينطلق من ممر كاليه، وأن التحركات

في محيط نورماندي في الحقيقة ليست سوى مجرد مناورات للإلهاء لاجتذاب جيشه في الاتجاه الخطأ. ومن أجل هذا الهدف، استعان جاربو بشبكة جواسيسه الوهمية. ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم (د)، سوف يعيد بث أكثر من خمسمائة رسالة عبر الراديو، وأحيانًا أكثر من مئة رسالة يوميًا، ليرسل الأخبار على مدار الساعة حول تدفق وصول القوات الأمريكية والكندية إلى الموانئ الإنجليزية. سوف يصدّق الفوهرر بصورة عمياء أرابيل، وسوف يرسل إلى الساحل الإسكندنافي ستة عشر فيلقًا ألمانيا ستظل رابضة بلا حراك حتى منتصف يونيو. ومع ذلك، في نفس يوم السادس من يونيو عام ١٩٤٤، لم يعد أمام الإسباني سبيل آخر سوى إخبار النازي، بعد موافقة إيزنهاور، بإنزال الحلفاء في نورماندي حتى لا ينكشف. فعل ذلك في الرابعة فجرًا، من خلال رسالة مشفرة. سيستغرق الأمر من الألمان أربع ساعات لتلقي الرسالة وفك شفرتها وإعادة تشفيرها. حينئذ سيكون الهجوم قد بدأ بالفعل.

أرسل أدولف هتلر بنفسه في وقت لاحق، رسالة تهنئة إلى أرابيل، ليشكره على المعلومات وعلى ما قدمه من خدمات. وسيظل المستشار الألماني يعتقد، حتى يوم مماته، أن إنزال الحلفاء في نورماندي بدلًا من ممر كاليه، حدث فحسب نتيجة تغيير استراتيجي في اللحظة الأخيرة.

في الـ٢٩ من يوليو ١٩٤٤، حصل أرابيل على الصليب النازي الحديدي تكريمًا له على خدماته غير العادية التي قدمها

إلى ألمانيا.

في ٢٥ نوفمبر ١٩٤٤، حصل جاربو على وسام الإمبراطورية البريطانية السامي من يد الملك جورج السادس.

ويعتبر جوان بويول أول شخص يحصل على التكريمين معًا.

بعد خمس سنوات، وبعد الانفصال عن زوجته، التي رزق منها بثلاثة أبناء، وُثقت وفاته بالملاريا في أنجولا. ومع ذلك، وعلى الرغم من عدم معرفة أي شخص آخر عاقل خارج حدود رأسه، وحتى الاستخبارات البريطانية، لم تكن شهادة وفاته سوى حيلة أخرى من حيله. تمكّن من خلال المال الذي حصل عليه نظير عمله في الحرب، من الاستيلاء على إجمالي ٣٤٠ ألف دولار من حكومة النازي بحجة سداد مستحقات عملائه الوهميين، لينتقل بعد تزوير وفاته إلى فنزويلا، حيث افتتح مكتبة، وتزوج مجددًا وأنجب ثلاثة أبناء آخرين. لم تكن عائلته الإسبانية تعلم أنه على قيد الحياة. ولم تعرف عائلته الفنزويلية حقيقته. أحيانًا، كان يحكي لهم على سبيل الدعابة أنه كان في الماضي عميلًا سريًا. قال لهم:

- كنت الجاسوس الذي قضى على الرايخ الثالث.

- أين؟ في أوروبا؟

- بالطبع، أنا كنت الشخص الذي أنقذ العالم. (وكان هذا هو اللقب الذي عمّدته به الصحافة العالمية فيما بعد).

- وكيف فعلت ذلك؟

- بمخيّلتي؟

فانفجر الجميع في الضحك. لم تثر تلك النهاية التي تشبه الروايات في أنجولا سوى شخص واحد، وبدت له جديرة بشخص يسعى للاختفاء. كان هذا الشخص هو نايجل ويست، مؤلف كتب الجاسوسية، حيث قال: (الروائيون يفهمون أفضل من أي شخص آخر الطبيعة الخيالية للواقع)، فشرع في السبعينيات بإجراء استقصاء سوف يستغرق منه عشر سنوات. أجرى مقابلات مع العديد من العملاء السريين السابقين في الاستخبارات العسكرية، ولكن بلا طائل؛ لم يعرف أي منهم اسم جاربو الحقيقي.

في النهاية، في ربيع عام ١٩٨٤، حصل على أثر له. واستطاع بعد ذلك بقليل أن يلتقي شخصيًا في نيو أورليانز بالعميل المزدوج الذي رُدّت إليه الحياة من جديد.

قرر جوان بويول بعد تلك المقابلة، السفر إلى لندن، حيث حظي باستقبال الأبطال من قبل التاج البريطاني في صالون قصر بنكجهام.

عرف أبناؤه من العائلتين، حقيقته من خلال صفحات الجرائد.

أكاذيب السياسة

أكّد شخص ذات مرة أن السياسة هي فن إقناع الشعب بأباطيل صحّية، لأجل غاية نافعة.

كان ذات الشخص، قبل عدة فقرات، قد بدأ تأملاته بالحديث عن الاستعداد الفطري لدى البشر لاستمراء الأكاذيب، ليتابع مدعيًا أن فنًّا شديد النفع وعظيم النبالة مثل الكذب، يجب أن يكون له مثل غيره من التعاليم الأخلاقية، باب خاص به في الموسوعة، لكي يكون دليلًا استرشاديًا لكل رجل سياسة، يسعى لبلوغ المجد في القرون القادمة. بحس سخرية راقٍ، ذهب إلى تفصيل تصنيف منطقيٍّ للأكاذيب الأكثر استخدامًا من قبل الساسة في عصره، وأضاف مجموعة لا بأس بها من النصائح لكي تعمل الأكاذيب بشكل أفضل، وتنتشر أسرع، وتدوم لفترة أطول. عندما فرغ منه، ابتسم راضيًا برصانة، ثم نقر بأصابعه للحظة فوق الطاولة ليختار لكتيبه عنوان "فن أكاذيب السياسة" (١٧١٢).

ومع ذلك، وكأن الكذب بذاته، غضب من الشخص الذي كشف خدع سفرائه الأكثر تبجيلًا على الأرض (الساسة والشعبويون)، وكما لو أن لعنة قد حلت به، ففُقِد اسمه في منطقة ما بينِ مكتبه والمطبعة، ولم يعد يظهر على غلاف الكتاب مطلقًا. على مدار القرون الثلاثة التالية، نُسِب هذا المقال حول الأباطيل، بالباطل إلى جوناثان سويفت. ولم يكن هذا السهو غير متوقع كما قد يبدو، لأن السيد سويفت كانت تربطه علاقة صداقة وثيقة بمؤلف العمل الحقيقي. ومن ثم، فقد كان كلاهما كاتبًا، وكلاهما ساخرًا، أحدهما أيرلندي والآخر اسكتلندي. ومع ذلك كان أحدهما يدعى جون أربوثنوت (John Arbuthnot)، وبكل تأكيد لم يكن قد حل بداخل جسد سويفت، بل (مثل الجميع)، عالق برأسه.

أكد أربوثنوت* أنّ السياسة هي فن إقناع الشعب بأباطيل صحيّة، لأجل غاية نافعة.

وبالفعل ظل الجدل قائمًا منذ الأزل، ومنذ ظهور السياسة ذاتها، حول ما إذا كان يجب إخفاء الحقيقة عن المواطن أم لا من أجل مصلحته الشخصية، وإذا كان يجب خداعه من أجل

* اقتضى الأمر مرور ثلاثة قرون لإثبات أن أربوثنوت هو المؤلف الحقيقي. لكن تشير كل الأمور إلى أنه ليس من الممكن تحدي الكذب والتوغل في أرض الباطل، والخروج بعد ذلك دون أن تُمس. مؤخرًا، أعادت دار نشر إسبانية (لن أذكر اسمها هنا، ولكن أخشى أنه سوف يظهر في المراجع)، نشر كتاب "فن أكاذيب السياسة". وقدمته في طبعة منقحة مزدوجة اللغة، ضمنتها التمهيد الذي يوضح في النهاية، سوء الفهم، مبدّدة أي شكوك لكي تعيد نسب بنوة الكتاب إلى أبيه المهضوم حقه السيد/ أربوثنوت. وبالرغم من ذلك، عاد مرة أخرى للظهور على غلاف الكتاب وبحروف كبيرة، وبصورة لا يصدقها عقل، ربما لصعوبة نطق لقب عائلة المؤلف، أو لأسباب تتعلق بحيل الترويج أو لأسباب أخرى، لم يكلف القائمون على دار النشر أنفسهم عناء توضيحها، اسم جوناثان سويفت فحسب. (المؤلف)

حمايته. تعد هذه القضية سابقة على عصر التنوير، وأرّقت عقول المفكرين منذ عصور المدينة الإغريقية، منذ جمهورية أفلاطون وفن السياسة عند أرسطو. ولهذا لا يمكننا في الوقت الراهن القول، إن القضية حُسِمت، أخذًا في الحسبان الاستخدامات وعادات حكومات العالم.

بالرغم من ذلك، نحتاج إلى وجهة نظر أوسع بكثير لكي نتمكن من مناقشة الإشكالية. وإذا كان الكذب، كما رأينا، عنصرًا جوهريًّا في كل سلوك بشري، فإنه من هذا المنطلق يشكّل جزءًا من السياسة أعمق بكثير. ولا يرجع هذا فحسب لعد الكذب دائمًا وسيلة ضرورية ومُسوَّغة لعمل رجال الدولة، الذين يتعين عليهم مراعاة المواطنين السذّج. فبمجرد توقفنا لبرهة لدراسة المقاربات الأولى والأكثر تفاؤلا، سوف نتحقق على الفور من أن الخداع كان كامنًا بالفعل في التعريف الكلاسيكي: تعد السياسة نشاطًا يستخدم الكلمة والحجة لإقناع الآخرين بشيء يمسنا جميعًا. تعد هذه محاولة لخداع الآخرين باستخدام الصورة الاستعارية حتى يؤمنوا بخيالاتهم الخاصة. وبعد ذلك، عندما تمكن التاريخ من أن إفقادنا الثقة في وضعنا الإنساني، لم تكتف النظريات الجديدة الأكثر تشاؤمية ومكيافيلية بالتخلي عن إقناع الآخرين فحسب، بل تطلعت إلى اللجوء إلى القوة للقيام بذلك: يجب أن يفرض الأمير نفسه من خلال السلطة لأن السياسة تكمن في التدخل في الصراعات بين الأشخاص، والمصالح ورؤى العالم المتباينة. ونجد

الكذب بنفس القدر في المقاربتين المحتملتين للسياسة، سواء التوفيقية أو الخلافية. ومن ثم، يعد الفارق الوحيد هنا، هو هل سينتهي الأمر بفرضه من خلال الخطاب البلاغي أم بالقوة.

وقد تعايش كلا الاتجاهين السياسيّين معًا، سواء الذي يسعى للتوافق أو الذي يركز على صراعاتنا، منذ أن صرنا كائنات اجتماعية. ويمكننا ملاحظة أنه حتى منذ جماعات الرئيسيات الأولى والتي لم تحظ بقدرات لغوية، كيف أنه يوجد أفراد يتمكنون من إخضاع الأخرين بطبيعتهم القيادية الفطرية، في حين أن آخرين يُطاعون باستخدام العنف والقوة الغاشمة. مال الفكر الديني والأسطوري إلى سيطرة الكاريزما؛ بينما اختارت السلطة الأبوية (البطريركية) والإقطاعية، السيطرة بالقوة؛ تعلمت الدول الاستحواذ لنفسها على احتكار العنف المشروع داخل حدودها. وتحدث هذه الأشكال الثلاثة من العلاقة بين الحكام والمحكومين دائمًا في عدة صور من التوليفات المتنوعة، على مدار جميع الفترات التاريخية وفي المجتمعات الحالية. ومع ذلك فقد كانت الأزمة التي ظلّت تلاحق الكنيسة منذ أواخر العصور الوسطى، والتي ستنتهي بالانشقاق الغربي الكبير، هي التي دفعت الممالك الأكثر سطوة في ذلك الوقت (إسبانيا، فرنسا، انجلترا)، للشروع في إعادة تنظيم بنيتها حتى تحولت إلى الدول الأوروبية الحديثة كما نعرفها اليوم*. شرعت

* ومع ذلك، هناك سوابق لدول -صُورت على أنها منظمات مؤسسية تحتكر القوة القانونية لممارستها بالإكراه على الناس- حتى قبل ذلك بكثير ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مصر القديمة، والإمبراطورية الرومانية، والصين الإمبراطورية، وبيزنطة، أو الإمبراطورية العثمانية. (المؤلف)

مؤسسات هذه الممالك، عندما تراجعت قدرة المسيحية على الإقناع، في تنظيم نفسها حول صديق قديم معروف: الحرب. أصبح الجيش أثناء عصر النهضة الاحتياج الأساسي لأي مملكة أوروبية، لدرجة إنفاق ما يقرب من إجمالي مداخيل التاج عليه. في الوقت نفسه سوف تؤسس الآلة العسكرية لنفسها كافة مؤسسات الدعم سواء الضريبية، أو القائمون على الضرائب، ومحصلوها والمراقبون، وهو ما سوف يؤسس للبيروقراطية الحديثة. استوعبت الكنيسة بسرعة، الوضع الجديد الذي أحالها إلى المرتبة الثانية، ومن ثم بادرت، لكي تحتفظ بجزء من سلطتها وسيطرتها على السيادة في الممالك، بشرعنة سلطة هؤلاء بالحق الإلهي. سوف يعزز هذا التسويغ، الذي ستعرف الملكية كيف تستفيد منه، جنسًا أدبيًا -وخياليًا- يُعرف باسم "مرآة الأمراء"، يهدف إلى تمجيد فضائل الحكام، وحكمتهم، وعدالتهم، وشهامتهم، وحصافتهم.

تفهم الفلورنسي نيكولاس ميكيافيللي هذا المنحى، ومن ثم لم يعتبر الكنيسة عدوًّا للدولة مطلقًا. بل على العكس، أدرك أنه لو عرف كيف يستغلها ببراعة، يمكن أن يحولها إلى أحد أدوات الحاكم لضمان طاعة رعاياه. بالرغم من ذلك، تناول ميكيافيللي السياسة دائمًا من منظور مثير للجدل. يؤكد بوضوح في "مرآته" المنشور عام ١٥٣١ بعنوان "الأمير"، أنه بالنسبة إليه، يتعين على كل من يرغب في الاشتغال بالسياسة التوغل في طريق الشر والاستعداد للتخلي عن الأخلاق لبلوغ

أهداف أكبر. اعتبر أن الإنسان منحرفًا بالفطرة، وأن الدوافع التي تحركه هي الأنانية، المصالح الفردية ورفاهيته الشخصية، وأن طموحه يدفعه لارتكاب شتّى أنواع الأعمال الإجرامية. بمعنى أنه سوف يتعين على كل من يتولى زمام أمور دولة، البدء بقبول أن كل أولئك الذين يتعامل معهم سوف يكشفون عن تلك الفطرة بمجرد أن تُتاح لهم الفرصة، وبناء عليه، التأهب لأي شيء. يتعين على الأمير عدم الاكتراث لكونه قاسيًا، أو اللجوء لأحط الرذائل المشينة والتي لولاها لكان من الصعب عليه إنقاذ ملكه. كما لا يجب أن يلتفت للعدل أو الظلم، بل يكتفي باتباع ذلك الطريق الذي فيه خلاص الوطن، ومن ثم لا يجب أن يكترث إلا لعدالة النتيجة النهائية. من الممكن أن يعمل ضد العقيدة، ضد الخير، ضد الإنسانية، وضد الدين. ومع ذلك، لا ينبغي أبدًا أن يخرج من فمه شيء يجعله لا يظهر أمام الآخرين على أنه كلُّ الخير، وكلُّ النزاهة، وكلُّ الإنسانية، وكلُّ الدين.

يعتبر الأمر الجوهري، في النهاية، أنه لن يكون مهمًّا تحلي الأمير بهذه الصفات، والتي هي في الواقع ضارّة. لكن أن يبدو وكأنه يتحلّى بها. سوف يؤكد ميكيافيللي "سوف يرى الجميع ما تبدو عليه، ولكن القلّة سيدركون حقيقتك".

ونجح بكل تأكيد أكثر من أي أحد غيره، في توضيح سواء أهمية الاحتيال أو حجم الكذب الذي تنطوي عليه السياسة.

منذ فترة وإلى الآن، لا أقول مطلقًا ما أؤمن به، كما لا أؤمن

مطلقًا بما أقول. وإذا أفلتت مني بعض الحقائق من آن لآخر، فإنني أخفيها بين طيّات العديد من الأكاذيب تجعل من الصعب التعرف عليها (نيكولاس ميكيافيللي، رسالة إلى الحاكم فرنشيسكو جوتشيارديني، ١٥٢١).

لا ينبغي تفسير أي مما سبق ذكره على أنه يعني أن جميع الدول، يجب أن تنجر إلى الشمولية، لمجرد أن لديها بالفعل الحق في احتكار اختراع القواعد والاستخدام العام للقوة. هناك العديد من النماذج المحتملة للدولة، وتتعايش فيها جميعًا -وإن كانت بنسب مختلفة- الأكاذيب والعنف.

سوف تعطي الحكومات الأكثر تحررًا، الأولوية بكل تأكيد، لتقنيات الخداع والتلاعب من بين الأنماط المختلفة لتوجيه المواطن.

أما الأكثر استبدادًا فسوف يفضلون عدم توضيح أكاذيبهم وفرضها بالإكراه.

حاول جون أربوثنوت في فنّ أكاذيب السياسة، تحليل أنماط الخداع المختلفة التي استخدمها الساسة في عصره، كساسة إنجلترا البرلمانية في القرن الثامن عشر والتي كان الجدال محتدمًا فيها بين حزب العمال وحزب المحافظين، اللذَيْن ما زالا يتنازعان على السلطة إلى اليوم. وتوصل إلى تصنيف ثلاثة أنواع من الأباطيل: "الكذب المفترى"، وهو ما يحاول انتزاع سمعة إنسان اكتسبها عن جدارة، خشية أن

يستخدمها ضد ما يعتقد أن فيه صالح الشعب؛ و"الكذب من أجل المبالغة"، ويتمثل في إضفاء سمعة على الشخصية السياسية أكبر مما تحوزها؛ و"كذب الادعاء"، ويكمن في منح خصلة فعل حميد، أو نزع خصلة فعل ذميم، عن شخص ونسبه إلى آخر. كما ذكر العديد من أنماط أخرى، في وقت كانت الأكاذيب موجهة فيه إلى الشعب بدلا من الساسة: أكاذيب مفزعة وتنشر الرعب، وهذه لا يجب تكرارها بشكل مبالغ فيه حتى لا تفقد تأثيرها؛ الأكاذيب التي تثير الحماس وتشعل الإثارة، وهذه يجب أن تكون منوّعة وأن تحترم المنطق؛ وأكاذيب الوعود الزائفة، ويمكن تمييزها عندما يؤكد أصحاب السلطة أمرًا بإصرار مبالغ فيه، يقسمون ويغلظون في القسم، يضعون يدا فوق الكتف، يعانقون ويبتسمون.

كما استعرض أربوثنوت في كتابه أيضًا الوسائل التي يلجأ إليها الساسة من أجل اختلاق، ونشر والمبالغة في أنماط كذبهم. ومع ذلك، فإن الساسة في عصره كان أقصى ما لديهم هو القذف والإشاعات بغرض التشهير. بعد فترة وجيزة، جعلت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، النشرات الملصقة في الميادين، تبدو فجأة وكأنها أداة من العصور الوسطى. أتاح اختراع الطباعة بتقنية اللينوتايب وتطور الصحافة المكتوبة، التخلي عن الشفاهة بوصفها أحد الوسائل الرئيسية للتشهير، وانتشر الكذب بسرعة وكفاءة لم يسبق لهما نظير. وبالفعل، احتفظت الحكومات دومًا، بوصفها المالك الشرعي الوحيد

للحق في إصدار الأكاذيب بسيطرة خاصة على الصحف. بلغ هذا الانتشار، مع ظهور وسائل الإعلام في القرن العشرين، وبالتحديد التلفاز، مدى لم يكن من الممكن تخيّلُه من قبل. ومع ذلك فسوف ينطلق هذا الانتشار إلى مستويات أعلى بكثير، في العقود الأولى من قرننا الحالي، عندما تتمكن تقنيات الإعلام الجديدة من الوصول بالحقائق المختلقة، إلى كل حقيبة يد وكل جيب وحتى على كل كمود غرفة نوم، وراحة يد كل مواطن، من خلال تسويق الهواتف الذكية.

تبدو لنا أنماط الخداع عند أربوثنوت، مقارنة بأكاذيب القرن الحادي والعشرين، بريئة وفي منتهى السذاجة. ولكن، كيف كان بوسعه تخيل أن تقنيات الإعلان في حقبة ما بعد الثورة الصناعية ستوضع في خدمة الدعاية السياسية؟ وعلى الرغم من أنه قد يبدو لنا ذلك أمرًا عاديًّا نسبيًا، كان هناك عصر، لم يكن المرشحون يمضون بصحبة فريق تسويق marketing، تنحصر مهمته فقط في دراسة ميول ناخبيه، كتابة خطابات سياسية موجهة إليهم، استكشاف طرق كسب الأصوات بالمخالفة لمحتوى البرنامج الانتخابي، صياغة استراتيجيات، وشراء مساحات في وسائل الإعلام، تحليل نقاط الضعف لدى الحزب المعارض، تعليم مرشحه كيف يتحدث، وكيف يومئ، وماذا يقرأ، وكيف يقف أمام الكاميرات، ما لا يجب أن يقوله، ماذا يلبس، أو كيف يتزين. ربما حير مثل هذا الإفراط في التحايل والمحاكاة العبثية إنسان عصر التنوير. من كان

يتصور حينها أن التقنيات الرقمية ستكون قادرة على تبديل الواقع؟ المواطن المعاصر لا يستطيع حتى الوثوق فيما يراه بأم عينيه. وفي شبكة الشبكات ومساراتها المتشعبة التي لا تنتهي، تتعايش كل الحقائق وأضدادها دون إزعاج بعضها بعضًا.

تتوافر لدى الحكومات في العالم الحر، وسائل متعددة أكثر من أي وقت مضى على مر التاريخ لفرض حقيقتها الخاصة وعلى هذا النحو لم تعد مضطرة إلى اللجوء إلى القوة. يعد تنوع وسائل التلاعب التي في متناول يدها لا حدود له؛ ومع ذلك فكلها مقبولة وفقًا لفرضية أولية هامة وهي: أن المواطنين قبلوا هذا التلاعب بوصفه أمرًا طبيعيًا لا مفر منه. وأصبح تعقيد المجتمعات المتقدمة في حد ذاته مصدرًا آخر للخداع، نظرًا لأن الوفرة الزائدة في المعلومات والواقعية المفرطة تربك الأفراد وتسهّل وجود شبكة كثيفة لإخفاء الخداع. ويعد من شبه المستحيل تتبع أثر كذبة، أُحكِم تدبيرها، عبر الشبكة العنكبوتية المتشابكة لواقعنا الجديد. وأزيدك من الشعر بيتًا، حتى لو ضُبِطت حكومة ذات مرة وهي تكذب، فكأنه لم يحدث أي شيء أيضًا*.

---

* أطلقت الولايات المتحدة وبريطانيا عام 2002 حملة دعائية (سوف تنضم إليها إسبانيا لاحقًا) تؤكد وجود أسلحة دمار شامل في العراق. وعلى الرغم من أنه وفقًا لتقارير لجنة الاستخبارات المشتركة نفت "وجود أي دليل على الإطلاق على أن صدام حسين يمثل أي تهديد أكبر مما كان عليه عام 1991، عقب حرب الخليج الأولى"، قرر قادة هذه الدول مواصلة حملتهم. وغزوا العراق عام 2003 بهذه الحجة وخلعوا صدام حسين. كانت هذه الحكومات الديمقراطية بحاجة إلى مسوغ لتهديد السلاح، لأن فرض تغيير نظام دولة أخرى كان سببًا غير مقبول قانونيًا للغزو. أعقب الغزوَ حربٌ استمرت لثماني سنوات. لم تظهر أسلحة الدمار الشامل مطلقًا. وفقًا لتقرير مركز النزاهة العامة، أصدرت الإدارة الأمريكية برئاسة بوش إجمالي 935 تصريحًا كاذبًا بين عامي 2001 و 2003، بشأن تهديد العراق المزعوم للولايات المتحدة. تسببت الحرب في

على المدى المتوسط، طوّرت الديمقراطيات الأدنى هياكل قسرية تجعل من المستحيل على المواطن اتخاذ أي قرار سياسي مهمًّا كان أو غيرَ مهمّ. وتستند غالبيتها إلى ما يُعرف بالحزبقراطية، وهي تشويه للديمقراطية، بصورة تجعلها تقتصر فحسب على حرية الناخبين في الإدلاء بأصواتهم دائمًا إلى نفس الأوليجارشية الحزبية. تحتكر هذه الأوليجارشية بقوة الأمر الواقع على السلطة، محاكية ديمقراطية ظاهرية من خلال تداول للسلطة أشبه بلعبة الكراسي الموسيقية؛ بمعنى، أن المواطن يستطيع فحسب الاختيار بين (أ) أو (ب)، بدون أن يكون أيٌّ من الخيارين مستحقًّا أو مُرضيًا. وكأن هذا التقليص للهامش السياسي لدى المواطنين غير كافٍ، علاوة على ذلك، في حالة عدم وفاء حكومة منتخبة بكافّة وكل بند من بنود البرنامج الانتخابي، وهو الشيء الوحيد الذي يصوت له المواطن كل أربع سنوات، فكأنه لم يحدث أيُّ شيء أيضًا. فقد عُطِّلت آليات الرقابة الرأسية. ونظرًا لأن الطبقة السياسية تحتفظ لنفسها بكافة الصلاحيّات في سنّ القوانين، فإن هذه التشريعات لن تأتي ضد هذه الأوليجارشية على الإطلاق، بل ضد المواطن الذي ينتقد النظام. لن تُسن قوانين، تُدين، على سبيل المثال، القيادات السياسية الذين اتحدوا مع القوى الاقتصادية من أجل مصلحتهم الخاصة وضد الصالح العام؛

كارثة إنسانية وانتهاكات لحقوق الإنسان ومصرع أكثر من مليون شخص غالبيتهم من المدنيين العراقيين. وعلى الرغم من كل هذا، وحتى اليوم، لم يكن لهذه الكذبة إلى الآن أي عواقب جنائية أو سياسيّة على أيٍّ من رؤساء الحكومات الثلاث المتورّطين فيها. (المؤلف)

في المقابل، سوف تلاحق هذه القوانين بكل القوة الجبرية للدولة، المواطنين الذين يحاولون تسليط الضوء على فساد النظام من خلال العصيان المدني. يُعدُّ النظام، بكل تأكيد هو الحقيقة، وفقًا لهذه النماذج.

بالفعل، السياسة هي فن إقناع الشعب بأباطيل صحيّة، لأجل غاية نافعة. لكن، غاية نافعة بالنسبة لمن؟ لم يقل أحد أنها نافعة للشعب ذاته. تعدُّ الغاية النافعة للأكاذيب في الديمقراطيات الأدنى، مجرد منافع ومكاسب السياسيين الشخصية.

ويكمن الفرق بين هذه الديمقراطيات الضعيفة غير التشاركية والاحتمالية السياسية الثالثة، الخاصة بالنماذج الشمولية، في أن الأخيرة تمارس العنف ضد المجتمع بأسره بصورة أكثر دموية وتعميمًا. وعلى نقيض النماذج السابقة، على أقصى هذا الطرف الآخر من الميزان، لا يكاد يوجد ما يجبرها على إخفاء من يقرر ما هو حقيقي وما هو زائف.

بالرغم من ذلك، يجب ألا ننسى أنه ما زالت متبقية سمة أساسية أخرى لتعريف جميع الشموليين وهي: أنه في هذه الأنظمة لا أحد حرٌّ في اختيار أكاذيبه الخاصة.

تفرض الدولة الشمولية أكذوبة وحيدة. تحاول السيطرة بصورة مطلقة على الصحافة ووسائل الإعلام، بغرض التدخل في كل رواية تُصاغ حول الواقع وأحداث الحاضر. وتحاول في الوقت نفسه الوصاية على الأدب، الفنون، والرموز، بوصفها

أعظم صنّاع الخيال. وسوف تستخدمها بمثابة خلفية لصياغتها الخاصة في إعادة كتابة التاريخ. وأخيرًا، يكمن أقصى طموح الشمولية دائمًا في تحطيم الحرية الفردية لدى كل رجل وامرأة، وهدم الحاجز الواقي لأكاذيبهم الخاصة، ومحاولة تقرير شكل فنتازياتهم وأحلامهم وخيالهم الشخصي أيضًا.

لا ينبغي لأحد أن يفرض علينا وهمًا. نحن جميعًا لدينا الحق في اختيار الأكاذيب التي نصدقها.



التجارة والاقتصاد

ربما كان أوليفر ستون، هو أكثر من ساهم، بفيلمه "وول ستريت" (١٩٨٧) في رواج قراءة كتاب صن تزو "فن الحرب" بين رجال الاقتصاد. في التسعينيات، وبشكل غير متوقع، سوف يتبنى قطاع واسع يضم سماسرة البورصة والمستثمرين وأصحاب شركات، ورواد الأعمال والوسطاء الطموحين المتحمسين لأن يصبحوا سماسرة في البورصة، غير المعتادين على قراءة أي شيء بخلاف مؤشرات سوق الأوراق المالية ودراسات الربحية، سوف يُتبنى هذا العمل الذي يعود لآلاف السنين ويعتبر مرجعية رئيسية في التكتيكات الحربية. وسيظل على هذا النحو حتى يومنا هذا، وهو ما يعطينا فكرة حول الأسس النظرية والإنسانية التي يتمتع بها رجل المال العادي. وبصفة خاصّة المفهوم العام الذي انعكس على الاقتصاد في القرن الماضي. ومع ذلك، كانت الأكاذيب موجودة بالفعل في أيسر ممارسات التجارة، قبل وقت طويل من ارتباط الاقتصاد واستراتيجية الحرب بهذه الصورة الوثيقة.

أُجريت بالفعل أول أشكال المقايضة، بين جماعات متشاحنة؛ ولا توجد حالات موثّقة لتبادل تجاري داخل نفس الجماعة. لم تستطع مخيلة البشر، عندما بدأ يتوافر لأول مرة، لدى التجمعات البشرية الأولى من الرعاة-المزارعين، وقت فراغ، تجنب الانخراط في تصنيع منتجات جديدة، اختراع أدوات وآلات، وابتداع أوانٍ خزفية، وأوثان وأدوات فنية. وعلى هذا النحو، أسفر خيالنا الفائض الزائد عن الحد عن مواد فائضة عن الحد، ليست من أجل الاستهلاك المباشر، وسوف نطلق عليها لاحقًا الثروة. كان يجري توزيع هذه الممتلكات بالتساوي داخل التجمع البشري الواحد في ذلك الوقت، ولم يكن هناك وجود للملكية الفردية، ومن ثم سوف يُستغل هذا الفائض في الحصول على أشياء أكثر فائدة من عشيرة الخصم. وسوف تُعقد المقايضات الأولى على هذا النحو، في سياق من عدم الثقة والمنافسة، وسوف يسعى كل طرف منهما للحصول على أكبر قدر من المنفعة الممكنة على حساب منافسه، محاولًا ألا يتعرض للخديعة وأن تسير المفاوضات لصالحه.

يحكي هيرودت أن القرطاجيّين رسوا ببضائعهم على سواحل ليبيا، على مسافة بعيدة للغاية من أعمدة هرقل (على اعتقاد بأنهم وصلوا ساحل الذهب في غانا، ويتصورون أن ليبيا هي أفريقيا وأن أعمدة هرقل هي مضيق جبل طارق)، وتركوها هناك ملقاة على رمال الشاطئ. ثم عادوا إلى مراكبهم وأعلنوا عن وجودهم من خلال عمود دخان. اتجه السكان الأصليون

نحو ساحل البحر، فأحصوا البضائع، وتركوا إلى جوارها الذهب الذي ارتأوا أنه سعر السداد العادل. ثم ابتعد السكان الأصليون. ثم عاد القرطاجيون إلى اليابسة ودرسوا العرض. كانوا يأخذون الذهب ويرحلون في حالة القبول؛ وفي حالة عدم القبول، يتركونه مكانه، ويتركون بضائعهم أيضًا، ويعودون إلى سفنهم مرة أخرى انتظارًا لزيادة العرض. أتاحت هذه الطريقة من "التجارة الصامتة" أو "المقايضة بدون حوار" إجراء عملية المساومة بين شعوب من لغات مختلفة. ومن المحتمل تكرار نظام مشابه منذ عقود سابقة على القدرة اللغوية ذاتها؛ إنه نفس الأسلوب العالمي الذي يستخدمه شعب الموبوتي (الكونغو) مع شعب البانتو (جنوب أفريقيا) لمقايضة اللحم بالموز، سكان الإسكيمو في آلاسكا، أو قبائل البولو مع البجيمي عبر أدغال جنوب الكاميرون. ويسود الشك مستهل ظروف العملية، ويتوقع أي طرف منهما أن يكون عرضة للخديعة. ولا ينقذهما من الغش إلا محاولة إقامة علاقات طويلة المدى. وفي حالة حدوث العكس، تصبح الهديّة الاستهلالية المودعة بالقرب من بلد غريب، على أمل أن يكون الرد بالمثل، مجرد الطُّعم الذي ينصب به المحتالون شركهم.

مارس الفينيقيون التجارة عبر كافة أرجاء البحر المتوسط، من خلال اتباع معاملات نزيهة وإقامة علاقات مستدامة، وفي الوقت نفسه، كانوا تجّار رقيق أيضًا: والذين قبل السقوط بدورهم في هذه الوضعية (الرقيق)، لم يكونوا سوى أغراب

في منتهى السذاجة، بقوا على الأرجح بجوار الطعم بدلًا من الانسحاب والانتظار، وكانوا الأسهل وقوعًا في فخ الخديعة. على النقيض من ذلك، أقام الفينيقيون أسواقًا في المناطق الأكثر أمانًا، حيث اهتموا بالاستقرار وإقامة علاقات مع السكان المحليين. وقد شاع استخدام الخداع والمساومة في جميع الأسواق السابقة على ظهور النقود، مثل المصرية والصينية والفينيقية والإفريقية. سعى التاجر دومًا إلى بيع منتجاته مقابل أعلى عائد ممكن، واقتضى هذا بالضرورة أن يحدد لها قيمة أكبر من قيمتها التي هو على دراية بها. سوف يجد المشتري نفسه مضطرًا للمساومة، مستخدمًا لغة الإشارة باليدين في حالة عدم معرفة اللغة، عارضًا قيمة أقلّ من القيمة التي يعلم أن البضاعة تستحقها. سوف يحاول البائع عرض البضاعة ويجعلها على أحسن صورة ممكنة، واضعًا في المقدمة الأكثر طزاجة أو بريقًا، ويخفي المعطوبة وراءها. سوف يبالغ المشتري في عيوب أي بضاعة لكي يتمكن من استمالة المقايضة لصالحه. سوف يرفع التاجر بأعلى صوت محاسن بضاعته، مشيدًا بمميزاتها بقدر استطاعته، ليستهل بذلك بواكير أنشطة أساليب الدعاية البدائية.

لكن فيما بعد، عندما تبدأ ثروة المجتمعات الزراعية الأولى في التراكم لتنحصر بين أيدي قلة منها، سوف ينتهي تقسيم العمل الذي تحدد مع ثورة العصر الحجري الحديث وتبدأ في التشكل وفقًا للثورة الصناعية، وعلى إثرها يتزايد أكثر

فأكثر تراكم الثروة والتفاوت بين البشر، حينئذٍ سوف تظهر من البنية الاقتصادية التحتية، بنية فوقية خرافية تضم (مضاربين، منظرين، بنى سياسية، تشريعية، قهرية) سوف تبدو وكأنها اكتسبت وجودًا مستقلًا. ولن يتمكن أي شخص بعد الآن من السيطرة عليها مطلقًا.

سوف يعدُّ ضربًا من الخيال أن يكون لدى هذه الطبقة الفوقية ثقلٌ في حياة البشر أكثر من أي شيء آخر محدد.

وسوف يتمخض عن الطبقة الفوقية، في بداياتها، الطبقات الاجتماعية. وسوف تختتم بطبقة الصيارفة والمضاربين. بمعنى، إمكانية حدوث تبادل رأس مال مجرد بين شركات، وشركات متعددة الجنسيات أو حكومات مجردة، سوف يستتر وراءها بعض الأفراد بعينهم.

وسوف ينأى الاقتصاد القائم على المضاربة تمامًا عن هؤلاء الرجال الذين يتاجرون بأحجار الكوارتز، أو الملح أو الذهب أو النحاس أو بذور الكتان أو الزيت أو الخيول، ولكن سوف يظل دائمًا بحاجة إلى القيمة المجردة لحجر الكوارتز، والملح، والذهب، والنحاس، وبذور الكتان والزيت والخيول الأصيلة، سواء المزروعة أو المستخرجة بأيدي الأشخاص الحقيقيين. وكل ما قد يمتلكه هؤلاء الأشخاص. بما في ذلك الأرض التي يعيشون عليها. لأنه حينئذٍ، سوف تكون الأرض، والماء، والهواء، والطاقة مملوكة لشخصيات اعتبارية، شركات ودول. يستطيع الاقتصاد القائم على المضاربة أن يرفع من قيمة

الأرض التي تعيش عليها، لدرجة أن تحتاج للعمل طيلة حياتك لكي تسدّد ثمنها. كما يستطيع اقتصاد المضاربة الخسف بقيمة عملك، لدرجة احتياجك لأن تجمع محصّلة كدِّك في الحياة مع محصلة كدِّ حياة شريكة حياتك لكي تتمكن من سداد قيمة المنزل الذي تسكنه. وفي النهاية، يستطيع اقتصاد المضاربة، خسف قيمة العقار الذي دفعتما فيه كدّ حياتين كاملتين، لدرجة أن أبناءكما لا يرثون سوى المزيد من الديون التي لن يقدروا على سدادها.

من خلال كذبته الكبيرة، يستطيع المضارب المالي، الذي يتحرك كسمكة في الماء داخل البنية الفوقية الخرافية الاقتصادية والسياسية والتشريعية، أن يعيش مجّانًا حياة مترفة مرفّهة بدون حتى أن ينتج أي شيء على الإطلاق. ليس عليه أن يفعل أي شيء على الإطلاق سوى الكذب. ولا يتعين عليه حتى الالتزام بدوام عمل محدّد والكذب على مدار ساعات طويلة يوميًّا. يكتفي فحسب بالكذب لدقائق معدودة من آن لآخر، لكي يقفز أو يهبط السعر الوهمي للكتان، أو الزيت أو الخيول الأصيلة المرباة والمستولدة بعرق أشخاص حقيقيين. سوف تذهب أرباح الشراء أو البيع الوهمي، التي تجري في أسواق وهمية، عندما يقفز السعر، لصالح المضارب. أما عندما يهبط السعر، فربما يحصل المضارب على أرباح أيضًا من البيع إلى وسيط رابع أو خامس، بينما يفلس المنتج الحقيقي للبضائع الحقيقية. ويعجز ربما عن سداد فواتير المياه، التي

أصبحت الآن مملوكة لآخرين. أو من المحتمل أن يعجز عن سداد الضرائب المفروضة على الأرض والشوارع، والتي صارت مملوكة لآخرين، وربما يفقد منزله، الذي طالما كان مملوكًا لهيئات مصرفية. وربما انتزعوا منه أولاده. وربما ينتهي به الحال كومة عظام في السجن.

سوف يتساءل حينئذٍ، ذلك الإنسان المحطم بفعل تواطؤ الحكومات، لماذا لم تعد محاصيله من الكتان أو الزيتون، التي كانت مربحة حتى الأمس القريب، مفيدة بالنسبة لأحد على الإطلاق. كيف يُعقل هذا، إذا كان لم يفعل أي شيء سوى الاستيقاظ مبكّرًا والعمل من طلوع الشمس لغروبها، مثلما فعل أبوه وجدُّه من قبله. ما هو التغيير الذي طرأ لكي يحدث هذا؟ ألم يعتن، كما اعتاد أن يفعل دائمًا باختيار البذور والسماد؟ ألم يكن الطقس جيِّدًا هذا العام وكان المحصول وفيرًا؟ ألم يبع لنفس المشتري الذي يعرفه منذ نعومة أظفاره؟

في الواقع، يجب أن يسأل نفسه سؤالًا آخر. هل يمتلك المنتج الحقيقي للبضائع، أي سلطة قرار على الأكاذيب التي تُحاك حول العمل الذي أفنى عمره من أجله؟ مطلقًا. ليس لديه حيلة على الإطلاق إزاء أكاذيب سوق الأسهم.

يمتلك المزارع سلطة للتدخل في البورصة، بنفس القدر الذي يتمتع به المواطن حيال القرارات السياسية في ديمقراطية زائفة. فلماذا إذن يتعين عليهم تحمل مسئولية قانونية تقع على عاتق آخرين؟

دعونا لا نخدع أنفسنا. ليس لمجرد أن أكذوبة المضارب المالي الكبرى محصّنة بأدوات أسطورية فعالة، مثل علاوة المخاطر، سعر الفائدة، ائتمان الرهن العقاري، شروط الحد الأدنى، وشروط التخلف عن السداد، الدين العام، أزمة السيولة، الإنقاذ المالي للبنوك أو التضخم. بل لأنها كما سبق أن ذكرنا تعتمد على تواطؤ هؤلاء الذين يخترعون القوانين.

موجز تاريخ الكذب

كُتِب على الإنسان، تزييف الواقع في عقله منذ سلوكه العقلاني الأول. وعلى هذا النحو فسوف تتأسس جميع الأنشطة الخاصة بالجنس البشري، على الكذب، كما رأينا حتى الآن، وهو ما سوف يساعد على خلق البنية الثقافية الوهمية الخارقة التي تطفو فوق رؤوسنا.

ومع ذلك، يوجد بين أنماط التزييف البشري المتعمدة، واحد على الأقل ليس موجهًا إلى عالم الفرضيات، بل إن الغرض منه هو اختلاق أنماط محددة من التدليس.

سوف يلجأ خبير التدليس للتقليد لكي يمرر أعماله على أنها أعمال أخرى، ولكن، كل ما هنالك، أننا سنعُدّ الأعمال المقلدة، حقيقية. وسوف تتعدد دوافعه بتعدد مجالات سلوكياتنا: الدينية، الاقتصادية، الحربية، السياسية، بالإضافة إلى الفنية، كما سنرى لاحقًا.

سوف تنشأ أولى هذه الفرضيات، بمجرد أن يتمخض التفكير الأسطوري عن ديانة، واكتسابها العدد الكافي من

الأتباع. سوف تحتاج ديانة مبتدعة للتو إلى تقديم براهين فورية ملموسة لمعتنقيها، تمهد أمام المتشككين عملية التحول من المادي إلى الميتافيزيقي. ولهذا السبب، عكفت المسيحية البدائية وبصورة محمومة، منذ القرن الأول من تاريخها، على صياغة نصوصها المقدسة التي تميّزها عن اليهودية. ستتابع لاحقًا غربالها الطبيعي الخاص بصراعات السلطة: لقد أقر الحاخامات اليهود في القرن الثاني الميلادي تشريعهم الخاص، معترفين في الكتاب المقدس اليهودي التناخ (توراة- نبيئيم- كتوبيم) أو الإنجيل العبري، ببضعة كتب فحسب سابقة على المسيح؛ على العكس من ذلك، ضمت الكنيسة الكاثوليكية، في القرن الرابع، الأناجيل الأربعة، إلى هذه النصوص من العهد القديم، معتبرة أنها تقدم رؤية جلية لمعتقداتها، ورفضت ما عداها من نصوص. أي أنها اعترفت بشرعية أربعة فحسب، واعتبرت ما يربو على خمسين إنجيلًا أخرى مهرطقة، وهي التي سوف تطلق عليها منذ تلك اللحظة "الأناجيل المنحولة" أو (الأبوكريفا). ومن حيث المبدأ، فإن مصطلح "أبوكريفا" مشتق من المقطعين أبو (apó) وتعني البعيد، وكريبتوس (kryptos) وتعني المخفي، ليشير فحسب إلى دلالات على ما هو سريّ، مخفي، محجوب عن الأنظار، على الرغم من أن الكنيسة سرعان ما ستستبدل معناه ليصبح كل ما هو زائف. ومع ذلك، لو توقفنا عند كل ما يتعلق بمؤلفيها، فسنجد أن جميع الأناجيل تعد أبوكريفا، لأنها دُونت من قبل أشخاص مجهولين، ووقعت بأسماء آخرين. أما فيما يتعلق بالنصوص، وأنها مُوحاة من عند

كيان خارق للطبيعة، فتعد جميعها زائفة. منحها مرور الزمن فحسب، سمة واحدة على الأقل، تتيح الحديث عنها بوصفها أصلية: ألا وهي، المختصة بالمعالم التاريخية.

بدأت تظهر أيضًا خلال تلك القرون الأولى من المسيحية، أنماط أخرى من الأشياء، وهي رفات القديسين. وفي خضم سعيهم للحصول على الاعتراف بشرعيتها، بدأ رجال الدين الموقرون مرحلة التجميع التي كان لها غرض مخيف إلى حد ما: تخزين أي جزء، مهما كان ضئيلًا أو هامًّا، من رفات أجساد القديسين، وكذلك أي قطعة ثياب أو أثر يمس جسد أحد القديسين. كان التبرك هو الغرض من هذه الرفات، ولكن ما لبثت أن اكتسبت علاوة على ذلك صبغة تجارية. ظهرت على الأرجح حينئذٍ، أغراض ستتحول إلى أولى عمليات التدليس واسعة النطاق في التاريخ. فقد تراجع الوازع الديني للمرتبة الثانية لصالح التدليس، الذي لم يهتم إلا بالقيمة التجارية فحسب. كان هناك حجاج وتجار حولوا هذه الصفقات إلى وسيلتهم لكسب العيش. وظهرت أديرة مكرّسة بالكامل لإنتاج وتصدير الرفات المقدس. وفُرض على مراسم الطقوس الدينية، تقليد إضافة الزيت المبارك الذي كان مشتعلًا في الأماكن المقدسة بالقدس، أو في مشكاوات مقابر القديسين والشهداء. وتضاعفت الزيوت المقدسة. كما ظهرت أيضًا تنظيمات عسكرية مسيحية، مثل تنظيم فرسان المعبد، الذين كانت بداينهم حول فكرة إخفاء رفات مقدس، وانتهى بهم الحال للمتاجرة به على طول البحر المتوسط ليصبح مصدرهم

المالي الرئيسي؛ وزعوا وباعوا الآلاف من أمبولات الزيت المقدس، وقِطعًا من تاج الشوك، وخشب الصليب الحقيقي. بلغ انتشار قطع الصليب المقدس الأصلية المزعومة، الذي يفترض أن المسيح صلب عليه، خلال العصور الوسطى، والقرون التالية، حدًا دفع كالفن* لأن يحتج في خطبته بعنوان "مقدسات الموت" عام ١٥٤٣، قائلًا: "إن شئنا تجميع كل ما عُثر عليه، فسنجد ما يكفي لملئ سفينة ضخمة.

يشهد الإنجيل بأن الصليب يمكن لرجل واحد أن يحمله. يا لها من وقاحة أن تملأ الأرض بهذه الكمية من شظايا الخشب التي لا يستطيع ثلاثمائة رجل حملها". أما مسامير الصلب، والتي لا تعدو أن تكون بحال من الأحوال أكثر من ثلاثة، أو أربعة حسب الروايات الأكثر سخاء، فقد توالدت مثل خشب الصليب. وتوجد أكثر من دزينة من الكأس المقدسة التي شرب منها المسيح في العشاء الأخير. يوجد في كل من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا فحسب، سبعة عشر كفنًا مقدسًا. كما انتشر الحليب الذي أرضعت منه مريم العذراء طفلها على نطاق واسع بين الكنائس والأديرة أثناء العصور الوسطى، إلى حد يدعو للتساؤل من وفي أي ظروف أدرَّ كل هذه الكميات. كما

* جان كالفن (10 يوليو 1509 – 27 مايو 1564): عالم لاهوت وقس ومصلح فرنسي قاد حركة الإصلاح البروتستانتي، ويعد من المساهمين الرئيسيين في تطوير المنظومة اللاهوتية المسيحية التي دُعيت فيما بعد بـ"الكالفينية"، نشر عام 1536، "تأسيس الديانة المسيحية"، وكان العمل عبارة عن دفاع عن عقيدته وبيان حول الوضع المذهبي للإصلاحيين، مما جعل الكنيسة الكاثوليكية تعده مهرطقا. وقد انتشرت العديد من الكنائس والأبرشيات الإصلاحية، التي تنظر إلى كالفن على أنه المفسر الرئيسي لمعتقداتها، في أنحاء العالم.

تم إحصاء إثنين وسبعين إصبعًا ليوحنا المعمدان. بل وأكثر من ذلك، وفقًا لعدد الكنائس التي تعرض الرفات المقدس المثبت أصالته والذي يشمل جمجمته الحقيقية، يمتلك هذا القديس ثمانية وعشرين رأسًا بالتمام والكمال.

اكتسب الطلب على الرفات المقدس أبعادًا جعلت من الصعب تلبيتها. ومن ثم، حتى تكون التجارة مربحة حقًّا، مع الأخذ في الحسبان أيضًا القطع المهمة، اقتضى الأمر إجراء التجارة بالجملة لعناصر أخرى كان إنتاجها أسهل، والتحقق من أصالتها أكثر صعوبة: برادة أظافر أي قديس صُلب، أكياس التراب الصغيرة من أي قبر مقدس، قطع القماش من مسوح الشهداء، الشعر، الأسنان أو قلامة أظافر حتى آخر حَبر. يعتبر المقابل في أيامنا لمثل هذه الأنشطة المدلسة هو صناعة حقائب، نظارات شمس، عطور وملابس من علامات تجارية مقلدة، بغرض بيعها في كافة أنواع المراكز التجارية وأكشاك الباعة الجائلين والأسواق الشعبية. ولكن، بين الحدث الرئيسي الأول والأخير، تمكن تاريخ التدليس من أجل أغراض اقتصادية، من العثور على العديد من طبقات الحشو. فمن جانب، وبصورة شبه متزامنة، بدأ تزييف النقود ذاتها. في البداية، ونظرًا لأن النقود كانت لها قيمة بذاتها حسب المعدن الذي ضُربت منه، كان يكفي معايرة وزنها لمعرفة ما إذا كانت مصنوعة من معادن أقلّ قيمة، أو إذا كانوا قد بردوا أطرافها محاولين اختلاس القليل من المعدن الثمين. وظلت باقية حتى وقت قريب، عادة عض قطع النقود للتحقق من إذا كانت

ستنثني حوافها. أصبحت عمليه تزييف النقود، مع ظهور أوراق البنكنوت، والتكنولوجيا الحديثة، أكثر تعقيدًا، ولكن هذا لم يحُل دون ترويج نحو مليون ورقة بنكنوت مزيّفة سنويًا في جميع أنحاء العالم. في السياق ذاته، زُوِّرت أيضًا وثائق ألقاب نبالة، وصكوك ملكية، وعقود، وخطابات ضمان، وخطابات توكيلات، وصايا موتى، وخطابات اعتماد. كذلك كان الحال، فيما يتعلق ببعض الكتب، بسبب ندرتها، أو قدمها أو لأنها الفريدة من نوعها لأن قيمتها بدأت ترتفع، كما استُبدِلت مهنة الناسخ شيئًا فشيئًا بمهنة المُزوِّر: للمخطوطات النادرة، أو المصورة، أو المنمنات المنسوخة يدويًّا في السنوات السابقة على اختراع الطباعة. وأُنفقت ثروات حقيقية بين دوائر جامعي وعشاق الكتب، مقابل بعض المجلدات. وصل الأمر في بعض الأحيان، أن فاقت قيمة المنتجات المقلدة بسبب ندرتها النسخ الأصلية.

حدث أمر مماثل مع قطاع آخر هام بالنسبة للمقلدين الباحثين عن الثراء: تزوير الأعمال الفنية. هناك من يؤكدون أن المزور المجري الشهير المير دو هوري (باع أكثر من ألف لوحة مزورة، وقدمه أورسن ويلز في السينما من خلال سيناريو فيلمه الوثائقي «تزوير، ١٩٧٣»)، والذي كان مضطرًا لأن يرسم أسوأ من مستواه عن عمد، لكي يبدو عمله المزور على هذا النحو أكثر شبهًا بالعمل الأصلي. تمكن دو هوري من بيع لوحة مزورة لهنري ماتيس لمتحف فوج للفنون التابع لجامعة هارفارد والمعروف بتدقيقه الصارم. وبدون أدنى

شك، لو كان قد وُلد في عصر النهضة، أو في أي حقبة أخرى تقدر الفن بوصفه محاكاة صامتة، لكان حاله أفضل بكثير مما كان عليه. ولكان كذلك حال هانز فان ميرجرين، والذي تمكن أيضًا من بيع نسخة مزورة من لوحة «تلاميذ عمواس» لفيرمييه إلى متحف روتردام. على العكس من ذلك، ولد كلاهما في وقت الحرب العالمية الثانية. أوقف النازي دو هوري بتهمة مزدوجة: يهودي ومثلي الجنسية، وأثناء الاستجواب، كسر الجستابو ساقه، وتمكن لاحقًا من الهرب من المستشفى. وانتحر في النهاية، عقب سنوات من الاتهامات والملاحقة عبر نصف الكرة الأرضية، والتعرض للاستغلال على أيدي محتالين آخرين، الذين دفعوا له الفتات مقابل مبيعات أعماله بالملايين. من ناحية أخرى، قادت الصدفة مؤسس الجستابو القائد هرمان جورينج، لاقتناء إحدى اللوحات الفنية المنسوبة لفيرمييه مقابل ٨٥٠ ألف دولار، من تزوير ميرجرين. ومن ثم، فإنه عقب انتهاء الحرب، اعتُقِل هانز ميرجرين على يد مواطنيه، بتهمة تقديم التراث الوطني الهولندي إلى الألمان. لما ضاق الخناق على المقلد، اضطر للاعتراف بأن تلك اللوحة وكثيرًا غيرها لم تكن سوى أعمال مزورة رسمها بيده. وبالرغم من ذلك لم يصدقه أي من خبراء الفن الذين شاركوا في القضية: تلك اللوحات كانت أصلية. لم يتبق أمام ميرجرين اليائس سوى سبيل واحد: تقليد فيرمييه مجددًا أمام أنظار جميع الشهود غير المصدقين، وهو ما سوف يبرئه نهائيًا من تهمة التعاون مع العدو ويعتق رقبته من الإعدام. أما ما لم يتصوره،

عندما أدان نفسه بالاحتيال، وهو ما سوف يؤدي للحكم عليه بالسجن، فكان عدم تحمل قلبه للمحاكمة.

ومع ذلك، لم يكن هناك أي غرض فني لأي من هذه الأعمال الفنية المزورة، بل كانت مجرد وسيلة ليكسب بها الفنانون الذين لم يحالفهم الحظ عيشهم. يعد بيع منحوتة ليست يونانية على أنها كذلك، محاولة احتيال مالي، حتى لو كان نحاتها هو مايكل أنجلو. وبالفعل، فإن مايكل أنجلو قبل اقتناء الكاردينال رفائيلي ريارو لعمله "كيوبيد نائمًا"، كان قد اتبع النصيحة التي قدمها له لورنزو بييرفرنشسكو دي ميدسيس الذي قال له:

– إذا نجحت في إضفاء مظهر عليه يوحي بأنه كان مدفونًا لفترة طويلة، فبإمكاني إرساله إلى روما، حيث سيتعاملون معه على أنه قديم وسيكون بوسعك بيعه بشكلٍ أفضل بكثير.

وهكذا فعل. دفنت المنحوتة وعولجت لكي تبدو قديمة، ودفع فيها الكاردينال في النهاية نحو مئتي دوقية. ومع ذلك، فإن تاجر الفنون الذي تولى الصفقة، لم يرسل إلى مايكل أنجلو سوى ثلاثين فحسب: وتقاضي الباقي بمثابة عمولة لأنه اكتشف أن في الأمر عملية احتيال، على الرغم من أنه بمرور الزمن أدت تلك الصفقة إلى إضفاء مزيد من الثراء على الفاتيكان الثريِّ بالفعل.

طوال فترة الحرب العالمية الثانية، ومع إرهاصات حقبة ما بعد الحداثة، لم يقتصر التزوير من أجل الأغراض الحربية على

تكوين جيش وهمي واحد يضم دبابات، ومدافع وطائرات مطاطية من جانب الحلفاء فحسب، بل أُحصيت بالمئات عند كلا الجانبين. وبعشرات الآلاف، إذا أخذنا في الحسبان ضمن هذا القسم شتى أنواع تزوير المستندات التي كانت تقتضيها عمليات التجسس ومكافحة التجسس. كما لا يمكننا الجزم على الإطلاق بأن الرايخ الثالث كان أقل إبداعًا في هذا المجال من دول الحلفاء*. وصل الأمر بالألمان لتزوير نقود ضمن استراتيجيات الحرب وليس لأغراض ربحية شخصية. تعتبر عملية برنهارد واحدة من ضمن الكثير من عمليات القوميين الاشتراكيين السرية لهزيمة القوى المعادية، وكان الغرض منها التسبب في انهيار الاقتصاد البريطاني من خلال إنتاج أوراق نقدية تصل إلى نحو ٣٠٠ مليون جنيه استرليني، مزورة من فئات ٥، ١٠، ٢٠، ٥٠ جنيهًا. تعد هذه العملية، والتي كانت ستمكنهم من الحصول على أموال لمواصلة تغطية تكلفة حربهم، وفي نفس الوقت التسبب في فوضى مالية لبريطانيا العظمى، الأولى من نوعها التي تكرس فيها دولة مقدراتها الفنية بالكامل لصالح تزييف العملة. وبالرغم من أن العملية

* لا يجب أن ننسى، وبدون المضي لأبعد من ذلك، أن الألمان أسسوا وزارة الدعاية (1933)، والتي نجح جوزيف جوبلز في تحويلها إلى أهم آلة تزوير وتلاعب بالحقيقة. سرعان ما ستنشأ نسخ من هذه الهيئة مثل الأمانة القومية للدعاية في البرتغال (1933)، ووزارة الثقافة الشعبية في إيطاليا (1937)، إدارة التعليم الشعبي التابعة لوزارة التعليم في إسبانيا (1941)، والتي ستكون إلى حد كبير بمثابة مصدر إلهام بالنسبة إلى جورج أورويل لكي يبتكر وزارة الحقيقة. ومن المؤكد أيضًا، على الرغم من أن الجمهور سيظل متجاهلا لذلك، أن مؤلف رواية (1984)، استفاد من خبرته الشخصية في هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) ليسلّط الضوء على كيفية عمل آليات الرقابة وطرق استخدام الأكاذيب لأغراض سياسية. ولم يكن من قبيل الصدفة أن أفظع غرفة في الرواية بأكملها، والمخصّصة لإخضاع الفكر من خلال التعذيب، تحمل اسم مكتبه الخاص في هيئة الإذاعة البريطانية: الغرفة 101. (المؤلف)

سرعان ما كُشفت، إلا أن النقود المزورة كانت فائقة الجودة، لدرجة أن الحكومة البريطانية لم تجد أمامها سبيلًا آخر سوى التستر على هذا الهجوم على اقتصادها، والسماح بتداول النقود المزورة الدخيلة منذ هذه اللحظة لسنوات. وشرع البنك المركزي البريطاني، تدريجيًا في إحلال تصاميم أوراقه النقدية ومنع المزورة، والتي بيعت، حينما ظهرت بعد ذلك بسنوات في أحد المزادات، بمبالغ تفوق قيمتها الاسمية بكثير.

تندرج أيضًا ضمن أنشطة التزوير لأغراض حربية، تلك الأنشطة التي تكون دوافعها في النهاية سياسية. هل كانت أهداف المستندات المزورة التي اتهمت العراق بالسعي لامتلاك أسلحة دمار شامل عسكرية، أم كان هدفها في الأغلب التسويغ السياسي أمام المواطنين وأمام المجتمع الدولي؟ اعتادت الحكومات التي تلجأ إلى تزوير والتلاعب بوسائل الإعلام؛ عمل ذلك لتسويغ أفعالها أمام مواطنيها أو خصومها السياسيين، في حالة الديمقراطيات، أو من أجل تجانس واتساق كذبها المطلق أمام رعاياها في حالة الأنظمة المستبدة. ولكن وقبل كل شيء، طالما استعان كلا الفريقين، المتساهل والمستبد، منذ القدم وحتى الوقت الحاضر، بممارسات زائفة لبناء هويّاتهم الوطنية. وطالما كانت إعادة كتابة التاريخ هاجسًا لدى البشر ولدى جميع الشعوب، يدفعها طموح رسم صورة هوية ذاتية. ولا توجد ثقافة على الإطلاق في أي بقعة من العالم لا تستند إلى أساطير خيالية وأباطيل.

تمزج الملاحم القومية الأولى، مثل ملحمة جلجامش أو الإلياذة لهوميروس، العناصر الخيالية بأحداث تاريخية مزعومة. تتناول أناشيد البطولات في العصور الوسطى، مثل بيوولف في إنجلترا أو أنشودة نيفلونج في ألمانيا أو ملحمة السيد في إسبانيا، من خلال الأكاذيب، والإشادة بأمجاد بطل، بغرض تحويله إلى قدوة بالنسبة للمجتمع. وسيظل هذا الوضع مستمرًّا في التفاقم بصورة مخيفة، حتى اختراع القوميات، بنهاية القرن الثامن عشر. وستبدأ القوى السياسية والاقتصادية المسيطرة، في أعقاب الثورة الصناعية، في اختراع مجتمعات وهمية تخدم مصالحها بصورة أفضل. سوف يستغلّون انتشار الطباعة لكتابة تاريخ على مقاسهم، يبرز الفروق (القائمة على العرق، واللغة، والدين، أو أي سمة أخرى)، وفق أهوائهم؛ وسوف يستحضرون أبطالًا من الماضي لم يهتمّ بهم أحد على الإطلاق من قبل؛ وسوف يعيدون كتابة الأحداث، والأناشيد والأساطير الوطنية؛ مع التركيز بصفة خاصة، على إعادة صياغة قدر كبير من الجرائم التي لا تغتفر. وسوف تلجأ القوميات دائمًا، وكلما استدعت الضرورة، إلى تزوير المستندات والصور*. هذه السجلات الأساسية سوف تُعضَّد لاحقًا بمراجع جديدة، ستولد بالفعل لأجل خدمتها وسوف تتزايد بمرور الزمن. لكن

* ربما كانت أول وأشهر عمليات التلاعب بالصور لأغراض قومية تنتمي لتاريخ الاتحاد السوفيتي (والذي يعد تدوينه من ناحية أخرى بين الأفظع في القرن العشرين، من حيث التلاعب المفرط وإعادة الكتابة والتزوير). التقطت الصورة التي نحن بصددها في الخامس من مايو 1920، أثناء خطاب لينين في القوات السوفيتية أمام مسرح البولشوي في موسكو. يظهر في الصورة الأصلية، ليون تروتسكي واقفًا إلى جوار المنبر. بالرغم من ذلك، عقب وصول ستالين للسلطة، تحول تروتسكي إلى "نكرة"، لا ذكر له مثل غالبية قادة الثورة. وبالفعل، وربما باستخدام المبضع والبخاخ، اختفى تروتسكي في النهاية من الصورة. (المؤلف)

المهم هو أن تظل الجرائم التي أُسِّست عليها العداوات حاضرة دومًا، وحيَّة ومدعومة بالوثائق المزعومة. كانت القوميات كامنة في جوهر الحرب العالمية الأولى، وأساسية في صعود الفاشية والستالينية وسبب الحرب العالمية الثانية وكل حروب الاستقلال. وتفسر، بجانب الدافع الاقتصادي، والحماس الديني، عمليًا مجمل باقي الصراعات المسلحة. كما تتشارك القوميات في كافة أرجاء المعمورة دائمًا، أربعًا على الأقل من عواقبها: تعزيز سلطة الطبقة السياسية؛ زيادة ثراء الطبقة الاقتصادية المسيطرة أكثر فأكثر، وزيادة فقر الطبقات الوسطى والعمالية؛ إثارة مشاعر السخط والكراهية بين الجيران؛ وزيادة الشعور بعدم الفهم والتفاهة والسطحية بين الغرباء الأكثر بعدًا.

يتمنى المتأثر بالقومية تحت أي راية، رؤية ما يرغب في الاعتقاد به. وهو على استعداد لتبني بشكل شخصي كل الحجج التي يتصور أنها تدعم قضيته، حتى لو لم يأخذ الوقت الكافي لدراستها أو معرفة مصدرها. ولهذا السبب يعتبر ضحية هذا الخداع على وجه الخصوص، عرضة أكثر من غيره للتلاعب والتدليس.

وبناء عليه، في عالم أصبح فيه من الصعوبة بمكان أكثر فأكثر تصديق ما نراه بعيوننا، فإن السبيل الوحيد لتجنب خداع الهوية هو الوقوف على مبعدة. ومحاولة التأمل من المنظور غير الانفعالي للمراقب الغريب. والأفضل من ذلك، أن نَعُدَّ دائمًا كأمر مفروغ منه أن الجميع يكذبون.

الفن بوصفه أداة للكذب

يظهر الفن، عندما نترك لأنفسنا العنان، وفقًا لإرادة الخيال المحض، مع إدراكنا التام بأن كلَّ شيء مجرد وهم.

يعتبر الفنان هو المبدع الحقيقي للحكاية، للرمز والمجاز. ولهذا يعد الأفضل تأهيلًا للحديث عن الواقع؛ ليس من أجل تشويهه وفق هواه الخاص، وليس من أجل السيطرة عليه، أو تفكيكه محاولًا التحكم في وظائفه؛ بل من أجل الحديث عنه.

وعلى غرار التفكير الأسطوري والديني، لا يعدو الإبداع الفني أكثر من عرض آخر ناتج عن ذكائنا بوصفه سمة متطورة. ولكن كثيرًا ما يترك الفنان نفسه ينسحق أمام الكذب، ومن ثم يصبح هو تحديدًا الأقل كذبًا، بمجرد اعترافه بأنه لا يقدم أي شيء آخر سوى الخيال.

ومثل جميع البشر، فإنه يُنشِئ منذ الوهلة الأولى التي يحاول فيها إعادة تصوير الواقع، نوعًا من التدليس. في البداية من خلال إعادة التصوير ذهنيًّا، عن طريق القفزة المجازية الجديدة وصولًا للعمل لاحقًا. ومع ذلك، فإن العمل الفني

يختلف عن كافة أنماط التدليس الأخرى في أنه الغاية في حد ذاته. ويمنح الفنان، بمجرد الاعتراف بتدليسه، العمل الفني استقلاليه وهوية حصرية. وفي حالة انحراف الغاية الإبداعية عن هذا الطرح فحسب، والسعي للحصول على أي نوع آخر من المنفعة (الفنان الذي ينتحل عمل فنان آخر لكي يثري، والفنان الذي يقلد فنّانًا آخر للتفاخر بمستواه الاجتماعي، والفنان الذي يسخّر موهبته لخدمة نظام سياسي والفنان الذي يبيع نفسه)، فإنّنا بصدد الحديث عن نوع من التدليس مشابه لغيره من الأنماط.

وكذلك الحال بالنسبة للفنان الذي ينسى وهمه ويعتقد أن عمله مماثل للواقع أو أكثر واقعية من ذلك الذي يعيد تصويره، فإنه بذلك ينزلق إلى خداع الذات ويحطُّ من شأن الفن. فالواقع أكذوبة كبيرة. والفن كذب على كذب. ويجب على الفنان أن يظل واعيًا دائمًا أنه كاذب يكذب من أجل الكذب بمنتهى الصدق.

لطالما كانت غواية إعادة استنساخ الواقع أو تجاوزه شَرَك بالنسبة للفنانين عبر القرون، خاصّة أن مفهوم الفن قد انحصر، منذ رسوم ثيران البيسون على جدران الكهوف وحتى عصر النهضة، في أنه نوع من المحاكاة. أكد أرسطو في كتابه فن الشعر أن جميع الفنون نوع من التقليد، وأنها تختلف فيما بينها فحسب في الشيء الذي تقلده أو الأساليب المختلفة التي تستخدمها في التقليد. ومع ذلك، فهذا التعريف للفن على أنه استنساخ

يحمل الكثير من سوء الفهم. هناك واقعة شهيرة وتذكر كثيرًا لكلا الفنانين المنتميين للقرن الخامس قبل الميلاد، زيوكس وباريزوس، والتي وفقًا لما ذكره بيلينوس الأكبر وقعت بينهما مواجهة في إحدى المسابقات لاستيضاح أيهما أمهر. فرسم زيوكس بضع حبات عنب تكاد تكون حقيقية، لدرجة أنه عند عرضها على الجمهور، تهافتت الطيور على الأشجار القريبة محلقة فوقها لكي تلتقطها. فقال زيوكس بصبر نافد، عندما لاحظ أن منافسه لم يحرك ساكنًا لكي يزيح الستار الذي يغطي لوحته:

- ماذا تنتظر؟

ولكن عندما اقترب بغرض إزاحة القماش بنفسه، اضطر للاعتراف من تلقاء نفسه بتفوق باريزوس: فإذا كان قد خدع بضعة طيور ساذجة ببعض حبات من العنب فحسب، فإن تلك الستارة التي رسمها غريمه بمنتهى الإتقان، نجحت في خداع فنان آخر.

ينحصر فهم الحدث الفني على أنه مجرد تدريب محاكاة يسيرة، أو على أنه مقدرة خاصة على إعادة إنتاج النموذج المقلد بإتقان، في نطاق الاحترافية. ومع ذلك، كان هذا هو النهج الذي ساد خلال معظم فترات تاريخ البشرية. وقد أُضيفت بالفعل العديد من الفئات الأخرى إلى هذا المنظور الأساسي للتخفيف من أوجه القصور في التعريف، مثل الجميل، والمأساوي، والسامي، والمثير للشفقة، والساخر،

أو الكوميدي. ويبرز من بينها جميعًا الجميل، والجميل على وجه الخصوص. ومع ذلك، فإن كل هذه الفئات ومن ضمنها فكرة الجمال بكل تأكيد، تعد استبطانية ذاتية. وتعدُّ في أفضل الأحوال، ذاتية بشكل عرضي. إلا أنها تتوقف على العنصر البشري الذي يعرضها، ومن ثم تعدُّ مجرد أكاذيب أو عابرة، عندما تخضع للموضات أو نزوات المزاج، أو بداهات الأولويات والأمور العضوية، أو عندما تُفرض وفقًا لنماذج الإدراك والفهم عند جنسنا البشري.

خضع الفنان التقليدي، طوال هذه الفترة التاريخية الممتدة، للاستبداد المزدوج من قبل التقليد والجمال، وعدد لا حصر له من القيود المفروضة من كل منهما عند الإبداع. لم يكن أمامه سوى خيار وحيد، وهو إطاعة نظام كوني بدا أنه يدفعه إلى جعل الواقع أكثر جمالًا مما كان عليه، أو خلق حقيقة ثانية أكثر جمالًا من الأولى. وفقًا لهذا المفهوم الضيق، لم يكن الفن يتوقف فحسب على النوايا، وعلى الموهبة وإدراك الفنان الذاتي، بل على فكرة الجمال السائد في كل ثقافة وكل حقبة يُدرج فيها. لم يأت التحرر من استبداد الجمال حتى القرن العشرين، مع ظهور الحركات الطليعية. لم يستوعب الإنسان حتى التاريخ المعاصر أنه لا يوجد سبب يستوجب أن يكون الفن جميلًا. ولم ينتبه حتى تلك اللحظة أنه لا يوجد سبب يستدعي أن يقتصر الفن على تقليد الواقع. بل أكثر من ذلك، يعد التقليد أحد الأنماط الأساسية للتدليس، والذي لا يضيف

جديدًا أو يمثل تحدِّيًا حقيقيًّا أمام الفنان المبدع. بالطبع، لم تعد زهور عباد الشمس التي رسمها فان جوخ هي نفسها زهور عباد الشمس في عالم الواقع أو العالم الخارجي، ولكن الطريقة التي اقتحمت بها التكعيبية التطور الفني تعد أكثر علامة فارقة. يعدُّ الهدف الأول للتكعيبية هو إثبات معارضتها الصريحة لفكرة الجمال الكلاسيكية، ولهذا وصل الأمر معها إلى حد التخلص من الألوان والمشاعر عند الانطباعيين. وعلى نفس النهج ستحاول الدادائية تحطيم إمبراطورية المنطق، وفي نفس الوقت سوف تقدم من خلال الشعر والنحت كافة أنواع المواد غير التقليدية التي ستجدد إمكانيات التعبير.

لم تتمكن الحركات الطليعية من إلغاء القواعد والأوهام التي تحكم عمل الفن، لأن هذه الأوهام بالتحديد هي التي تجعل وجوده ممكنًا. ومع ذلك، أدى هجومها المباشر على المواءمات القديمة لاتساع غير مسبوق في منظومة القواعد، حرر مخيلة البشرية بشكل لم يسبق له مثيل. استكشفت الفنون خلال النصف قرن الأخير، دروبًا لم يسبقها إليها أحد من قبل، كما تعددت التقنيات الإبداعية المستخدمة في العملية أكثر من أي وقت مضى. ومع ذلك، مازالت تنتج إلى اليوم أعمال محاكية، بالفعل، ولكن هذه الأعمال فقدت مكانتها المتميزة من منظور النقد، والجمهور الذي مازال يفضلها عن غيرها، فإنما ينحو إلى ذلك فحسب نظرًا لأنه قد بقي منعزلًا عن كل هذه المتغيرات.

أما الآن فقد أصبح بالنسبة للفنان المعاصر كل ما يحلو له ممكنًا.

بالرغم من ذلك، لم يؤد اكتشاف غياب القيود إلى اختفاء القواعد على الإطلاق. من جانب، لأن الفنان ينتمي دائمًا إلى سياق تاريخي؛ كما تعايش دائمًا وحتى اليوم مع كم من الأكاذيب المتراكمة والأوهام التي تتحكم فيه، والتي سوف تتلاشى في يوم من الأيام لتفسح المجال لقواعد جديدة. ومن جانب آخر، لأن ما يميز العمل الفني عن أي عمل آخر من إبداع الإنسان (منزلي، يدوي، صناعي، تجاري)، هي بالتحديد القواعد ومجموعة النظريات التي تتمحور حوله. ولا يعد العمل فنيًا في حد ذاته، بعد تجرده من كل هذه الأوهام. فهو يحتاج إلى جماعة فنية تعتمده على هذا النحو. يحتاج إلى كيان نقدي يميزه، يتأمله، يوضح لماذا يعد فنًّا في هذه اللحظة بالذات من سياقه التاريخي، وما هي السمات التي تجعله أعلى أو أقل شأنًا من أعمال فنية أخرى غيره.

ومن ثم، فإن الفن يتطلب دائمًا فعلًا إنسانيًّا في محيطه: إلى عالمية الفنان، إلى رؤية القارئ أو المشاهد، وإلى حجج النقد. يحتاج إلى إطار إدراكي، مهما بلغ اتساعه خلال الحقبة الراهنة ومهما أخذ في حسبانه عوامل لم تؤخذ في الحسبان من قبل على الإطلاق.

ويعد وعي الفنان ذاته بالعملية الإبداعية من بين الأمور التي يتم تقييمها الآن كعوامل حاسمة في الفعل الفني. وعيه بأنه ينجز فنًّا، ومن أجل هذا فإنه يستفيد من التدليس. تحركه نزعته

الفنية، مقابل نزعته الاقتصادية، ولنأخذ على سبيل المثال، صانع المراحيض المتواضع، وإرادة التدليس لديه. يجد الفنان المتعة في إبداع أوهامه واعيًا أنها أوهام*. وأن يكون لدي مُستقبِلِي العمل الفني أيضًا القدرة على استخلاص المتعة من الكذب. يدرك من يتأمل عملًا ذهنيًا أنه يقترح عليه لعبة إعادة تفسير وبناء فوق واقع، غير موجود في لوحة أو طبيعة صامتة. لا يستطيع المستهلك الشره لمشاهد العنف الشديد في السينما، في أغلب الأحوال ألا يشيح ببصره عند حدوث موقف مشابه في الواقع، أو يغير القناة عندما تقدم نشرة الأخبار بثًا مباشرًا لمصرع أحدهم، لأن قدرة ذائقته الفنية على الاستمتاع تميز بين ما هو خيالي وما هو ليس كذلك.

تعد مرحلة ما بعد الحداثة ذاتها، بنسبة كبيرة، نوعًا من التأمل في هذا الوعي بالكذب. يبدع الفنان الكلاسيكي من خلال المجاز. أما فنان ما بعد الحداثة فيبني مجازًا فوق المجاز. وهو يعي الحالة المجازية، المؤقتة، الكاذبة وما وراء الكذب فيما يقوم به. تمثل مرحلة ما بعد الحداثة، بدون أدنى شك، قفزة نوعية ضخمة في تطور إبداعنا الثقافي. ولكن مشكلتها الكبرى

* يشير الكاتب إلى الفنان الطليعي الفرنسي مارسيل دِوشامب، (يوليو 1887 - أكتوبر 1968)؛ الذي ترتبط أعماله بحركتي الدادائية والسريالية، ويعدّه البعض أحد أهم فناني القرن العشرين، وقد ساعدت أعماله في ازدهار الفن الأوروبي بعد الحرب العالمية الأولى. وفي هذا السياق تحدى دوشامب الفكر التقليدي حول العملية الفنية، وتسويق الفن عبر أفعال هدامة. ومشهور عنه قيامه بعمل فني لمبولة وأسماه النافورة (Fountain، 1917) وهو عبارة عن قطعة من الخزف المزجج كانت في الأصل "مبولة"، تم التوقيع عليه "R. Mutt" بمعنى "R.المغفل". ويميز المؤلف هنا بين نظرة دو شامب كفنان تحركه أوهام بعينها، وبين نظرة الصانع الأصلي الواقعية للمبولة والذي كان دافعه في المقام الأول اقتصاديًا وليس فنيًا. (المترجم)

أنها ما تزال مبهورة باكتشاف ذاتها: مجاز مجاز المجاز. ولا يبدو أن بوسعها الخروج من دائرتها ونزعتها الوحدوية.

سيحتاج الأمر إلى رؤية أكبر، لا تزال غائبة عن عيون المعاصرين، مما سوف يقودنا إلى عصر جديد نستطيع خلاله المضي بالفن لأبعد من ذلك. أبعد على الأقل بالنسبة لنا. لأن الفن سوف يظل فعلًا بشريًّا أُبدع من أجل البشر. إذ لا يختلف العمل الفني بالنسبة للطبيعة -لطائر، أو إعصار يمر عبر الأنقاض، أو مهما كان النومنيون*، أو الشيء نفسه- عن أي أداة أخرى. قد يتحقق ذلك فحسب في حال وجود معبود على صورتنا ومثالنا بوسعه إدراك أفعالنا. لا يوجد مستوى مميز أو راقٍ لأي عمل من تلقاء ذاته. لأن هذا الرقي تكتسبه الأعمال الفنية بالنسبة للمجتمع الذي أُبدعت من أجله. وهو ليس أي مجتمع آخر سوى مجتمع الفن الذي يضم المبدعين، وأصحاب قاعات العرض، وتجار الأعمال الفنية وخبراء ونقاد الفن، الذين يخترعون القواعد التي تحكم الفعل الفني. سيُعد فنًا ما يقرّون بأنه فن، وسوف يكون لحكمهم وزنٌ له قيمته بالنسبة لباقي مجتمعهم. يصبح المعيار الوحيد الذي يستطيع منح العمل الفني قيمته، بمجرد الإطاحة بدكتاتوريات الجمال والمحاكاة ومحو باقي قيود المعايير الجمالية، هو حكم الفاعلين المعنيين. تقييم مختلف الأطراف الفاعلة في اللعبة وفاعلية آلة النقد التي تنشأ في محيط كل مبدع وكل عمل فني.

* النومينون: هو مصطلح فلسفي، ويقصد به ويرادفه في الاستخدام الفلسفي الشيء في ذاته، وهو مرتبط بالفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، والمقصود بالشيء في ذاته هو الحقيقة الأساسية للشيء التي تكمن وراء الظواهر. (المترجم)

الأدب بوصفه أداة للكذب

كانت فكرة التدليس، نظرًا لأنها جزء لا يتجزأ من الفن، حاضرة في تاريخ الأدب منذ نشأته.

تعُدُّ آليات المنطق، التي تُفهم على أنها تلك التي تهدف إلى التخفيف من زيف الحكاية، عناصر جوهرية في كل أنماط السرد، سواء الشفهي أو المكتوب. لأن وظيفة الشاعر لن تقتصر على سرد الأحداث التي جرت، بل على العكس، كما أشار أرسطو أيضًا في كتابه فن الشعر، ستكون وظيفته سرد تلك الوقائع التي قد تحدث وأداء ذلك بصورة منطقية. من ناحية أخرى، لا يمكننا الكفّ عن الأخذ في الحسبان أنه في العالم الإغريقي الروماني، الذي استوعب الإبداع الفني على أنّه نوع من المحاكاة، كانت الأصالة المطلقة نوعًا من التمني المستحيل، وغير مرغوب فيها في كثير من الأحيان. رأى كثير من المفكرين، ومن بينهم سينيكا، أن التقليد الأدبي يعدُّ إرثًا مشتركًا لجميع الكُتَّاب، يحل لهم أن ينهلوا منه، أو نسخه، أو تغييره كما يحلو لهم، ونصحوا بتجنب الاقتباسات الصريحة

وإخفاء المادة الأصلية. وسوف يتجذر الوعي باللعبة والبراعة وجماليّات التدليس على مر القرون.

سوف يفترض بورخيس في النهاية أن كل أدب هو انتحال.

الخيال مزيج مركب، ومن ثم، يجب إنتاج الأدب وتطويره بنسبة كبيرة، من خلال التناصّ، وبناء على التواصل بين النصوص، وهو ما سوف يسمح بالنمو التراكمي. سوف يتواصل بعض الكُتَّاب مع البعض الآخر من خلال أعمالهم ومن خلال عدد لا حصر له من تقنيات الانتحال -التقليد، الاقتباس، الكولاج، لعبة المرايا، التدليس، المعالجة المزيفة «fake, remake»- والتي تعد جوهرية وأساسية في الأدب. ولن يخجل أي كاتب من استخدام هذه الأدوات، بل سوف تُفَسَّر المعالجات الجديدة على أنها نوع من الإشادة، والتغييرات والتحوّرات على أنها خيارات جديدة للعبة. ولهذا، تعددت منذ القدم المخطوطات التي تتناول رحلات مزيفة إلى قارّات أخرى وإلى القمر. وكذلك حكايات الحيوان التي تصف بصورة طبيعة وبتفاصيل دقيقة كائنات خيالية تمامًا. أو الاقتباسات المزيفة من كتب لا جود لها، والتي ستوظف بوصفها أدلة زائفة أو على أنها دعوات لمواصلة التخيّل بلا حدود عبر المتاهة اللا متناهية. يذكر رابليه في خماسيته عن حياة جارجانتوا وبانتاجرول* (١٥٣٢-١٥٦٤)، أكثر من مئة

* حياة غارغانتوا وبانتاغرول: عمل روائي من خمسة أجزاء كتبه في القرن السادس عشر فرانسوا رابليه، ويروي مغامرات اثنين من العمالقة، جارجانتوا وابنه بانتاجرول. كتب النص بنبرة من التسلية والمبالغة والسخرية، ويضم الكثير من الدعابات الفجّة. (المترجم)

وخمسة وخمسين عملًا متخيلًا. كما عُرف عن كل من فولتير، جوناثان سويفت، نابوكوف، لوفكرافت، بورخيس أو ستينسلو ليم أيضًا الولع بتكرار هذا النمط الغريب من الأعمال الوهمية. ألّف خورخي لويس بورخيس قصة بصيغة ملخص لرواية لا وجود لها، «الاقتراب من المعتصم»، نجح من خلالها في خداع أصدقائه أنفسهم على مدار سنوات.

وكذلك الحال بالنسبة لقصة «Tlön, Uqbar, Orbis Tertius»، التي سبق أن أشرنا إليها، وقصة «اختبار عمل هربرت كواين»، وتتمحور جميعًا حول تحليل نصوص لم تُكتب مطلقًا، وصولًا إلى الإيحاء بأن التدليس قد يعد أسلوبًا فعالًا لخلق (إو إعادة خلق) العالم. يطرح بورخيس في قصة «بيير مينار مؤلف الكيخوته»، إمكانية أن تكون نسخة من عمل، أُبدعت بتلقائية في سياق تاريخي مغاير، متطابقة ومختلفة عن الأصل في الوقت نفسه.

> نص ثربانتيس ونص مينار متطابقان حرفيًا، لكن الثاني يكاد يكون أكثر روعة.

تعد الإمكانيات الإبداعية في التزوير ومظاهر التدليس معينًا لا ينضب. صنع البولنديستانيسواف ليم، مكتبة شديدة الطرافة من الكتب المتخيلة، تضم أربعة مجلدات: فراغ مثالي (١٩٧١)، ضخامة متخيلة (١٩٧٣)، جوليم ١٤ (١٩٨١)، واستفزاز (١٩٨٢). تمكن فيها، وسط سيل من البيانات ذات المظهر العلمي، تضفي شعورًا بالمعقولية، من صياغة بنية من

الاستهلالات والاستنتاجات والتجميعات واللقطات المجمعة (الباتش)، التي تصنع لذة أي قارئ يرغب في أن يتعلم كيف ينسى فيها نفسه.

وحتى لو مضينا بالخداع لأبعد مدى، وصولًا إلى التوقيع أو هويّة المؤلف، فسوف تستمر في الظهوروالانتشار أنماط جديدة من العمل الفنّي. وعلى هذا النحو، فإن أي كاتب لا يستطيع فحسب إخفاء اسمه وراء اسم مستعار، بل أن بوسعه الاستفادةمن هذا التغيير وتقديم اسم مغاير: بمعنى، شخصية مختلقة، ذات هويّة خاصّة واستقلالية ظاهرية، وستكون وظيفتها الأساسية توقيع أعمال محددة لمؤلفها. قد تكون حالة السيد اختبار (Monsieur Teste)، من إبداع بول فاليري «خلال حقبة من السُّكر بالإرادة وبين المبالغات الغريبة للوعي الذاتي».أو أونوريو بوستوس دوميك، مؤلف متخيل من إبداع خيال خورخي لويس بورخيس وأدولوفو بيوي كسارس، الذي وقع أربعة من أعمالهما المشتركة وفوق ذلك لديه سيرته الذاتية الخاصة. أما أنطونيو ماتشادو فقد وصل به الأمر إلى تبني ثلاثة وثلاثين اسمًا مستعارًا، وربما كان الأكثر شهرة من بينها، مدرس الألعاب والبلاغة خوان مايرينا، والإشبيلي آبل مارتين، شاعر وفيلسوف وتلميذ الصف الأول. كما استطاع البرتغالي فرناندو بيسوا أن يخلق من الهواء ما لا يقل عن اثنين وسبعين اسمًا مستعارًا، ومن أشهرها البرتو كاييرو، ألبارو كامبوس، برناردو سوارس، وريكاردو رييس، وحتى تداعيات

توماس كروشي وبرو بوتيليو.

وإذا أراد الكاتب فوق ذلك التدليس على نفسه، فبمقدوره أيضًا القيام بذلك. فمن ناحية، تقتضي تقنيات السيرة الذاتية الخيالية بالضرورة تشويه وتزوير الأنا، لتذوب شيئًا فشيئًا في القصة حتى تتلاشى في سياق كلي، يتماهى فيه الواقع والخيال بنسب متساوية، وبلا تمييز. ومن ناحية أخرى، ستظل متاحة للكُتّاب دائمًا فرصة مواصلة بناء شخصية مستوحاة منهم في كل مقابلة يمنحونها لوسائل الإعلام، لينقسموا على أنفسهم من جديد ويتناءوا أكثر فأكثر عن هويّاتهم الحقيقية الحميمة.

ولكن حينئذٍ، هل حقًّا كل شيء مُباح؟ ألا توجد حدود أمام أساليب الخداع الأدبية؟ نعم، توجد بالطبع. على الأقل فيما يتعلق بظاهرة فنية. على سبيل المثال، تعد رواية الكيخوته، المنسوبة لأبيانيدا، أي الجزء الثاني المزور الذي يحمل عنوان "الجزء الثاني من رواية الشريف العبقري دون كيشوت* دي لا مانشا"، والتي تحمل توقيع المدعو ألونسو فرنانديث دي أبيانيدا، حالة تختلف جوهريًا عن باقي الأمثلة المذكورة آنفًا. قد يتضمن هذا العمل أولًا، سمات ومميزات أدبية، ولكنه يخرج من مجال الأدب لأسباب تتعلق بأنه، حاول منذ اللحظة الأولى الاستحواذ على عمل آخر قائم بالفعل، من خلال التعجيل بنشره عام ١٦١٤، ومحاولته الاستفادة من

* تعمدت كتابة اسم الرواية بهذه الطريقة لإبراز الإشكالية الأدبية التي تدور حول هذه النسخة من العمل المنسوبة لمؤلف آخر غير ثربانتيس. (المترجم)

نجاح الجزء الأول الأصلي، وتمكنه من ذلك بالفعل، وحتى منذ الكشف عن أن غرضه كان تصفية حسابات مع ميجل دي ثربانتيس ذاته. وبالرغم من التباس الحدود، لمجرد أن دوافع التدليس قد تكون مغرضة، يمكن ألا يصبح فنيًا ويتحول إلى نوع من الاحتيال. وعلى هذا النحو فإن الكثير من السرقات الأدبية التي وقعت في السنوات الأخيرة لم تعد تقع تحت طائلة النقد الأدبي، بل انتقلت إلى ساحات المحاكم*.

تتغير النوايا، فيتغير القضاة. لأن هناك أكاذيب وأكاذيب.

ومع ذلك، ستكون هناك حالات، سواء في الفن بصفة عامة أو في الأدب بصفة خاصة، ويرجع ذلك نسبيًّا إلى كل هذه الاحتمالات الخيالية التي ينطوي عليها مضمون كليهما، يصعب فيها التميز بين الأكاذيب الكبرى والصغرى، بين الخداع العظيم والاحتيال. يعد الكذب السمة الأكثر تميزًا للذكاء، لكن يبدو أن تعقيداته الحالية دفعت بقدراتنا على الخداع لأبعد مدى. ويجب أن نضيف إلى كل هذا، أن سمة التعقيد الجلية للفن تجبر أعظم الروايات الأدبية لا على أن

* من أبرز الحالات التي وقعت مؤخرًا وأحدثت ضجة في الصحافة، نجد باثكيث مونتالبان المتهم بالسرقة الأدبية في إحدى الترجمات؛ الفريدو برايس اتشينيكي المتهم بسرقة ستة عشر مقالًا صحفيًا؛ أديب نوبل الإسباني كاميلو خوسيه ثيلا، المدان من قبل المحاكم في برشلونة بسرقة محتوى رواية أخرى شاركت في نفس نسخة جائزة دار نشر بلانيتا التي فاز بها؛ لوثيا اتشيباريا، المدانة بالسرقة الأدبية من أنطونيو كوليناس، وقدمت ضدها دعاوى قضائية أخرى في أكثر من مناسبة؛ أرتورو بيريث ريبرتي، الذي أدانته مؤخرًا المحكمة الإقليمية في مدريد، على الرغم من صدور ثلاثة أحكام سابقة لصالحه. يختلف تمامًا عن جميع ما سبق، بسبب أغراضه ودوافعه كتاب "الصانع (لبورخيس)، معالجة جديدة" للكاتب أجوستين فرنانديث – ماياو، الذي لم يتهم قط بالسرقة الأدبية؛ بالرغم من ذلك، فإن أرملة بورخيس ووريثته، ماريا كوداما، طالبت، في لفتة تدل على عدم فهم صادم لمجمل الأعمال التي تحت يدها أو وظيفة الأدب، بسحب هذا التكريم الضمني بين نصوص الكتاب من المكتبات. (المؤلف)

تتعايش فحسب مع العديد من الأكاذيب الأخرى الأكثر وضاعة، بل وتتفوق عليها أحيانًا. ومنذ لحظة توقف معايير التحقق من صحة العمل الفني على الجماعة الفنية نفسها، سوف يجد المبدع نفسه مدفوعًا لاقتحام دوائر السمعة والمشاركة في لعبة المكانة. وسيظهر مجدّدًا العبث، والبلاغة، والمكائد، والتشهير، والمجد الزائف وحيل أخرى.

سوف تصبح كثيرة ومتنوعة العوامل التي يتطلبها تكريس مؤلف، بالدرجة التي تجعل الشعور بأن العملية برمتها يهيمن الحظ عليها أمر لا مفر منه.

وبالرغم من كل ذلك، نعلم أن بعض الأعمال الفنية العالمية تجاوزت الزمان والثقافات، ويخلف هذا لدينا شعورًا ما بأنه يوجد نوع من الإنصاف. بأن الزمن كفيل بإعادة الأمور إلى نصابها. بأن هناك أمل في المستقبل. إلا أن الأمر لا يعدو أن يكون حنينًا قديمًا، مهما أضفينا من صفات على هذه الأعمال، وسيجد كلٌّ من الناقد وفيلسوف الفن صعوبة في العثور على مميزات مستقلة تمامًا عن معايير التجمعات الإنسانية التي صنفتها على أنها فنية.

ومقابل كل مؤلف يستنقذه الزمن، يتناسى الآلاف جورًا*.

* سيكون ضربا من المستحيل حصر آلاف الكُتّاب الذين لم تصل أسماؤهم لعصرنا، أو الذين دُمّرت أعمالهم منذ قرون. ولكن، لنذكر على سبيل المثال لا الحصر، نزرًا يسيرًا من أعمالهم التي ما زلت متوفرة لدينا، فهل حان الوقت لكي يتبوأ الأرجنتيني ماسيدونيو فرنانديث المكانة التي ينبغي أن يكون عليها؟ وكذلك الحال بالنسبة للبيرواني خوليو رامون ريبيرو؟ أو المكسيكي رافائيل برنال؟ أو الأوروجوائي ماريو ليبريرو؟ وفي إسبانيا، هل أنصفنا حقًا أعمال ألبارو كونكييرو، أو رافائيل دييست، أو وينسلاو فرنانديث فلوريث أو جوان بيروتشو؟

ها قد بلغت: لا يوجد إنصاف في الفن، والزمن لا ينزل الجميع المكانة التي يستحقونها.

على أي حال، إلى أي مدى ستصل غرابة مستقبلُ عالَم، حاضره مجرد مظاهر خادعة؟

هل أحسن الزمان صنيعًا كما يليق حقًا مع كُتّاب مثل اليابانية موراساكي شيكيبو، مؤلفة أول رواية في تاريخ الأدب؟ أو مع ماري زاياس، أديبة العصر الذهبي ومؤلفة النسخة الإسبانية من الديكاميرون؟ أو مع أماندين أورور لوسيل دوبان، التي وجدت نفسها مضطرة للتوقيع بالاسم المستعار المذكر جورج صاند لكي لا تصنف على أنها فنانة دون المستوى؟ وهل يعتبر ضمن هذه القائمة كل من إليزابيث فون أرنيم، كونشا إسبينا، جرازيا ديليدا، ويلا كاثر، ماري ماكلين، إيزاك دينيسن، فيكي باوم، دوروثي باركر، فلوربيلا إسبانكا، روزا شاسيل، زيلدا فيتزجيرالد، نينا بيربيروفا، ماريا تيريزا ليون؟ وهل تضمن أيضًا كلًا من إرنستينا دي شامبورسين، كريستينا ستيد، ماريا فيرجينيا إستنسورو، إيرين نيميروفسكي، إيرمجارد كون، ميرسي رودوريدا، جين ستافورد، إيلينا جارو، ناتاليا جينزبورج، شيرلي جاكسون، إستريلا ألفون، ماوفيس جالانت، تايكو كونو، إليزابيث هاردويك، أمبارو دابيلا، ماريا جابرييلا يانسول، بريجيت ريمان، جوان ديديون، أجوتا كريستوف، أليخاندرا بيثارنيك، إديث بيرلمان، لوسيا برلين، هيبي أوهارت، جوانا روس، أنجيلا كارتر، فيريتي بارجيت، أما آتا أيدو، جوي ويليامز، أديلايدا جارثيا موراليس...؟ (المؤلف)

أعلام الارتياب

وها نحن هنا مجدّدًا، عزيزي القارئ، بعد رحلة طويلة. لنشرع أخيرًا في استعراض تقييم المسألة أثناء وقتنا الحاضر.

لهذا أعتقد أنه من الملائم، قبل الانتهاء من التقارب مع الصيغة التي نحن عليها الآن في العالم، إجراء مراجعة أخيرة لكيفية وصولنا إلى ما انتهينا إليه بدءًا من ديكارت. كان الواقع الذي نحّيناه جانبًا آنذاك، عندما صرنا عالقين مع الإنسان المفكر، صارمًا، راسخًا ولا لبس فيه. وعلى العكس من ذلك، يبدو أن ما ينتشر حولنا الآن أكثر التباسًا بكثير، انعكاس لواقع وهمي متقلّب. ولكن ما هي التغييرات الكبرى التي دفعت بنا إلى هذا الوضع الدقيق؟

في كتابه "في تفسير الثقافة – محاولة فى فرويد" (١٩٦٥)، كان بول ريكور أول من تحدث عن ماركس، ونيتشة، وفرويد، بوصفهم "أعلام الارتياب" الثلاثة الأوائل، الذين تمكّنوا من نزع القناع عن الحقيقة القديمة، أساتذة التغيير العظماء الذين كشفوا أزمة الفلسفة الحديثة ونددوا بكذب الضمير. ماركس،

عندما أشار إلى الأيديولوجيا والمصالح الاقتصادية على أنها الوهم الذي أعطانا وعيًا مقلوبًا للعالم. نيتشه، حينما هدم مفهوم الحقيقة ذاته وتحول القيم. فرويد، عندما أحال الوعي والمنطق إلى الجزء السفلي من عقلنا، وأعاد اللا عقلانية إلى المكانة الأصلية الجديرة بها. ومع ذلك لم يكن الكشف الثلاثي الذي أشار إليه ريكور بهذه السهولة على الإطلاق، بل كان يمثل جزءًا من حركة كبيرة الأبعاد للغاية. وبطريقة متزامنة إلى حد ما (بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين)، وضع المفكرون، والباحثون والعلماء، بدون أن تجمع بينهم أي علاقة بالضرورة، أو يعرف بعضهم أعمال بعض في أغلب الأحيان، وضعوا عملهم في خدمة نفس القضية وكوّنوا حشدًا صغيرًا.

تعرضت ممارسة منظومات القيم الإنسانية بالكامل وفي نفس الوقت، لنفس الأزمة ولنفس عملية إعادة البناء. ولأن هذا يمكن أن يحدث فحسب مع نوع من المخلوقات ظل متصلًا من خلال شبكة غير مرئية، نسيج الثقافة شديد التشابك، فإن كل مجالات وحقول معارفنا شهدت في نفس الوقت زلزالًا مشابهًا، أُقصيت فيه الحقيقة والإنسان والمنطق عن عروشهم مرة تلو الأخرى. تتشابه أبعاد خيالنا مع خلية حشرات. وقد وصل الإنسان، بحكم أنه كائن خارق، إلى مرحلة التحوّل.

سيكون ضربًا من المبالغة تقديم وصف مفصّل هنا لعملية التحول المعقدة التي تعرضت لها ثقافتنا فيما يتعلق برؤيتها

لنفسها. ولهذا سوف أكتفي باتباع مسار مختصر عبر مختلف منظومات القيم التي كانت لها الريادة، لكي نأخذ فكرة موجزة عن كيف كان انهيار العالم قبل أن يولد من جديد على حاله وكما نعرفه.

بحلول عام ١٨٤٥، تأهبت مجالات الفلسفة، وكذلك الاقتصاد والعلوم السياسية لاختبار هزة عنيفة وغير متوقعة مع الإعداد لمشروع الأيديولوجية الألمانية*، والذي لن يرى النور إلا بعد بضعة عقود لاحقة. يؤكد ذلك المجلد الذي يضم خمسمائة صفحة، من تأليف إنجلز بالتعاون مع كارل ماركس، أن الواقع المقبول به حتى ذلك الوقت لم يكن سوى بنية فوقية** إيديولوجية، سراب تروج له مصالح الأقلية. سيدعو ماركس بني جلدته إلى تجاوز ذلك الوهم الذي أسفرت عنه المجتمعات، وإلى أن يتطلعوا إلى أبعد من حجاب القيم الأخلاقية، والجمالية والدينية المفروضة من قبل الأقلية، وإلى أن يعيدوا تفسير الواقع بأنفسهم. لم يكن الواقع الذي يراه ماركس هو نفس الذي يراه باقي الفلاسفة، والذين سيهم بتركهم وراءه، في ذلك الوقت، من خلال صفحات هذا العمل. لم يكن واقعًا مبنيًا على علاقات محضة بين مفاهيم

---

* الأيديولوجية الألمانية: هي مجموعة من المخطوطات كتبها كارل ماركس وفريدريك إنجلز في الفترة بين أبريل وأوائل مايو عام 1846. لم يجد ماركس وإنجلز ناشرًا لمؤلفهما، ولكن في عام 1932 عثر ديفيد ريازانوف على العمل، ونشره من خلال معهد ماركس-إنجلز في موسكو. (المترجم)

** البنية الفوقية: هي مفهوم ماركسي يشير إلى مجموعة العناصر القانونية والسياسية والأيديولوجية المنبثقة من البنية التحتية أو القاعدة. ومن ثم فإن البنية الفوقية الأيديولوجية هي البنية التي تضم مختلف أشكال الوعي الاجتماعي. (المترجم)

مجردة، أحكام مسبقة، أوأيديولوجيات، بل واقع استقر في مكانة تتجاوز المنطق، ويتباهى بأن له وجودًا حقيقيًا. كما عدَّ مؤسس المادية التاريخية أن ما هو لا عقلاني-مادي، لا يحظى فحسب بوجود أكثر مما هو عقلاني، بل يعد المحرك الحقيقي للعالم.

بعد عدة سنوات، عام ١٨٥٩، سينشر تشارلز داروين عملًا سيثير آمالًا كبرى، ونفدت جميع نسخه منذ أول يوم لطرحه للبيع، إنه كتاب: أصل الأنواع، وهو عمل قُدر له إقصاء الإنسان للأبد من مركزية الخلق. كانت تداعيات نظرية التطور لداروين مدمرة بالنسبة للمفهوم الأسطوري القديم للعالم، وكشفت بشكل نهائي كل الأكاذيب حول أصلنا الذي لازمنا لقرون. ومع ذلك، فإن فكرته عن الانتخاب الطبيعي سيكون لها بمرور الوقت، عواقب لا حصر لها على تخصصات أخرى غير علم الأحياء، مثل علم الاجتماع، والاقتصاد، وفلسفة العلوم، أو حتى نظرية المعرفة المكتسبة.

في ذلك الوقت، بدأ، شاب يافع، وغير متوقع، هو فريدريك نيتشة، نشر باكورة أعماله، فكانت كارثة جديدة حتمية. يعد ظهور كتابه "حول الحقيقة والكذب من منظور غير أخلاقي" (١٨٧٣)، أكبر ضربة وجهت إلى صميم الفكرة القديمة عن الواقع، نظرًا لأنه هاجم منذ البداية أساس فكرة الحقيقة ذاتها. عدَّ نيتشة، كما رأينا، أن الحقيقة هي مجرد مؤامرة على الضعفاء الذين يخشون العيش، اخترعها سقراط وأفلاطون،

واليهود-المسيحيون لتقييد الإنسان في زنزانة المنطق الضيقة، وإبعاده عن أهوائه. سوف تصبح الحقيقة الجديدة مجرد نوع من الأخطاء التي لن يستطيع جنس معين من الكائنات الحية (نحن) البقاء على قيد الحياة بدونها. سوف يعظِّم نيتشه، بتمجيده للكذب من منظور لا أخلاقي، كافة أنواع الخيال، حتى يصبح لا يمكن الاستغناء عنه، في عناصر تدخل في تنظيم الحياة النفسية، الأخلاقية، الاجتماعية، الإدراكية لدى الإنسان، ومن ثم يُعلّي من شأن تيار فلسفي لم يكن قد حظي بعد بالاهتمام الذي يستحقه، وعُرف في أغلب الأحيان بتيار الخيالية أو الوهمية*. يقتصر الذكاء البشري، من وجهة نظر نيتشة، على فن التظاهر فحسب. ومع ذلك، لا يزال يتعين

---

* يعد جيرمي بنثام (1748-1832)، بصورة شبه يقينية هو مؤسس مذهب الوهمية، وبالنسبة له يعتبر كل اسم لا يمثل شيئًا حقيقيًا أو قابلًا للإدراك نوع من الوهم، ومع ذلك كان يفرق بين <<الموجودات الخرافية>> مثل الأمير هاملت أو القنطور، وبين <<الموجودات الخيالية>> مثل مقولات كانط، حقوق الإنسان أو العقد الاجتماعي. ويندرج في إطار هذا النهج من الفكر الفيلسوف الإيطالي، جيوفاني مارشيزيني، الذي اعتبر في كتابه "وظائف الروح" (1905) أن القيم الأخلاقية هي أوهام يطرحها الضمير، ومع ذلك لا يجب اعتبارها أوهامًا دائمًا، حيث تعمل بمثابة منظم فعال لحياتنا الروحية والأخلاقية. وأخيرًا يندرج في هذا التيار، الفيلسوف الألماني، هانز فاينجر، وإن لم يكن عن طريق تأثير مارشيزيني المباشر، بل نيتشة، وفي الوقت نفسه من منطلق اعتبار أفكار كانت أوهامًا، وذلك من خلال مؤلفه "فلسفة كأن" المنشور عام 1911. اعتبر فاينجر أنه لا يمكن اقتصار كل المصطلحات ذات الدلالة الخيالية على نفس النوع من الخيال؛ ومن ثم فإن المبدأ (principium) يعد نقطة انطلاق، والقبول (sumptio) مجرد اعتراف صغير بشيء عبر عنه لفظ ما، والافتراض (suppositio) المرتبة التالية في الزعم، والتكهن (conjectura) يرتقي إلى درجة الفرضية، والإثبات (praesumptio) هو افتراض بالمعنى الأخلاقي، والخيال (fictio) هو نتاج المخيلة الإبداعية، إلخ... وبناء عليه، وعلى الرغم من أنه لا يمكن الزعم بأن الأوهام كذلك، ولا يمكن القول إنها ليست كذلك. تعتبر الأوهام التخيلات المفهومة على هذا النحو شبه-مفاهيم تدل على شبه -أشياء (الإلكترونات والبروتونات في الفيزياء، على سبيل المثال، أو شبه الجريمة في القانون)، وعلى الرغم من أنها لا تسمح بمعرفة الواقع الحقيقي للعالم، إلا أنها تتيح للبشر إمكانية بناء أنظمة فكرية والتصرف "وكأن" العالم يناسب نماذجهم. بالنسبة لأي من هؤلاء المؤلفين الثلاثة، يمكن أن تكون الأوهام أحيانًا من أكاذيب محضة، ولكنها قد تكون مفيدة أيضًا في مناسبات أخرى للوصول إلى منطق مؤقت صالح، سيقودنا بدوره إلى اكتشافات أخرى لاحقة. (المؤلف)

على الدين والمسيحية قبول الانتكاسة الثالثة التي سيواجهانها في غضون بضعة عقود فحسب، وهي الأكبر على الإطلاق، والتي ستتحقق مع نشر مؤلفي نيتشة "العلم المرح" ١٨٨٢، و"هكذا تحدث زرداشت" (١٨٨٣-١٨٨٥). يحلل فيهما فكرة جللًا وهي موت الإله. وبدون هذا الموت لا يمكن تحرير الإنسان من القانون الأخلاقي المسيحي الذي عمل على إخضاعه من خلال عقدة الذنب، ومن ثم التنبؤ بقدوم الإنسان السوبرمان. ولا يكتفي نيتشة بذلك، لضمان اكتمال هذه الحقبة الجديدة لدى الإنسانية، بل أثار أيضًا في "ما وراء الخير والشر" (١٨٨٦)، و"في علم أنساب الأخلاق" (١٨٨٧) ضرورة إجراء عملية تغيير للقيم الأخلاقية، إعادة بناء شاملة لتلك القيم التي تركنا لها قيادنا، والتي ظلت حتى تلك اللحظة متوافقة مع أخلاق السادة والعبيد.

سيدفعنا فرديناند سوسير أيضًا للشك في الواقع (على اعتبار أنه بشكل متزايد مجرد بناء لغوي) من خلال دراسته "منهج في اللسانيات العامة" (١٩١٣). سيحدث أبو البنيوية اللغوية فجوة عميقة بين الدال والمدلول، سوف تفصلنا إلى الأبد عن المادة ذاتها. وفقًا لنظرية سوسير، يُعدُّ الرابط بين أي دال ومدلول تقديريًا، والكلام ليس سوى جزء عرضي من اللغة، ودراسة البُنى العميقة يمكن أن يكون تزامنيًا (سنكرونيا) فحسب وليس تطورًا (دياكرونيًا): يمكننا تحليل وظيفة اللغة في سياق تاريخي محدد، ولكننا سنتوصل لاستنتاجات سطحية

من دراسة تطورها عبر الزمن.

وبنفس الطريقة، أدت العديد من أعمال سيجموند فرويد الرئيسية، من " تفسير الأحلام" (١٩٠٠)، وصولا إلى "الأنا والهوية" (١٩٢٣)، إلى خلع الأنا بوصفها مركزًا للعالم والمعرفة البشرية، ووضع العقل الباطن الغامض في المرتبة الأولى من جميع أفعالنا. ولكن عند هذه المرحلة، ما الذي بقي صامدًا على حاله بعد فرويد؟ صمدت أشياء قليلة للغاية أمام هجوم التحليل النفسي، في سيناريو شديد الوهن مثل واقعنا. يجب أن نضيف الآن، إلى كل ما سبق، أن أي فعل يقوم به الإنسان، لديه دوافع غامضة، أكثر عمقًا، أملتها علينا لا عقلانيتنا، وعقلنا الباطن والرغبة. إنها دوافع لا يعرفها أحد، بما في ذلك الفاعل ذاته، لأنها متخفية تحت سطوة القمع. ولم يعد لما يفكر به المرء نفسه بشأن أفعاله أهمية تذكر. هناك شيء خفي يدير العالم من الظلال. ومرة أخرى، فإن الذات والهوية المزعومة هما وهم، داخل مجتمع أكثر غرابة وفوضى مما نتخيل.

ولم يعد متبقيًا من ذلك الواقع الجامد في العصور الوسطى، الذي لم يألُ جهدًا في مقاومة الحداثة، أي أثر له في غضون أقل من مئة عام من الهجمات والارتياب. انهارت أسس كافة قناعاتنا، واكتشفنا بمنتهى الحَيْرة أن الواقع كله لم يكن أكثر من مجرد ديكور مبني على المغالطات. ندرك فجأة، أن هناك احتمالًا كبيرًا بأننا نسقط نماذجنا الخاصة بالتراتبية على العالم،

ونتعامل معها على أنها المبادئ والقوانين الأصلية التي تحكمه، في حين أن هذه المبادئ يمكن أن تكون مختلفة تمامًا، أو فقط، غير موجودة.

وسوف تتكرر هذه الانتكاسات نفسها في باقي المجالات الإنسانية. وسوف يتكرر مجددًا ما حدث مع الفلسفة والدين والسياسة والأخلاق والاقتصاد وعلم الأحياء وعلم اللغة أو علم النفس، مع باقي المجالات الأخرى. ومن داخل نفس الحركة، سينقل عالم البنيوية ليفي شتراوس، نظريات سوسير إلى علم الأنثربولوجيا، معتبرا أن الظواهر الاجتماعية (الأساطير، والطقوس، والفن والقرابة) يمكن اعتبارها نظم رموز، ويتوصل أيضًا إلى أن فكر إنسان العصر الحجري الحديث، استخدم نفس القواعد البنيوية التي استخدمها التفكير العلمي الأكثر حداثة. وسينقل عالم بنيوي آخر هو رولان بارت هذه التحولات الفكرية إلى العمل الأدبي، وسيكون صديقه الفيلسوف جاك دريدا من سيُأسس حركة التفكيكية، والتي ستسعى لفهم ليس ما يقوله النص، بل ما يشير إليه بدون أن يقوله، وستحاول التنقيب في أعماق المجاز والفرضية والخيال، وهو ما سيسمح له حتى بالاختلاف جذريًا في تفسير العمل مع مؤلفه ذاته. طرد فوكو العقل من برجه بدراساته حول الحياة الطبيعية، التي تخبرنا بأن كل ما هو طبيعي لا يعدو أن يكون مجرد توافق مبني على سلوك مثالي (تعد الخطابات حول المجنون، المريض، المجرم، الجنسانية، اختراعات

حديثة). في الفيزياء، خلع إينشتاين نظام نيوتن بنظريته عن النسبية: إن قانون الجاذبية الكونية الذي أفادنا بفاعلية لقرون، لم يكن أكثر من اعتقاد عابر. وبعد ذلك بعشر سنوات، سوف يقدم هايزنبرج مبدأه عن الشك من خلال الفيزياء الكمّية. من ناحية أخرى، سوف يحاول فيلسوفا العلوم توماس كون، أولًا، وبول فييرابند، لاحقًا توضيح كيف يمكن أن يكون رفض هذه الأفكار العلمية ممكنًا، وسوف يكشفون لنا أكثر أسرار العلم غموضًا: أن العلم أيضًا كاذب كبير، يلجأ إلى استراتيجيات مخادعة ولا يستطيع أن يضمن لنا أي حقيقة.



أكاذيب العلم

لا تعد فكرة أن العلم يعبر عن كيان كلّي ثابت، تتوافق فيه كل التخصصات ونظرياتها، ويتضمن حقائق مثبتة، سارية على مستوى العالم أجمع، وستظل كذلك إلى الأبد، مما يتيح التقدم، أكثر من مجرد اختراع آخر من قبل المجتمع الحديث وتجمعاته العلمية. ولا صحة لشيء من ذلك.

ولا تعدو العبارة الشائعة المتكررة كثيرًا "مُثبت علميًا" سوى أن تكون تعبيرًا مثاليًا عن عقيدة دوجماتية جديدة.

استطاع توماس صامويل كون، فيلسوف العلوم والفيزياء بجامعة هارفارد، إحداث ثورة بشأن كل ما كنا نعتقد أننا نعرفه عن العلم من خلال دراسته "بنية الثورات العلمية" (١٩٦٢). وعلى عكس ما قال به بوبر من خلال نظريته حول قابلية الدحض (التفنيد)، التي عالج من خلالها مسألة كيفية عمل العلم في ظروف مثالية، سوف يبحث كون وسيحاول توضيح الوظيفة الحقيقية للإجراءات العلمية.

اعتبر توماس صمويل كون أن العلم الحديث على حالته وكما نعرفه، يحتاج إلى الاستناد إلى نماذج قياسية، بمعنى مجموعة من الأعراف المتفق عليها، سوف تقدم خلال فترة معينة من الزمن نموذج المشكلات وحلولها إلى المجتمع العلمي الذي يقبلها. وليس صحيحًا أن العلم يتطور من خلال التراكم الحقيقي للاكتشافات واختراعات فردية، بل يعد جزءًا من نفس الإطار الذي تتشابك فيه باقي المظاهر الثقافية الأخرى؛ ولهذا، بمجرد محاولتنا استقصاء التوقيت الدقيق لأي اكتشاف، فسنجد أنفسنا دائمًا أمام عدد لا حصر له من المكتشفين الجزئيين والنظريات المتقاطعة. في مراحل العلم غير الناضجة، لن يسمح تعدد المدارس والمدارس الفرعية المنافسة بالتقدم: فلم توجد على سبيل المثال، منذ القدم وحتى القرن السابع عشر، نظرية واحدة مقبولة حول طبيعة الضوء، على الرغم من أن أعضاء هذه التيارات كانوا علماء واستندوا في معارفهم إلى تجارب معملية، فلن يجرؤ أحد من دارسي علم البصريات في هذه الحقبة على تصنيفها ضمن العلوم. ومع ذلك، أدى في النهاية ظهور نموذج قياسي (علم البصريات عند نيوتن)، إلى انطلاق الأبحاث من تلك اللحظة وفقًا لبراهين علمية في الماضي لتعزيز ممارستها في المستقبل. وسوف يعتبر العلماء، منذ ذلك الحين النموذج القياسي من الأمور المسلم بها، ولن يكون لزامًا عليهم سواء إعادة بناء أو تسويغ كل مبدأ من مبادئ عملهم في كل مناسبة، وسيكون بوسعهم التركيز فحسب على بحثهم المحدد. ولن

يتحتم عليهم القلق بشأن حقيقة أن هناك مشكلات ما زالت بلا حل، لأنهم سيفرون من مسؤوليتهم، أو بشأن الإثبات النظري للبحث الذي انكبوا عليه. وستُعنى الكتب الدراسية بقصة التطور العلمي للنموذج القياسي، التي ستعرض بصورة نظيفة ويسيرة الهيكل الأساسي للنظرية المقبولة، وتوضحه من خلال الملاحظات والتجارب المثالية، التي لا يكاد يكون لها علاقة بالشكل الذي تمخضت عنه النماذج الأصلية. ستعمل هذه الكتيبات الدراسية، والمفترض فيها أن تكون تربوية ومقنعة، على تغيير الواقع وفق أهوائها، وسوف تصبح همزة الوصل الوحيدة بين العلم وأجيال علماء المستقبل. وسوف يتلقى طلاب العلوم الطبيعية الجامعيين طوال فترة تأهيلهم، العلم من خلال كتب فقط، أُلفت خصيصًا من أجلهم، وسيجدون فيها كل ما يحتاجون معرفته بطريقة موجزة ودقيقة ومنهجية. وبناء عليه، تترجم الثقة في النموذج القياسي إلى كفاءة أكبر بكثير. فيصبح العالم أفضل تأهيلًا لفترات تطور العلم العادية، ولن يثير نقاشات عقيمة كالتي من شأنها عرقلة مناهج إنسانية أخرى، وسوف يسهم في تيسير مزيد من التقدم أكثر من أي منها. ومع ذلك فسوف تصبح فكرته عن تاريخ العلم مشوهة تمامًا، وسوف يُعتقد (على غرار غالبية الناس) أن هذا التاريخ يقتصر على مجمل المواقف الطريفة التي تحيط ببضعة مسائل هامة: مَن، وفي أي وقت، اخترُع أو اكتُشف شيء ما. وفي كل الأحوال، أي ظروف خاطئة أو خرافات حالت دون حدوث ذلك من قبل.

وكأنّه لا مفر من ذلك. وكأن العلم قدرنا، وليس أمامنا سوى اتباع طريق وحيد حتى بلوغ الحقيقة.

من ناحية أخرى، سوف يصبح هذا العالم فائق التخصص، حبيس مكتبه أو معمله، والمنعزل عن الوظيفة الحقيقية للعلم، أسوأ استعدادًا لفترات الأزمة. وسوف تقع الأزمة في النهاية.

ستُحل الأزمة إن عاجلًا أم آجلًا، على الرغم من أنه أثناء فترات العلم العادية، لا تستوعب نماذجهم القياسية الحالات الشاذة، وعلى الرغم من أن المجتمع العلمي الذي يدعم النموذج القياسي على استعداد للدفاع عنه مهما كان الثمن. حقيقة الأمر أن العلم العادي يركز فحسب وحصريًا على أمر وحيد: هو حل المعضلة. وتعد المعضلات، بمعنى، هذه النوعية من المشكلات التي تختبر العبقرية أو القدرة على حلها، هي الأمر الوحيد الذي يعنينا. وبناء عليه، تُعدُّ المشكلات الوحيدة والتي يقبلها المجتمع باعتبارها علمية، ويشجع أفراده على حلها، هي تلك التي يتفاخر بأن لها حلول. على النقيض من ذلك، لا تمثل مشكلات أكثر إلحاحًا بالفعل، مثل علاج أمراض بعينها، أو التوصل إلى سلام دائم، في الغالب أي معضلة، لأنه من الممكن أن لا يكون لها حل. علاوة على ذلك، تُعد المشكلات القابلة للحل والتي يمكن أن يطرحها نموذج قياسي محدودة، والشعور بالتقدم المترتب عليها. وعاجلًا أم آجلًا، لن يكون من الممكن الاستمرار في التستر على الظواهر الشاذة. وسيحاول المجتمع العلمي، في

غالبية الحالات، عندما يظهر شذوذ يستحيل تجاهله، إعادة تكييف النظرية بحيث يصبح غير الطبيعي هو المتوقع. لكنه لن ينجح دائمًا في استيعابه، وفي اللحظة التي يخرج فيها عدد التجاوزات غير المتوقعة عن السيطرة، ستحدث الأزمة.

وستؤدي الأزمة إلى ثورة علمية وانتشار نماذج أخرى قياسية جديدة.

قد ينتهي المطاف بهذه الرؤى النظرية المتنافسة الجديدة إلى أن يتم اختزالها في واحدة فحسب، ودائمًا بإجماع علمي. وحينئذٍ سوف يُرسى من جديد عصر من العلوم العادية. وسوف يبدأ النموذج القياسي المنتصر عقب الأزمة مرحلة جديدة من التأقلم، سوف يتعين خلالها إعادة كتابة كافة الكتيبات الدراسية لكي تعزز تفسيره من جديد وإضفاء اتساق على فرضياته الجديدة. ونظرًا لأن علماء المستقبل يجري تأهيلهم من خلال الكتب الدراسية المحدثة فحسب، فسوف يصيب التشويه استيعابهم لماضي منهجهم ذاته، لدرجة فهمهم له، على أنه بمثابة خط مستقيم.

ماذا تبقى إذن من تلك الرؤية عن العلم بوصفه نظامًا توحيديًا، متجانسًا، شديد الانضباط، ذا توجهات طوباوية، وحاملًا للحقائق المثبتة، ووعدنا بإحراز تقدم لا حدود له؟ النزر اليسير أو لا شيء. عقائد دوجماتية جديدة. يعتمد العلم الحقيقي على معتقدات أفراد، وقدرتهم على الدفاع عنها واختيارهم الاعتباطي للمشكلات المحددة لبحثهم.

وحتى في الفترات العادية، فإن الانطباع العام ليس أكثر تشجيعًا: يكفي التأمل في كافة مجالات العلوم في مجملها لاستيعاب أنها عبارة عن بنية متداعية، يجمع بين عناصرها تماسك واهٍ للغاية. وإلا كيف يمكننا فهم عدم التوافق الذي يجعل بعض النماذج القياسية غير قابلة للتوفيق؟ لم يتجلَّ بوضوح هذا النوع من عدم التوافق بين نظامين مختلفين، غير قابلين للتفسير، أثناء المصادمات التي تحدث داخل ثورة ما فحسب، مثلما جرى مع نظريات نيوتن عن المكيانيكا ونظرية النسبية عند إينشتين. بل يحدث باستمرار أثناء فترات التعايش، مثلما يجري في الوقت الراهن مع نظرية النسبية والفيزياء الكمّية. لا يملك العلماء إجابات تشمل كل هذه المناطق الغامضة، ولا يمكنهم حتى التفكير في هذه الأمور، ولا يعرفون في أي اتجاه يتقدمون.

ومازال متبقيًا جانب أخير لم يطرحه توماس كون بصورة صريحة، ربما لأنه لم يرغب في تقويض علاقاته بالكامل مع المجتمع العلمي الذي كان ينتمي إليه: الربط بين العلم والقوى الاقتصادية والسياسية. لا يمكننا تجاهل أن جزءًا كبير من الأبحاث العلمية التي تُجرى في الغرب مموّلٌ من قبل رأس مال خاص. وعلى الرغم من أن الشعور الذي ما زال سائدًا إلى اليوم بأن العلم يتقدم في كل الاتجاهات، ويبحث في كلِّ ما هو قابل للبحث وسوف يتوصل في يوم من الأيام إلى حلِّ كافة وجميع مشكلات البشرية، إلى أي مدى هذا حقيقي؟ لا

تهتم شركات الدواء متعددة الجنسيات كثيرًا، وفقًا لحساب المكاسب، بأي من الأمراض التي تدمر مناطق بالكامل في أفريقيا وآسيا، بقدر اهتمامها بآلام الحلق أو شدِّ الوجه أو تنظيف المسام لدى العالم الأول. ولا يهم كثيرًا في هذه الحالة إذا كانت المشكلات لها حل أم لا؛ يجري التكتم منذ عقود من خلال الدعاية التسويقية على نقص حلول أكثر المشكلات الغربية تفاهة. كما إن الحكومات قد تكون لها مصالح تحدد توجه دعمها. وليس أمام العالم من سبيل آخر سوى الاستمرار في العمل داخل منظومة بحاجة ماسّة للتمويل.

العلم أعمى. ولا يتقدم العلم في كل الاتجاهات، في بعضها فحسب، والتي قد يتركها في أي لحظة بسبب غياب المصلحة الاقتصادية أو السياسية. ولن يحل العلم كافة المشكلات، بعضها فحسب، وفي بعض الأحيان ستبقى بدون حل أكثرها سهولة. كما يكذب العلم حين يدعي أنه يدرك الحقيقة.

تحاشى توماس صمويل كون، على مدار صفحات "بنية الثورات العلمية" متعمدًا، التحدث على الإطلاق عن الحقائق. لا وجود لما نطلق عليه الحقيقة. يمكننا من خلال العلم التوصل إلى فهم أكثر دقة بصورة أكبر لماهية الطبيعة بالنسبة لنا. لكن يتعين علينا التخلي عن فكرة أن العلماء يقتربون أكثر فأكثر من الحقيقة، لأن فرضياتهم تعتمد دائمًا على السياق الذي طُرحت من خلاله. ويقينهم عبارة عن إجماع، مؤقت وغير مستقل على الإطلاق.

ولا تعد العملية العلمية بمثابة تطور نحو الحقيقة التي ننشد معرفتها. بل عملية بناء متحيزة تقوم على القدر الضئيل الذي نعرفه.

أما بول فييرابند فسينطلق بكل هذه الاستنتاجات إلى أبعد من ذلك في دراسته "رسالة ضد المنهج" (١٩٧٥). فبالنسبة له، لا يوجد مثل هذا المنهج العلمي: فلا العلم يتبع نظامًا، كما لم تتطور أبحاثه مطلقًا من منطلق احترام أي شيء قد يبدو مشابهًا لمنهج حقيقي. في الحقيقة، لطالما كانت الحالات الشاذة التي لا يستطيع النموذج القياسي تفسيرها موجودة في كل مكان، على الرغم من التعتيم عليها بفرضيات مخصصة لهذا الغرض، لتمنح فترة هدنة وتحدد الاتجاه الجديد الذي يجب أن يتبعه البحث التالي. وفقًا لأبي الأناركية المعرفية، حدثت ثورة كوبرنيكوس، التي يتخذها نموذجًا بفضل قدرة جاليليو على الإقناع، وأسلوبه السلس، الذي كان يصيغه بالإيطالية وليس اللاتينية، وأنه كان يخاطب عامة الناس وليس الأكاديميين. ومن المؤكد أنه لو كان الأمر يتوقف على كوبرنيكوس نفسه، لتأخرت هذه الثورة كثيرًا في الحدوث، أو لما كانت لتحدث على الإطلاق. لكن جاليليو استفاد من الحيل، والبلاغة والبروباجندا. وتمكن هكذا من إرساء طرق جديدة لتفسير الطبيعة، تقوم على لغة ملاحظة أكثر تجريدًا، بالإضافة إلى تمكنه من تغيير المفاهيم التي أضرت بالنظرية الجديدة: كان لابد من تجاهل الملاحظات القديمة المباشرة

للسماء، ويتعين تركيز الاهتمام فحسب على الظواهر الغامضة التي كشفها التليسكوب الآن. ويُعد هذا على مستوى أكبر أو أصغر من التطور، هو ما يجري مع كافة الثورات العلمية.

بحكم العادة، يعد الاتساق كشرط تفرضه النماذج القياسية، بمثابة رفض لأي فرضية جديدة تناقض نظرياتها الخاصة. ويصب هذا دائما في مصلحة النظرية الأقدم، وليس الأفضل. فيما يرى فييرابند أن انتشار كافة أنواع التخمينات سيكون مفيدًا للعلم. ويعبر عن قناعته بأن الأناركية النظرية ستحفز التقدم بصورة أفضل بكثير من القوانين المقيدة والنظام. ومن ثم فإنه لإنجاز علم مبدع حقًا، لابد ألا يكون المعيار العقلاني هو الدليل الاسترشادي الأوحد، يجب أيضًا إضافة اللا عقلانية إلى العملية العلمية.

> وأخيرًا، سينضم العقل إلى كل تلك الوحوش المجردة الأخرى مثل الالتزام والطاعة والأخلاق والحقيقة وأسلافهم الأكثر انضباطًا، الآلهة، الذين استخدموا في عصور أخرى لترهيب الإنسان والحد من تطوره الحر والسعيد (بول فييرابند، أطروحة ضد المنهج، ص ١٦٧).

يعد الضعف البشري هو الشيء الوحيد الذي يفسر استمرار وجود شعارات وعبارات مأثورة مثل "الحقيقة" أو "الموضوعية" أو "الوضوح" أو "الأمانة العلمية". حاجتنا إلى الشعور بالأمان، وسذاجتنا والعديد غيرها من غرائزنا المنحطة، التي تُفقِر التنوع والإمكانيات التي يوفرها لنا التاريخ.

يتشابه العلم مع الفن إلى حد بعيد، أكثر مما يمكننا أن نتصور، لأنه لا يوجد به حقيقة أو تقدم حقيقي، بل مجرد تغييرات طفيفة في الأسلوب. يحدد الخيال الإبداعي، وليس عالم الحقائق المحيط بنا، اتجاه العلم.

ولكن عدم اعتراف العلم بطبيعته الخيالية، يحوله في النهاية إلى أيديولوجية أخرى. وينأى حينئذٍ عن الفن، ويقترب من الأسطورة. وعلى الرغم من أن العلم الحديث ليس أكثر من مجرد واحدة من بين الكثير من طرق التفكير التي طورها الإنسان، إلا أن إنجازاته المتعددة جرته في النهاية لتحيزات تتمحور حول مركزية الذات، والرضا عن الذات والجهل والانعزال في الذات، بالإضافة إلى المطالبة لنفسه بمكانة الامتياز المطلق والاحترام والخضوع. وكما رأينا، فقد تأسست على أساطيره العلمية الخاصة واشتراط الإيمان بما لا تراه أعيننا، ليصبح اليوم أقوى مؤسسة دوجماتية على ظهر الكوكب.

توفي توماس صمويل كون بسرطان الرئة، وبول فييرابند، متأثرًا بورم في المخ. توفي الاثنان مبكرًا، ولعلل كان يمكن للعلم تلافيها لو كان قد توصل آنذاك لاكتشاف علاج فعال لها.

قد يتصور شخص ما أنه لو كان العلم قد أنقذ حياتهما (لو كان بوسعه الحفاظ على ضميريّ هذين الشخيص العاقلين)، فلربما كانا قد آمنا في النهاية بفكرة التقدم. ومع ذلك، لم

ينكر كون ولا فييرابند فائدة العملية العلمية. لقد اعترفا دائمًا بإنجازاتها الجزئية وحاولا، قدر الإمكان، الانحياز لها.

لقد رفضا النظرة الأحادية للعلم، ورؤيته عن التقدم كخط مستقيم صوب نوع من الحقيقة كشفتها الحقائق أو الكون.

ويتزايد بمرور الوقت خلو فكرة الحقيقة من أي معنى.

يتعين علينا أن نتحدث بدلًا منها عن الخيال أو المعقولية.



الحاضر، الواقع المفرط
وما بعد الحقيقة*

ما هي ماهية الإنسان اليوم؟ فكّر في شخص يستيقظ كل صباح عند الفجر وسط الريف، بدون تكنولوجيا، وبدون تواصل مع المجتمع سوى لقاءاته العابرة مع أي فلاح آخر، يتناول طعامًا صحيًّا (طعامًا حقيقيًّا)، ويكرس نفسه تمامًا من طلوع الشمس إلى غروبها للاعتناء ببستانه، هل تعتقد أنه سيكون أكثر سعادة منا نحن؟ هل هو في وضعية أقرب أو أبعد من تلك الماهية التي يتعين علينا أن نكون؟

* ما بعد الحقيقة أو الكذب العاطفي: هو مصطلح جديد من الإنجليزية يشير إلى التشويه المتعمد لواقع تكون فيه العواطف والمعتقدات الشخصية لها الأسبقية على الحقائق الموضوعية، من أجل خلق وتشكيل الرأي العام والتأثير على المواقف الاجتماعية، وفقًا لتعريف الأكاديمية الملكية الإسبانية للغة (RAE). وهذا يعني باختصار أن الشيء الذي يبدو على أنه الحقيقة يصبح أكثر أهمية من الحقيقة ذاتها. يعتبر بعض الكتاب أن ما بعد الحقيقة مجرد كذب صرف أو خداع وتدليس ونوع من التخفيف اللغوي يخفي دعاية سياسية أو تلاعبًا إعلاميًا. يعتبر المؤرخ الإيطالي ستيفن فورتي أن ما بعد الحقيقة واحدة من سمات عصرنا، وأنها تستخدم بصورة أكثر شيوعًا ضمن خطاب اليمين المتطرف، وترسخ استخدمها على نطاق واسع بعد وصول دونالد ترامب للبيت الأبيض. يذكر أنه وفقا لقاموس أوكسفورد، يرجع أصل استخدام مصطلح ما بعد الحقيقة (Post Truth)، باللغة الإنجليزية، لأول مرة لعام 1992، من قبل الكاتب المسرحي الصربي الأمريكي ستيف تيش، في مقال نُشر في مجلة الأمة، حيث قال "يؤسفني أننا، كشعب حر، قررنا بحرية العيش في عالم يسود فيه ما بعد الحقيقة"، في إشارة إلى الموقف الأمريكي من إيران، فيما عرف بعد ذلك بفضيحة إيران جيت، أثناء حرب الخليج الأولى. (المترجم)

إنسان بدائي، أحد هؤلاء البشر الذين قال عنهم ليفي شتراوس إن لديه نفس بنى التفكير المنطقي، ويستطيع أن يكون مثلك أو مثلي لو قدر له أن يولد في هذا العصر، فهل كان في عصره أكثر وفاء منا لطبيعتنا الخاصة؟ كان من ناحية أقل (ألينة)* تمردًا ويتعيش من عمله الخاص. ومن ناحية أخرى، كانت حياته أقصر بكثير وكان يقضيها محاطًا بالمنغصات، والألم والمخاطر المحدقة. والآن، اطرح هذا السؤال: ألا تكمن ماهية طبيعتنا تحديدًا في أننا نتصرف كأشخاص وهميين؟

يقدم لنا المجتمع الحديث، بدون أدنى شك، إمكانيات أكبر من أي وقت سابق في التاريخ لنحقق ذواتنا من خلال نشاط حرٍّ وإبداعي، وهو ما يعد واحدًا من الأمور القليلة، إن لم تكن الوحيدة، التي تضفي معنى على حياة الرجال والنساء بالتحديد. ومع ذلك، في نفس الوقت، حري بنا أن نتشكك: هل كل هذه الوفرة من الأوهام مفيدة على الدوام؟ لا أقصد هنا المستوى الأخلاقي، ولا اتساءل إذا كانت أكاذيب دُبرت بحسن أو سوء نية؛ فقد حاولنا التحدث على امتداد هذه الصفحات عن الكذب من منطلق بعيد عن المنظور الأخلاقي، واكتفينا فحسب بالتركيز على المشكلات التي ينطوي عليها كم الأكاذيب. هل يمكننا الأخذ في الحسبان إمكانية أن كل الأمور قد خرجت عن السيطرة؟

* ألينة: مصطلح حداثي يصف المستغربين بالكائنات الفضائية. (المترجم)

وقائع يوم في حياة شخص من عصر ما بعد الحداثة

يتعين على إنسان ما بعد الحداثة، ومثله إنسان العصر الحديث، وإنسان العصور الوسطى، والإنسان القديم، وبالمثل إنسان ما قبل التاريخ، بمجرد أن يضع قدمه على الأرض في الصباح، الاستمرار في الكذب، على جميع من حوله. فيجد نفسه، منذ ارتشاف فنجان القهوة على عجل، مضطرًا كالعادة لكيل المديح للجماعة التي تحتويه وتوفر له الأمان، لمجرد البقاء على قيد الحياة. وبدون أن ينتبه على الأرجح، سوف يحمي الأشخاص الأعزاء عليه من صراحته بأكاذيبه وبأنصاف الحقائق، ونظرًا إلى أنها مسألة معقدة نوعًا ما، يتعين عليه حماية نفسه أيضًا من خلال خداع الذات. كما سيتعين عليه إخفاء رفضه، ولن يتبقى أمامه سبيل آخر، فأثقل الناس على نفسه يشكّلون جزءًا من محيطه. وسوف يتعين عليه، مثل العصور السابقة، وضع العديد من الوجوه المختلفة، وتكييف درجات صوت مختلفة، وإظهار شخصيات مختلفة، وفقا لمن يتعامل معه إذا كانت زوجته، أسرته، جيرانه، معارفه، أصدقاءه، زملاءه في العمل، منافسيه، رئيسه أو أعداءه. الفارق هنا أنه الآن -كإنسان ما بعد الحداثة- سيجد أمامه بمجرد أن يفتح عينيه وسط ظلام حجرته، نافذة مضاءة على العالم الجديد فوق طاولة الفراش الجانبية. وسيتعين عليه الشروع في الكذب قبل أن يتمطى في الفراش. يعرف إنسان ما بعد الحداثه، لأنه مدرب على ذلك، أن مختلف شبكات التواصل الاجتماعي تتشارك قواعد سلوك خاصة بها ويتعين عليه أن يسلك سلوكًا مختلفا وفقًا لموقعه، على الرغم من أنه قد يتفاعلٍ مع العديد منها في نفس الوقت. اعتاد على مر السنين على كلِّ هذا. يبدو

أحيانًا أنه يحمله في جيناته. سيحاول عندما يوجد إنسان عصر ما بعد الحداثة في إحدى شبكات التواصل الاجتماعي التي يتشارك فيها مع جزء من محيط عمله، إخفاء جوانبَ بعينها من حياته، وسوف يكون سلوكه وأسلوب تعبيره شديد الاختلاف عما يقوم به في وسط محلّ ثقته. وسوف يتزايد هذا التظاهر بصورة أكبر إذا كان الوسط مهنيًا بالكامل، وحينئذٍ سوف يكذب بشأن مهاراته، خبرته، وكل ما من شأنه تجميل صورته، لدرجة أنه مع الوقت سوف يصل به الأمر إلى الاعتقاد بأن مبالغاته حدثت بالفعل وأنها تمثل جزءًا من سيرته الذاتية. ولن يتراجع حتى إذا كان السياق أكثر قربًا، ولكن ليس حميميًّا، وسوف يحاول أن يعكس صورة عن نفسه أكثر قربًا قدر الإمكان من التي يتمنى أن يكون عليها. سوف يشعر إنسان ما بعد الحداثة في هذه اللحظات بأنه يكاد يكون قد تحقق، لأنه سوف يتمكن في النهاية من تعزيز آلياته العقلية الخاصة بخداع الذات، معتمدًا على دعم كافة أنواع الوسائط الرقمية. سوف يحقق تقديره للذات المبالغ فيها أمام آخرين بقدر استطاعته، مستخدمًا الصور، المقاطع المصورة، المرشِّحات، أبيات الشعر، الحكم والأمثال، أفكاره الخاصة والمنتحلة، حتى عندما يكون هناك جزء منه مدرك للكذب، وحتى عندما يدرك أن جزءًا من الآخرين لا يصدقه في النهاية. لن يشكل ذلك فارقًا لديه. سوف يتقبل أن شبكات التواصل الاجتماعي تشكل تحدّيًا مستمرًا لقدرته على الإيهام وسيجعله ذلك يشعر أنه يعيش حياة مضغوطة.

لكن ليس كل شخص قادرًا على مواكبة كل هذا الكم من

مستويات الأكاذيب في نفس الوقت. وفي النهاية، إنسان ما بعد الحداثة، يعد بشرًا من لحم ودم. يمكن أن يمر أي شخص بيوم عصيب، خاصة عندما لا يكون قد انتهى بعد من إعداد فنجان جيد من القهوة.

سوف يتناول إنسان ما بعد الحداثة هاتفه الجوال، في واحد من هذه الأصباح، وعيناه شبه مفتوحتين، ليكتب: ياله من رائع! ياله من لطيف! أكاد التهمه! تهانيَّ، استمتع به كثيرًا! وسوف يضيف كمًّا هائل من الابتسامات، وجراءً صغيرة وقلوبًا أسفل صورة ونص الوداع الموجّه إلى كلب مات توًا بمرض اللوكيميا. سوف يتدارك. سوف يحاول محو التعليق. لكنه لن يفلح على ذلك التطبيق، ما زال يشعر أن أصابعه لا تطيعه، بينما بدأ الناس بالفعل الرد عليه وإعادة نشر زلّته. يشعر بأن دماءه تغلي. يعمي الغضب عينيه. يحاول الدخول على تويتر، حيث لديه حسابًا مزيفًا لكي يتخلص من كافة الإهانات، على الرغم من أنه ربما يكون قد لمس بدون أن ينتبه أيقونة الانستجرام. اعتاد هناك أن يترك نفسه ينجرف مع موجة الحب، محاولًا كسب أصدقاء بسهولة والتصالح مع العالم. إلا أنه لم ينتبه بالرغم من ذلك للخطأ الجديد، فيعلق، بمجرد أن يرى شعرًا أشقرًا منسدلًا على أكتاف عارية: لا تثيري الجمهور أكثر من ذلك يا عاهرة. إذا كنت تريدين الكشف عن نهديكِ، فافعلي ذلك مباشرة، ودعك من التلميحات.

هذا ليس يومه بكل تأكيد. كان يتعين عليه تصور ذلك، علاوة على ذلك يعتقد أنه قد انتابه منذ لحظة حدس غامض. إنها ليست

المرأة التي كان يتخيلها. وسيتعرف عندما يكبر الصورة السيلفي (بين الملاءات، وبتبرج كامل بالرغم من ذلك) على الفتاة التي يحاول مغازلتها منذ شهور، مستخدمًا في ذلك أكثر وسائل الخداع عذوبة، والتي كان على وشك تحديد موعد معها في مدينة تقع على مسافة وسط بينهما.

يغلق إنسان عصر ما بعد الحداثة عينيه ويتنفس بعمق. فمازال أمامه يوم عمل طويل. يبدأ جلسات، يستخدم حسابات مختلفة، على موقع شبكة الانترنت الداخلية الخاصة بالشركة، على السحابة حيث يتبادل أرشيف الملفات، على مجموعات محادثات الرسائل النصية، سوف يتفحص ويرد على رسائل البريد الإلكتروني من حسابات بريدية مختلفة، وربما يتصفح الإنترنت بهوية مجهولة بحثًا عن شيء مثير، أو يستخدم واحدة من هوياته المزيفة لتشويه والإضرار بصورة شخص ما، يعلق على أخبار الصحافة، يترك أثرًا يدل على مكانه أينما ذهب، وفي نهاية اليوم، سوف يقوم بتحديث حساباته على مواقع شبكات التواصل الاجتماعي المعتادة. لكن قبل أن يفعل أيًّا من ذلك، سوف ينهض، ويذهب لغسل وجهه ويتحقق من نفس جهاز الهاتف إذا كانوا قد سلموه طلب القهوة أمس.

نرى الآن، كل التعقيدات المتراكمة على سطح العالم حتى القرن العشرين، حيث اكتسبت الصورة خلاله أهمية كبرى، وقد تضخمت عبر هذا البعد الرقمي، الذي يحطم الصورة الشخصية ويعيد عرضها بنفس القوة كما لو كانت علامة تجارية. على الرغم من ذلك، لا يستقبل الجميع هذا

الاستعراض المبالغ فيه بنفس القدر من الحماس، أو يتمتع بنفس الاستعداد للتعامل مع صورته بوصفها علامة تجارية. سوف يكون من الصعب على البعض استيعاب هذا العالم متعدد المستويات الذي ينتشر أمام أعيننا، أو حتى استيعاب أنفسهم، إدراك الصورة الذاتية التي اختلقوها لأنفسهم بطريقة تكاد تكون غير مقصودة، وفشلوا في التعرف عليها.

يتعايش في العالم الافتراضي بشكل تلقائي نقيضا الكذب المستقطبان. من جانب، الفضاءات التي يسمح لنا فيها عدم الكشف عن الهوية والتخلص من كافة الأكاذيب الاجتماعية، واستبدالها بالأكذوبة الوحيدة الخاصة بالهوية الزائفة، التي ستضاف إلى بناء صورتنا الجديدة والمعقدة المنفصلة عنا. وعلى الجانب الآخر، المواقف الأخرى التي تسجل فيها كل تحركاتك الأخيرة جنبًا إلى جنب مع اسمك، مما يجعل قناع هويتك المعتادة يكتسب سمكًا غير متناسب ويصعب التحكم فيه. وفقًا للخبراء، يعدل الناس سلوكهم بصورة متزايدة عندما يوجدون بهوية معروفة على شبكات التواصل الاجتماعي. من يستمعون لموسيقى على منصات تبادل الأغاني قد يتخلون عن سماع ما يحبونه، من أجل أن يمنحوا الأولوية للصورة التي يتطلعون أن يعطوها عن ذوقهم الموسيقي. ويحدث نفس الشيء في باقي الشبكات. وفي نفس الوقت، يصعب تحمل شرط استعراض السعادة الدائم الذي تفرضه جميع شبكات التواصل الاجتماعي. ولا يرجع هذا بسبب الجهد الذي

يستوجبه إظهار هذه الحالة الدائمة من السعادة الزائفة، بل لأنه، مثلما أكد مونتسيكيو قبل ثلاثة قرون، أن المرء لا يسعى لأن يكون سعيدًا، بل لأن يصبح أكثر سعادة من الآخرين. فلطالما اعتقدنا أن الآخرين أكثر سعادة مما هم عليه. على العكس من ذلك، توضح البيانات أن الاستخدام اليومي لشبكات التواصل الاجتماعي ضاعف مخاطر الإصابة بالاكتئاب ثلاث مرات. يشير الباحثون إلى أن الانغماس في العالم الرقمي يؤدي إلى تراجع تقدير الذات، تزايد الشعور بالوحدة بالإضافة إلى صعوبة في تنمية المهارات الاجتماعية التقليدية. وبينما تستمر الهوة بين التصور الافتراضي وحياتي في العالم الخارجي في الاتساع، تتضاعف عواقب الحياة الأولى على الثانية. لدرجة أن يصبح استخدام شبكات التواصل الاجتماعي مُسوغًا للتسريح من العمل، فأي خطأ تقديري عند عرض صورتك، قد يكون سببًا لفقدانك لوظيفتك: عدم إخفائك لصورة غير لائقة في الوقت المناسب، أو بسبب مزحة ثقيلة ربما يُساء فهمها خارج سياقها، أو بسبب انتقاد لشركتك أو لأحد رؤسائك بدون الأخذ في الحسبان من يطلعون على حسابك في الخفاء، أو بسبب الكشف عن معلومات سرية، أو حتى بسبب عدم تمكنك من إخفاء أخطائك اللغوية. كما يتزايد باستمرار عدد الأزواج الذين ينفصلون لأسباب يرجع مصدرها الرئيسي لشبكات التواصل الاجتماعي أو لتطبيقات المحادثات الفورية. ولا يرجع هذا فحسب إلى كونها مصدرًا للخداع والخيانات، بل لأنها تدفعنا إلى المبالغة في تقدير فرص إقامة علاقات جديدة،

ولأنها تدفعنا إلى الاستسلام لوهم مقارنة سعادتنا الشخصية بسعادة الآخرين، أو ربما لأن توقعاتك بشأن رفيقك (الذي تعرفت عليه على شبكة التواصل الاجتماعي) هي التي كانت مبالغًا فيها. بحسب أحدث الشائعات، يعدُّ فيسبوك وحده مسؤولًا عن انفصال ٢٨ مليون زوجًا وزوجة خلال أقل من عشر سنوات. ومع ذلك، تظل الشائعات مجرد شائعات.

بحث حقيقي

نشأت على النحو التالي تقريبًا قصة الشائعة حول الفيسبوك. في العاشر من فبراير من عام ٢٠١٠، نشرت الأكاديمية الأمريكية لمحامي الزواج خبرًا على موقعها الإلكتروني؛ يعدُّ المرجعية الأولى الصلبة التي عثرتُ عليها عندما شرعت في تقصي الخبر المزعوم. يشير محتواه: "تؤكد الغالبية الساحقة بنسبة ٨١٪ من كبار محامي الطلاق في البلاد، أنهم لاحظوا زيادة عدد الدعاوى التي يلجؤون فيها لاستخدام أدلة من شبكات التواصل الاجتماعي". بعد بضعة أيام، في الثامن والعشرين من فبراير، انتهزت مجلة (PCWorld) التاريخ المذكور لإعادة صياغة الرسالة: "لدينا هنا القصة المثالية ليوم الفالنتين: إذا كنت منفصلًا، أو بسبيلك للحصول على الطلاق، فابتعد عن الفيسبوك. وفقًا لإحصائية حديثة لمحامي الطلاق في الولايات المتحدة، يعتبر الفيسبوك "الرائد الذي ليس له منازع" في الحصول على أدلة أونلاين عن الخيانة الزوجية". على هذا النحو أصبح انتشار الخبر لا يمكن إيقافه بالفعل. ليس لأنه مدعم بالإثباتات، أو

لأنه يحظى بدعم متخصصين مهمين، أو لأنه يقدم بيانات بالغة الأهمية. بل لأنه من نوعية الأخبار التي تتمنى وسائل الإعلام تقديمها، لأنهم يعلمون أنها تباع بكثرة، ولا يكترثون إذا كانوا يقدمون أوهامًا وأكاذيب لقرائهم. ولم تتوان شبكة سي إن إن في نقل الخبر، وبثته وكالة رويترز لمشتركيها، ليعاد نشره في عدد لا حصر له من المواقع. جاء عنوان صحيفة لا راثون الإسبانية على النحو التالي: "ما تكتبه على الفيسبوك قد يستخدم ضدك في أي قضية". أما صحيفة الموندو فكتبت: "الفيسبوك يتسبب في ٢٠٪ من حالات الطلاق". ولم يكف محتوى الرسالة عن التفاقم بصورة مطردة. ففي الثالث من يناير عام ٢٠١١، أعلنت مجلة التسويق المباشر (Marketing Directo): "يمكننا أن نعرف الآن، بفضل الفيسبوك، ضمن أسباب عديدة أخرى، الحالة الاجتماعية لأصدقائنا {...}، فلتعلموا أنه يوجد على الأقل ١٥ مليون عَزَبًا جديدًا معلنًا على هذه المنصة الاجتماعية". وسوف يترجم هذا بعد ذلك بخمسة عشر يومًا في صورة عنوان جديد، هذه المرة يتصدر صحيفة الاسبكتادور الكولومبية: "فيسبوك يتسبب في حدوث ٢٨ مليون حالة انفصال". أشار كاتب المقال الأخير لأول مرة، سعيًا منه لإضفاء نوع من المصداقية على مزاعمه، بالإضافة إلى ذكر جمعيات المحامين الأمريكيين بصورة مبهمة، إلى مجلة علم النفس السيبراني، السلوك وشبكات التواصل الاجتماعي (Cyberpsychology, Behavior, and Social Networking) بدون تحديد تاريخ أو رقم عدد المجلة أو اسم كاتب البحث. ولكن، من السهل بالفعل، العثور في مطبوعة متخصصة في دراسة التأثير الاجتماعي والنفسي لشبكات التواصل الاجتماعي، على

وثائق تقدم بيانات حول الموضوع. أصابتني شخصيًا بالارتباك هذه الوفرة في المرجعيات، ولم أتمكن حتى بضعة أيام من كتابة هذه السطور، من استقصاء غالبية البيانات المقدمة من قبل صحيفة الاسبكتادور في مقال بعنوان: "الخيانة، والانفصال، ثم الطلاق: هل يجب إلقاء اللوم على استخدام الفيسبوك؟"، مجلة (Cyberpsychology, Behavior, and Social Networking)، ٢٠١٣، المجلد السادس عشر، العدد العاشر، صفحات رقم ٧١٧ إلى ٧٢٠)، وعلى الرغم من ذلك، لم أتمكن من تأكيد رقم الـ٢٨ مليون المثير للجدل. فقدت الأثر، وأصابني اليأس. أدركت أن هذه المجلة غيرت اسمها منذ عام ٢٠١١، وأصبحت تسمى علم النفس السيبراني والسلوك (CyberPsychology & Behavior). فعاودني الأمل من جديد. ولكنني لم أتمكن أيضًا من التأكد من الرقم الذي كنت أبحث عنه في أي من أعدادها. ومن ثم تخليت عن البحث عند هذه النقطة. من ناحية أخرى، سرعان ما حل الواتس آب محل الفيسبوك بدون مقدمات، مع الاحتفاظ بنفس أعداد حالات الانفصال المليونية، على الرغم من أن "الدراسة الحديثة" غير الموجودة نَسَبَتْها إلى خيار التحقق المزدوج. وانتشر الخبر المكذوب كالنار في الهشيم: أوروبا برس، كادينا سير، لا بانجوراديا، آبي سي، ومرة أخرى، لا راثون والموندو (يتهمون واتس آب الآن بدلًا من الفيسبوك)، لاس بروبينثياس، لا جاثيتا، الكوريو، تليبسيبا واكسلسيور في المكسيك، سيمانا في فنزويلا، والبايس الكولومبية، وسي إن ٢٣ الأرجنتينية، وقنوات تيليمدريد، وأنتينا٣، وبرنامج اندريو بوينافوينتي على القناة السادسة، وبرنامج خوليا أورتيرو وكارلوس إيريرا على

أوندا ثيرو... وفي النهاية، في الـ١١ من أكتوبر عام ٢٠١٣ أوقف الموقع الالكتروني لجريدة البريوديكو الرقمية الوباء: "على مدار الأسبوع الأخير، لعلك قرأت أو سمعت عبر وسائل إعلام ناطقة بالإسبانية أن واتس آب، لم يحدث ثورة فحسب في شكل التواصل، بل إنه التطبيق المسؤول أيضًا عن انفصال ٢٨ مليون زوج وزوجة في جميع أنحاء العالم. كان واحدًا من الأخبار الأكثر قراءة والأوسع انتشارًا على الانترنت. يحتوي جوجل نيوز على أكثر من ١٣٠ مرجعًا من وسائل الإعلام المختلفة الناطقة باللغة الإسبانية. كما ظهر الخبر في إسبانيا في وسائل إعلام مطبوعة ورقميّة. كما شغل مساحة مهمة في برامج الإذاعة والتليفزيون. لكنه خبر كاذب".

أتوجه بالشكر إلى البروفيسور إجناسي روبيرو، بجامعة رامون لول، لإرشادي إلى الطريق الصحيح من خلال مقاله بعنوان "واتس آب ضد الأزواج"، المنشور بمجلة "الإثنولوجيا الكتالونية، عدد رقم ٤١، عام ٢٠١٦، صفحات: ٣٧ إلى ٤٦.

تبقى الإشاعات مجرد إشاعات وقد عثرت في التكنولوجيا الحديثة والانترنت على ضالتها المنشودة لتزدهر. ويبدو أن الصحافيين، وهم المعنيون على وجه الخصوص بالتصدي للشائعات، قد انغمسوا أيضا في هذا التوجه الطاغي، المنهجية الجديدة القائمة على النسخ واللصق بدون مضاهاة المصادر، منسحقين تحت وطأة كمّ وسرعة الخبر، وكلاهما يتناسب عكسيًا مع مصاردهما: تعيش الصحافة أسوأ أزمة في تاريخها، وسط عالم يعج بالأخبار المجانية، مع عجزها عن

العثور على وسائل جديدة للتمويل. ومن جانبهم، المواطنون ليسوا مستعدين للدفع مقابل أخبار أفضل، بينما يستطيعون الحصول مجانًا على أخبار أسوأ. يبدو أن أحدًا لم ينتبه إلى أنه من غير المجدي الحصول على كل الأخبار في المتناول بضغطة يسيرة، طالما سيتعايش نقيضها بجانبها. يحتوي واقعنا الرقمي، على غرار مكتبة برج بابل، نظرية مضادة لكل نظرية. يوجد دائمًا في عالم اليوم، لجميع الحقائق المسجلة، وجميع البيانات، وجميع النظريات، وجميع الفرضيات، نسخ متماثلة على النقيض منها. حجة مضادة لكل حجة. ليس مهمًا إذا كان الأمر يتعلق بقضايا سياسية أو جدول نصائح صحية. لا يهم إذا كنا نتحدث عن رؤى اقتصادية أو الشرح التفصيلي لأصل نزاع حربي أو كيفية الاعتناء بطفلك، فكل حقيقة لها نسختان على الأقل وما هو جيد اليوم سيكون سيئًا غدًا، ليصبح جيِّدًا مرة أخرى بعد فترة لاحقة. نعيش عصرًا، تتمتع فيه محركات البحث بالقدرة على اقتفاء أثر كل شيء، ولهذا بالتحديد، يعدُّ عصر المعلومات هو أيضًا عصر التضليل. تزامن مع عولمة الأسواق، المجتمعات والثقافات أن نشهد أكبر تعددية في وجهات النظر يمكن تصورها، وفي نفس الوقت تقريبًا تماهيها الحتمي. في هذا السيناريو، لا تعتزم، سواء السلطة الاقتصادية أو السياسية المعتادتان على السيطرة منذ الأزل، التخلي بأي حال من الأحوال عن فرض وجهة نظرها من خلال الشبكة العنكبوتية. تكفي نظرة صغيرة على شبكات التواصل الاجتماعي، لإدراك أن الرأسمالية مازالت اليوم المحرك الحقيقي للمعايير الجمالية

المعاصرة، ولا يرجع هذا فحسب إلى غزو الإعلانات لكل شيء، بل لأن غالبية الشعارات والتوجهات دافعها في نهاية المطاف المصالح التجارية. وسوف تستخدم الأحزاب السياسية أيضًا كافة أدوات التكنولوجيا الجديدة المتاحة لديها لهزيمة معارضيها، ووصل الأمر لاتهام حكومات مثل روسيا، مقدونيا الشمالية أو رومانيا، بإنشاء مواقع إلكترونية للأخبار المزيفة، وجيوش من الخلايا الإلكترونية، تستخدمها للتأثير على نتائج الانتخابات، أو تنصيب أو الإطاحة بقادة أجانب، أو تغيير سلوك أو معتقدات السكان، وإضعاف القوى المنافسة في نهاية المطاف.

وسط هذا المناخ المربك، المكتظ بالمعلومات والصور المبالغ فيها والتلاعب الرقمي، والأخبار الزائفة، والبروفيلات المنتحلة وأسراب الخلايا الإلكترونية، حيث تتعايش مستويات متباينة من الواقع، فضلًا عن تضاعف شبكات التواصل الاجتماعي التي لا تتوقف، ظهر مصطلح جديد وكاذب في نفس الوقت وهو "ما بعد الحقيقة".

يعد اختراع ما بعد الحقيقة، في هذه الأوقات التي نحن فيها بحاجة ماسة إلى اختراعات جديدة بشكل شبه يومي لتغذية آلة المعلومات، نتيجة أخرى للشعور الساحق الذي يلجمنا، الإحساس بأننا نتجاوز حدود قدرتنا على صنع الإيهام وإدارة أوهامنا. ولكنها في نفس الوقت كذبة أخرى، أو بعبارة أخرى، ما بعد الكذب، لأنها تكذب بشأن الوضع الجديد للكذب

الحالي. بعبارة أخرى، ألم يعتد الساسة الكذب منذ بداية ظهورهم؟ ألم يلجؤوا للشعبوية دائمًا، البلاغة، والحجج الفارغة، والوعود الزائفة، والحط من شأن الخصوم؟ أليست السفسطة، الخداع، والتدليس، والدعاية قديمة أيضًا بما فيه الكفاية؟

فلاد تيبش المخوزق* وما بعد الحقيقة. الأصل

عندما اعتلى فلاد دراكوليشتي عرش الأفلاق عام ١٤٥٦، كان قد أمضى سنوات طويلة في الإعداد لخوض حربه ضد الأتراك، والبحث عن حلفاء وتعلم تكتيكات حربية. ولم يلبث أن فاق صيت قسوته كافة أرجاء أوروبا. كان حاكمًا واستراتيجيًا قاسيًا، مما جعله يمثّل المقاومة الوحيدة أمام زحف الإمبراطورية العثمانية في هذا الجانب من العالم. ومع ذلك، لم يكن بوسع الـ"ڤويڤودا"، التعويل على اكتشاف الطباعة، أو الاعتماد على استخدامها الفوري في زيادة سطوة حملات التشويه.

* فلاد الثالث، "ڤويڤودا" (وتعني حاكم بالتركية)، (1476-1431)، هو أحد أفراد عائلة دراكوليشتي التي تُمثّل بدورها فرعًا من أفرع عائلة باسراب المتشعّبة، واشتُهر بلقب دراكولا قبل أن يُطلق عليه اسم فلاد المخوزِق، يرجع إطلاق لقب المخوزِق على فلاد الثالث بسبب استخدامه الخازوق في التعذيب، والتخلّص من أعدائه وأسرى الحرب مما أعطاه شهرة تاريخية واسعة. جلس على عرش إمارة الأفلاق في رومانيا ثلاث مرات ودامت أطول فترات حكمه بين عامي 1456 و1462 في أوج الحملات العثمانية للسيطرة على البلقان، وهو واحد من أبناء فلاد الثاني دراكول العضو البارز في تنظيم التنين السري الذي أسسه الإمبراطور الروماني المقدس زيجموند بالتعاون مع باقي ملوك وأمراء أوروبا، لحماية المسيحية في أوروبا الشرقية من المدّ العثماني المسلم. يُعتبر واحدًا من الأبطال القوميين في بلغاريا نظرًا لما عُرف عنه من حماية الأقليات البلغارية المتمركزة في شمال وجنوب سهول نهر الدانوب، مما دفع العديد من عوام البلغار ونبلائهم على حد السواء، إلى الهجرة من شمال الدانوب إلى الأفلاق ومبايعته والمشاركة معه في حملاته ضد العثمانيين. ذاع صيته متخطيًا حدود إمارته ليصل حتى الإمبراطورية الرومانية المقدسة غربًا ودوقية موسكو شرقًا. مثّلت شخصية "فلاد الثالث دراكولا" النواة التي نسج حولها الروائي الإنجليزي برام ستوكر شخصية كونت دراكيولا، مصاص الدماء الأشهر، في روايته الصادرة عام 1897 تحت عنوان "دراكيولا". (المترجم)

قلص فلاد الثالث، خلال سنواته على رأس السلطة، امتيازات النبلاء، وبطش بالمدن التي لم تخضع لسلطته، مما أكسبه أعداء في كل مكان. وعلى هذا النحو، لم تلبث أن ظهرت منشورات تشوه صورته، وتبالغ وتعدد تفاصيل فظائعه. وزعت آلاف المنشورات التشهيرية ضده، عبر شوارع ترانسلفانيا، براشوف، وسيبيو المكتظة بالمستوطنين الألمان والسكسون، غير المستعدين لتقديم الجزية له. وبدأت تنتشر هنا وهناك، وفي جميع المقاطعات المجاورة، منشورات طُبعت في مدن جرمانية مثل نورمبرج، لوبيك، لابيزيج أو ستراسبورج. تروي جميعها على حد سواء، حكايات مروعة، مزينة بأكثر التفاصيل دموية ووحشية. كما انتشرت رسوم إيضاحية نقشت على قوالب خشبية لأولئك الذين لا يستطيعون القراءة.

وعلى غرار كل الأكاذيب الجديرة بالتفاخر، اعتمدت نشأة تلك القصص التشهيرية على أساس من الحقيقة. ولكن بينما كان فلاد المخوزق يضع فكرته الخاصة عن القوة والعدالة موضع التنفيذ، كان ما يختمر ضده شيء غير متوقع على الإطلاق: ربما كانت أول حملة تشويه دولية في تاريخ البشرية. وسرعان ما ستشمل هذه المناورة ليس الترانسيلفانيين والألمان فحسب، ولكن أيضًا البولنديين والليتوانيين والروس والمجريين والصرب والعثمانيين. محاولة جديدة للغاية وغير مسبوقة من أجل ليّ عنق الواقع بواسطة الخيال. كان أمير الأفلاق محاطًا بالخصوم، وكان دعمه الوحيد، صديقه وصهره ماتياس كورفينوس، ملك المجر، وسرعان ما سقط في حبائل الخداع. وفي الوقت الذي بدا فيه تحالفهما لا تنفصم عراه، وصلت إلى كورفينو ثلاث رسائل

مشبوهة، منسوبة إلى فلاد دراكوليشتي وموجهة إلى محمد الثاني، محمد باشا واشتيفان الكبير المولدوفي، يعرض فيها الـ"ڤويڤودا"، ضم قواته لجيش السلطان للقضاء على المجريين. سيتضح بعد قرون أن الرسائل الثلاثة كانت مزيفة، إلا أنه في ذلك التوقيت، استشاط الملك غضبًا وحبس الشخص الذي كان حتى ذلك الحين رفيقه، في زنزانة تحت الأرض طوال أربعة عشر عامًا. وكان هذا الحبس بمثابة بداية النهاية.

انتقل ماتياس كورفينو الحكيم إلى قيادة الحملة الدولية، التي ستتواصل على مدار كل تلك الحقبة، والتي تليها، ولحقب عديدة لاحقة بعد موت فلاد المخوزق عام ١٤٧٦ في ميدان المعركة. نظم الشاعر الألماني الجوال مايكل بنهايم، وهو في خدمة كورفينو، قصيدة بعنوان "قصة مستبد يدعى دراكيولا، حاكم الأفلاق"، يحكي فيها أنه خوزق راهبتين لكي يساعدهما على الصعود للسماء، أو كيف أمر بخوزقة حمار لأنه شرع في النهيق عقب وفاة أصحابه. وثق جابرييل رانيوني، أسقف إيجر، بناء على اقتراح من ملك المجر، شائعة مفادها أنه بينما كان كورفينو في السجن، كان فلاد يصطاد الفئران لتمزيقها إربًا أو خوزقتها في سوارٍ خشبية صغيرة، لأنه لم يستطع التخلص من شروره. كما انتحل أنطونيو بونفيني، مؤرخ بلاط كورفينو، قصته "تاريخ بونانيا" عام ١٤٩٥، المليئة بالقصص العجيبة حول قسوته التي لا نظير لها، ومن بينها، واقعة بعض الرسل الأتراك الذين رفضوا خلع العمائم، فأمر الأمير بتثبيتها بالمسامير فوق رؤوسهم. واستمرت كتابة وانتشار القصص السلافية والروسية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، لتصف أمير الأفلاق على أنه مجنون مختل

عقليًا، سادي وقاتل رهيب. وصاغت الأعمال الألمانية قصصًا مشابهة، وذلك بفضل إدخال المطبعة فحسب، لتصبح باكورة أكثر الكتب مبيعًا في أوروبا. وبالفعل، نشرت طبعات نورمبرج (١٤٩٩) وستراسبورج (١٥٠٠)، لتحسين المبيعات، أعمال حفر على الخشب مطبوعة على أغلفتها تصور فلاد دراكوليشتي يتناول طعام العشاء بين أشلاء جثث ضحاياه المخوزقين.

لم تتوافر بكل تأكيد، لأي من هؤلاء الكُتّاب، والقصاصين سواء في المكان أو الزمان، أي وسيلة للتحقق من تلك التفاصيل الفظيعة.

لطالما تشكلت الأسطورة حول أمير الأفلاق من مسافة بعيدة. وفي الواقع لم يوصف في حياته مطلقًا بلقبه تيبش، المخوزق، والذي يبدو لنا الآن من سماته الأساسية، ولن يُنسب إليه إلا بعد عام ١٥٥٠.

يشير منظرو ما بعد الحقيقة وبعض المحللين السياسيين، إلى أنه من بين السمات الأساسية لهذا الشكل الجديد المزعوم للكذب، التعويل على المشاعر بهدف التأثير على الرأي العام. ولكن، ألم تكن الدعاية ضد فلاد تيبش تتغذى على العواطف والمخاوف الموروثة ونقاط الضعف البشرية؟ ألم تكن مصممة للتلاعب بمعتقدات الناس؟ ما وجه الاختلاف بين تلك الحملة التي بدأت في القرن الخامس عشر وما بعد الحقيقة المعاصرة؟ كما يؤكدون أن ما بعد الحقيقة يحيل آراء الخبراء الراسخة، وحتى الحقائق نفسها إلى مستوى ثانٍ. يتعلق الأمر بحقيقة تتجاوز الحقائق، بنوع من سياسة ما بعد

الواقعية. أليس هذا بالتحديد هو تعريف الكذب بشكل عام والكذب السياسي بشكل خاص؟ ألم يُعلّم السفسطائيون في القرن الخامس قبل الميلاد، كل من أرادوا تكريس أنفسهم للشؤون العامة، أن البلاغة وظيفتها الإقناع وليس الاقتراب من الحقيقة؟ وفي القرن الرابع قبل الميلاد، ألم تحاول المدرسة الكلبية تفنيد الأفكار السائدة والفلاسفة الأكثر توقيرًا من خلال السخرية أو الهجاء؟ ألم تسع كل الأنظمة الشمولية إلى إعادة كتابة الحقائق وتجنيد أبواقها المعتمدة وتشويه سمعة الخبراء المعارضين؟

وعقب اكتشاف الإصدارات المحمولة، ألم تستوف تلك الشروط كافة حروب المنشورات التي بدأت في التعاقب، مثل التي أطلق شرارتها مارتن لوثر ضد الكنيسة الكاثوليكية، أو حروب المنشورات المستمرة في عصر الملكة إليزابيث، أو المنازعات التي شهدتها الثورة الإنجليزية أو الثورة الأمريكية؟ ما الذي بقى أصيلًا إذن في إطار مفهوم ما بعد الحقيقة؟ يمكننا الزعم بأن تفرده الوحيد يكمن في التضليل، ولكن سون تزو أوضح بالفعل في فن الحرب، منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام، كيفية إثارة الفتنة بين الأعداء من خلال اختلاق معلومات كاذبة وتقديمها من قبل الجواسيس. قد يسعنا المجازفة بالقول إن السر يكمن في التلاعب الرقمي، إلا أننا نعلم أن وضع رتوش للصور وإعادة تركيب الصورة يرجعان إلى بدايات التصوير الفوتوغرافي نفسه، والتدليس سمة أصيلة في الجنس

البشري. المؤكد هو أن ما بعد الحقيقة تعد في النهاية آخر فكرة في سلسلة أوهامنا الممتدة. ولا توجد سمة نوعية تتيح لنا الحديث عن ما بعد الحقيقة، يمكننا تناولها من منظور كمّي فحسب: أدت التكنولوجيات الجديدة والعولمة إلى مضاعفة عواقب الكذب بصورة كبيرة للغاية؛ وأصبح لحيل الخداع أبعادٌ أكبر وتبعات أكبر من أي وقت مضى، ولكن في نفس الوقت أيضًا، أصبح وعي الناس أكبر بكثير تجاه الخطاب المنتشر حولهم.

لقد أعطت الديموقراطية التكنولوجية الفرصة للجميع. ويقودنا هذا إلى التغيير الحقيقي في العصر الذي كان من نصيبنا أن نعيش فيه. فعلى الرغم من استمرار السلطة الاقتصادية والسياسية في أيدي الأشخاص أنفسهم، قلة قليلة مازالت تحتفظ بسلطة النشر، ويستطيع كل من كان أن يدلي برأيه الآن. بالطبع كلّ الناس يدلون بآرائهم، حول أي شيء، وفي أي شيء على وجه الخصوص. المهم في الأمر أن يكون لديك رأي قاطع. ومن ثم فإن عصرنا هو عصر الرأي. وتمخض عن هذه الحاجة الملحة لإبداء الرأي في كل شيء غابة كثيفة ومتشابكة، ذات سمك دقيق بحيث يتاح لجميع المواطنين الصراخ دون أن يسمعنا أحد على الإطلاق. هذه، من الناحية العملية، هي الطريقة التي فقدنا بها جميعًا أصواتنا مرة أخرى. عندما يكتب كل الناس، عندما يتكلم كل الناس لمجرد الكلام، عندما نجد أن الشخص الأقل خبرة في الموضوع يكتفي بنظرة من هنا

ومن هناك لنشر مقال، عندما تكتفي الأغلبية بنسخ المعلومات من مكان آخر، عندما نجد أن معظم ما يحدث في شبكات التواصل الاجتماعي هو مشاركة، وإعادة انتاج ونشر أفكار، عبارات، صور، أخطاء، أو أكاذيب آخرين، يصبح من الصعب العثور بين الغث الذي لا ينتهي على شيء ثمين. لا يوجد ما بعد الحقيقة، بل فوضى عارمة من الآراء استحوذت على الواقع الافتراضي، وأفسدته وحولته إلى مكان غريب تتجذر فيه الشائعات، وتُتناقل فيه بسهولة مدهشة الأخبار الكاذبة، والأخبار المزورة، وسلاسل لا تنتهي من الرسائل الخادعة، وتتراكم فيه جبال من القمامة الرقمية، وتنتشر فيه بقوة نظريات المؤامرة والبارانويا العالمية. لو تأملناه بروية، لوجدنا أن ما بعد الحداثة كان لها دور كبير في هذا. تمكنت على مر السنين من جعل نسبيتها تتغلغل في المجتمع، على الرغم من أن تلك الرؤية ساعدت في وضع الكثير من القيم التي تستحق التخلص منها على المحك، ووضع الأمور في نصابها المستحق، كما مهدت الطريق أيضًا أمام إمبراطورية الآراء. تستخدم نفس تلك الآراء أو (التكهنات*) التي اعتبرها أفلاطون أسوأ صور المعرفة انحطاطًا وخداعًا؛ كان يقول إن المتكهنين يستخدمون المعرفة الزائفة والمظاهر لمنفعتهم الشخصية أو للترقي اجتماعيًا، إنهم أولئك الأشخاص الذين تندفع كلماتهم في

* كلمة يونانية قديمة تعني ضمن معانٍ أخرى: يظهر، يبدو، يفكر يقبل، وتعني أيضًا يتكهن، وكانت مستخدمة على عهد أفلاطون في سياق إبداء الرأي بناء على تكهن وعدم معرفة رغبة في حب الظهور، واشتق منها الشخص (doxóforos) وتعني محبي الظهور الذين يسعون لإبداء رأيهم بدون دراية أو معرفة. (المترجم)

الأجورا (ملتقى الفلاسفة) أسرع من تفكيرهم. الأمر أشبه بالرجوع إلى الخلف. وكأن الرحلة التي استغرقت العديد من القرون كانت على مرمى حجر من الإلقاء بنا عند نفس نقطة البداية. في البداية، كان يتعين على تفكيك ما بعد الحداثة إلقاء بعضٍ من الخيال المثقف، المرح، والشيق فوق العشب الضار والحطام. وهكذا تم الأمر، لأنه عثر أيضًا في الشبكة العنكبوتية على ضالته المنشودة لكي يترعرع: فقد سهلت الروابط التشعبية أو الوصلات السريعة وغيرها من الأشكال الجديدة للوسائط المتعددة، التناصّ، التزوير الفني، المحاكاة، اللعب، والتفاعل، كما اكتسبت الاستعراضات بُعدًا لم يكن في مقدورها حتى أن تحلم به من قبل؛ وانتشرت الأعمال أيضًا (الروايات، السرد المقالي، الأفلام، المسلسلات التليفزيونية) التي يدور موضوعها حول التدليس، الواقع الافتراضي، شبكات التواصل الاجتماعي، عالم قراصنة الانترنت، المحاكاة وتجارب الأداء، العولمة، التلاعب الإعلامي، المؤامرات الدولية، الفساد السياسي، التقارير المصنفة سري للغاية، أكاذيب الشركات متعددة الجنسيات، والمضاربات المالية. وسوف يظهر عدد لا يحصى من الأعمال النقدية التي بدورها ستحلل كل هذه القضايا، بحيث يصبح القراء والمشاهدون، الذين يتأثرون كل يوم بكل تعقيدات الأشكال الجديدة للأكاذيب المعاصرة، أكثر وعيًا بمستويات الخداع العديدة المنتشرة من حولهم، وسوف يضيف هذا مستويات أخرى جديدة من الوعي، والمزيد من المتاهات لنضيع فيها. بالرغم من ذلك، لعبت ما

بعد الحداثة دور حصان طروادة. فقد تسببت، بالإضافة إلى كل هذه العناصر الجمالية في انفجار آراء عنيف، مثل سيل عارم استحوذ على فضاءاتنا واقتحم حتى آخر ركن قصيٍّ خاصٍّ بنا. ساعدت هذه الآراء وتلك، على نشأة هذه الواقعية المفرطة الكثيفة والمتداخلة التي توقعنا في شباكها وتكاد تمنعنا من الحركة.

يؤكد بودريار أن الواقعية المفرطة هي واقع مبالغ فيه. نوع من الإحلال لما هو حقيقي. لكن بودريار جانبه الصواب. فمتى كان الواقع حقيقيًا؟ وهل اقترب الإنسان من الواقع؟ إذا اتفقنا على أننا لسنا مؤهلين لبلوغ الواقع في حد ذاته، لو تقبلنا فكرة أن الواقع كان دائمًا بناء قائمًا على أساس من الخيالات، فإن الواقعية المفرطة تصبح حينئذ مجرد تكثيف لنفس السراب. وإذا كانت ما بعد الحقيقة، ليست أكثر من خطوة أخرى للحيوان المجازي تدل على أننا نمضي في نفس الاتجاه بالضبط. فإن الواقعية المفرطة تعتبر تساميًا لتصورنا عن العالم، واستمرار ميلنا الذي لا يمكن كبحه للجنوح إلى الخيال. في العصر الحجري، كانوا يستخدمون الفخار والشحوم لتغيير المظهر؛ سيحل بعد ذلك تطور تقنيات التبرج؛ والآن فوق طبقات مستحضرات التجميل التي تستخدمها عارضة الأزياء، نضيف التصميم الرقمي، خداعًا فوق خداع، نعتزم من خلاله المضي لأبعد مدى في علمية سعينا نحو المثالية. إنه خيال يترسخ فوق الخيال في دائرة خطيرة. وهكذا، فإن قوانين الواقعية المفرطة

ستملي علينا أنه عندما تصبح عارضة أزياء تعد نموذجًا يحتذى لعامة النساء، نحيفة، فسوف تؤثر بصورة مباشرة في بيئتها المحيطة، ولكن نتيجة لذلك، عندما تصبح عموم النساء نحيفات أيضًا، فإن العارضة النجمة ستجد نفسها مضطرة لأن تصبح أكثر نحافة، لتستعيد تميزها عن الأخريات، وتتمكن من الاستمرار مثالًا يتحذى بالنسبة لمجتمعها. مكنتنا الابتكارات الرقمية التي لا تتوقف من المضي بهذه المثل إلى أبعد مدى، حتى لو كان الانحراف في هذه الدائرة ليس مستدامًا بكل تأكيد. أما أكثر ما يثير القلق في كل هذا فهو عشوائية انجراف الموضات والواقعية المفرطة، فالقوانين صارت إلى ما هي عليه، مثلما كان يمكن أن تكون قوانين أخرى غيرها. لأن ما بعد الحداثة، بوصفها إحدى مظاهر الرأسمالية المتأخرة، تركتنا بين أيدي المطالب الوحيدة لرأس المال، وهو أعمى. دفعتنا هذه المطالب، في الوقت الراهن نحو إفقار التفاصيل والملامح، لصالح الواقعية والحدة. ولكن الحدة بشأن ماذا؟

وتمثل الواقعية المفرطة بالنسبة للواقع ما تمثله في الوقت الراهن المواد الإباحية ذات الجودة العالية بالنسبة للجنس، في صيغتها الهزلية أكثر من تساميها. هذا هو الوضع الذي آلت إليه الواقعية المفرطة، بعد كل هذا، مجرد الكثير من الألعاب النارية. وتمثل شبكات التواصل الاجتماعي أقصى درجات الهزل في هذا الواقع المفرط من حيث الشكليات، فنحاول من خلالها التظاهر بأننا ما يتمنى آخرون أن نكون عليه.

نعيش عصر الرأي، الآراء التي لا أساس لها، الآراء غير القائمة على البحث أو التحليل، الآراء غير العلمية، الآراء المناقضة للحقائق، الآراء حبًا في إبداء الرأي، ومن منطلق القناعة بأن الكل سواء. ومن خلالها تسربت النسبية إلى واقعيتنا المفرطة الافتراضية الجديدة، بنسبة أكبر وبطريقة أكثر تدنيًا مما كان يتصور دعاة ما بعد الحداثة.

وتأتي هذه الفرضية الضخمة، الملوثة بالتكهن، لتكمل، جنبًا إلى جنب مع الكذب الحميم والكذب الاجتماعي المعتاد، المستويات الثلاثة للكذب التي تتوافق حول الإنسان المعاصر.

ومن هنا تأتي الحاجة في هذه الأوقات للتشذيب. يتعين علينا التخلص من الفائض والكف عن إطاعة السوق فحسب، إذا كنا لا نريد أن نموت مختنقين. إذا كنا لا نريد أن نموت من الوهم*.

* انتبه، هذا الفصل بالكامل قائم على كذبة كبرى: مغالطة عرقية مفادها أن السواد الأعظم من البشرية ينتمي إلى مجتمع حر إلى حد ما، متقدم إلى حد ما، ويتمتع بقدر كبير من الرفاه. دون الأخذ في الحسبان أنه من بين سبع مليارات و400 مليون نسمة من سكان الكوكب، هناك ثلاث مليارات و500 مليون نسمة فحسب يستخدمون الانترنت. ومن بين هؤلاء مليار فحسب ينتمون إلى دول متقدمة، بوسعها ضمان شمول رقمي فعال، يتيح لهم الوصول إلى كل المحتويات، والتعليم، والأمن، والقدرة الشرائية أو حرية تحقيق ذاتهم بالكامل. بعبارة أخرى، بالنسبة لستة من كل سبعة أشخاص في العالم، لا تشكل الأوهام المفرطة المذكورة آنفًا جزءًا من واقعهم، ولو حتى من بعيد، في بعض الأحوال. (المؤلف)

الحب

ثم، ذات يوم، وسط وهم العالم، وخدع الثقافة، وزخرف المدن، العالقة في فخاخ الكذب، بينما يتزايد إنهاكها أكثر فأكثر من مواصلة المشاركة في المهزلة، وعندما أوشكنا على التخلي عن البحث عن مغزى والاستسلام، وقعنا في الحب.

تعارف هو وهي في لحظة سحريّة تمامًا، لا تتكرر، مثل تلك التي لطالما راودت أحلامهما. أدركا على الفور أن كلًّا منهما خُلق من أجل الآخر، وأنه هكذا كُتب لمصيرهما أن يكون. وفي النهاية، يتمكنان لمرّة في عمرهما أن يعيشا لحظة حقيقية ويظهر الحب الحقيقي. حبٌّ، ربما سيكون خالدًا.

ومرة أخرى، كل هذا كذب، بكل تأكيد.

لا توجد لحظة أخرى في حياتنا نكون فيها ضحايا للخداع إلى هذا الحد، مثل تلك التي يتمكن فيها الحب منّا. ستجد الأساطير والأكاذيب الاجتماعية الثقافية، التي طالما ضللتنا، في هذه اللحظة، الضرورية للغاية لبقاء الجنس البشري على قيد الحياة، حليفًا أكثر سطوة منهما: الكيمياء الفسيولوجية

الخاصة ببنيتنا العضوية، والتي ستخوننا وتسلبنا لبُّنا أكثر من تأثير أي مخدر في العالم علينا. لا توجد أي مادة أخرى لها ذات التأثير النفسي يمكن أن تجعلنا مخدوعين لفترة طويلة، وفي الوقت نفسه، تجعلنا نظن أننا نقرر بحرية وأن نبقى نحن أنفسنا.

وصل هو إلى الحفل على أمل مقابلة شخص يعرفه. كان الحديث الذي طرحوه عليه قبل بضعة دقائق شيّقًا، فاقترب من هناك مقتنعًا بأنه مازال بوسعه إجراء اتصالات مفيدة. يشعر منذ بضعة أسابيع بقليل من التوتر في العمل، ولكنه يحاول إخفاءه وعدم التحدث كثيرًا عن الموضوع. وعلى عدم إدراكه لذلك، إلا أن الكورتيزول الذي أطلق التوتر في مجرى الدم يجعله أكثر انفتاحًا على إقامة علاقة عاطفية تهدئه.

حل زرار ياقة قميصه وحل رابطة عنقه. ملأ رئتيه بالهواء، محاولًا تهدئة روعه، وتلفت حواليه. يتصور أنه يبحث عن وجوه مألوفة، يخيل إليه أنه قد رآها من قبل عبر الممرات أو على صفحات الانترنت، وقد يكونون بالنسبة له بمثابة مكافأة نوعًا ما. يدرك نسبيًا أنه ألقى نظرة سريعة على النساء الموجودات في القاعة. لا يستطيع تحاشي ذلك، يحدث نفسه. ما لا يعلمه مجددًا هو كيف كانت هذه النظرة. لقد برمجنا جنسنا على أن نكون قادرين على تفسير أقصى قدر ممكن من المعلومات الجينية عن الجنس الآخر بأسرع ما يمكن. على الرغم من أن آخر ما يدور في ذهنه في تلك الليلة هو التكاثر والإنجاب، إلا

أنه لا يبالي على الإطلاق بمسألة النوع تلك: ليس التكاثر هو دافعه الوحيد في أوقات كهذه، ولكن أيضًا العثور على أفضل الجينات الممكنة، أن تتحلى شريكته المحتملة بظروف إنجابية مثالية، ويضمن كذلك أفضل فرص البقاء على قيد الحياة لأطفالهم. ومن ثم عندما عاين النساء في القاعة، توقفت نظراته لعدة مرات على الوجوه بحثًا عن التناسق الذي قد يؤكد له عدم وجود عدوى أو مشاكل سوء تغذية في الطفولة. ثم هبط بعد ذلك بنفس سرعة الدوار، إلى الصدر، رمز الخصوبة. وأخيرًا، وصل إلى الخصر والأرداف لجميع الشابات الموجودات، ووجدهن جميعًا جذابات، وبشكل خاص أولئك اللاتي لديهن خصر أصغر من الردفين بنسبة سبعين في المائة على الأقل، وهو مؤشر واضح على أنهن يمكن أن يكنّ أمهات قادرات على الإنجاب ومربيات جيدات.

لم يدر بخلده، شئ من كل هذا. كما لم يقرر بشأنه أو تمكن من تسجيله. فقد تولى عقله (الخائن الحقيقي والمتآمر على بني جنسه) زمام الأمور.

حينئذٍ، يراها، من قد يدعى كارلوس، أو إستيبان.

أما هي فكانت آنذاك، شاردة بالطبع. كانت تفكر قبل برهة، إنها ليلة كأي ليلة، كان يمكنها البقاء في المنزل، بدون هذا الكعب المرتفع اللعين، وكان بوسعها الاستلقاء مسترخية على الأريكة، ولم تكن مضطرة بالضرورة أن تتعامل بمثالية أو تدعي اللطافة مع الجميع.

بالرغم من ذلك، لم تشعر منذ فترة، بالسعادة في المنزل أيضًا. تتجاهل الأمر تمامًا، إلا أن هورمون الكورتيزول يسري أيضا في دمائها ويجعلها تشعر بالضيق. فلم تعد تستمتع بوحدتها كثيرًا مثل السابق، وتفتقد الشعور بالأمان الذي طالما انتابها في مرات سابقة، عندما كانت بصحبة شخص آخر. يرتبط الضغط الاجتماعي أيضًا باستعدادها مؤخرًا للعثور على رفيق عاطفي. يبدأ المجتمع في اعتبار أنها لم تعد في السن التي تسمح لها بالبقاء عزباء (سنجل). تقول لها جميع صديقاتها المرتبطات إنه من الأفضل أن تكون مرتبطة، بدون الحاجة إلى الخروج ليلًا. وأمها، خصوصًا أمها.

حينئذٍ تراه.

تتلاقى نظراتهما في لحظة لا مثيل لها، ويلاحظان تصاعد نبضات قلبيهما.

ترقب كيف يقترب منها، هازًا كتفيه بشكل لا يكاد يلحظ بينما يؤرجح ذراعيه، بصورة تجعله يبدو أكثر ضخامة. وأكثر جاذبية. كثيف الحاجبين وذو فك عريض، وهذه من ثم علامات على أنه أفرز في مرحلة سن البلوغ كميات ضخمة من هورمون التستوستيرون، ويمكن أن يكون أبًا جيدًا. لم ينشغل وعيها بمعالجة أيٍّ من هذه المعطيات. وبينما اهتم مخها وجهازها العصبي بالكامل بخداعها، انشغل ذهنها بالتفكير في كمْ أثارتها نظرته، ومدى إعجابها بالأغنية التي تتردد في الخلفية وإذا

كانت ستجرؤ حقًا على التحدث إليه.

- اسمي إستيبان (يخاطبها الرجل مادًّا يده إليها مصافحًا).

تشد المرأة الشابة على يده، ولكن بدلًا من المصافحة تستخدمها في جذبه نحوها وتقبل وجنتيه، بغرض (عن وعي هذه المرة)، التعبير عن قربها. تهمس مبتسمة:

- فيوليتا.

تتعانق نظراتهما مرة أخرى، الآن على مسافة نصف متر. ويمكن لكل واحد منهما تأكيد أنه عثر على نصفه الحلو.

ومع ذلك، فإن أسطورة توأم الروح أو نصفك الآخر ترجع إلى أرسطفان*، وفي الحقيقة، إنها مجرد خيال أساطير شعبية تعززت بقوة على مر التاريخ، وتسببت في توقعات مبالغ فيها بشأن شكل الصورة التي يجب أن تكون عليها العلاقة، وترتب عليها إحباطات وخيبات أمل كبيرة**. وبرغم كل شيء،

* أرِسْطُفان أو أرِسْطُفانِس (446-386 ق.م. تقريبا): مؤلف مسرحي كوميدي يعد من رواد المسرح الساخر في اليونان القديمة. لم يتبق من أعماله سوى إحدى عشرة مسرحية، وفيها يسخر من كل أنواع البشر، بما فيهم الشخصيات المعروفة أمثال سقراط الذي كان يعدّه صديقًا، كانت مسرحياته تغص بالنكات والمبالغات والنقد السياسي اللاذع على الرغم من إلباسها بمهارة فائقة ثوب العبارات الهزلية. (المترجم)

** ينسب أفلاطون في "الندوة" أصل هذه الأسطورة إلى أرسطفان، الذي أكد على ما يبدو أنه في بداية الزمان كانت هناك ثلاثة أجناس: المذكر، نسل الشمس، والمؤنث، نسل الأرض، والمخنث، الأكثر عيوبًا بين الثلاثة وهو من نسل القمر. وكان لهؤلاء البشر البدائيين أربع أذرع، وأربع أقدام ووجهان برأس واحدة. وكانوا جميعًا شديدي التهور لدرجة تبني فكرة الصعود إلى السماء لمصارعة الآلهة. أغضب ذلك زيوس فقرر معاقبتهم:

لن أحطمهم (قال ذلك لمن أراد الإنصات إليه في جبل الأوليمب). ولكن سوف أقلل من جرأتهم بشطرهم إلى نصفين. وهكذا سيصبحون أكثر ضعفًا، وسوف يسيرون منتصبين مرتكزين على قدمين فحسب. وإذا استمروا بعد ذلك في التحلي بجرأتهم غير الشريفة، فسأقسمهم مرة أخرى وسيضطرون إلى القفز على قدم واحدة. وسيبذل النصفان البشريان، منذ اللحظة التي انفصلا

لا يستطيع أيٌّ منهما تجنب أن يترك نفسه للخداع بالثقافة التي ينتميان إليها. ومع ذلك عند هذه المرحلة، لم يعد لهذا أهمية كبيرة. فقد تعرضا بالإضافة إلى ذلك، للغزو قبل برهة من قبل جيش كيميائي لن يسمح لهما باتخاذ أي قرار آخر من الآن فصاعدًا. كما بدأت نواة الدماغ المتوسط المسؤولة عن التحكم في الشعور في إفراز كميات هائلة من الدوبامين والنُورإِبينِفْرِين، المسؤولَيْن عن النشوة والإثارة والرغبة، وفي نفس الوقت انخفضت لديهما مستويات السيروتونين بصورة خطيرة. وبهذه الطريقة، تتمكن الغدة التي ظلت على مدار ملايين السنين تراكم المعرفة، من ردع المناطق الدماغية التي تعالج فيها المشاعر السلبية والأحكام النقدية. على العكس من ذلك، في نفس الوقت، لتوضيح الأمر لأنفسهم، سوف يلجأ الشابان إلى الأسطورة مجددًا (هذه المرة على الطريقة الرومانية، التي حولت إيروس إلى كيوبيد وسلحته بقوس وسهام). وسيفكران بكل سهولة أنهما شعرا بسهم أصابهما.

– لم أستطع أن أرى إلا عينيك فقط من مكاني (كذب إستيبان).

الآن، في الواقع، لا يتوقف عن النظر إليهما. ومع ذلك، يجري دماغه أيضًا اختبارًا صارمًا للمسافة بين عين وأخرى،

فيها، جهودًا جبارة كي يعثر بعضهما على بعض، وعندما يتمكنون من ذلك، لن يرغبوا أبدًا في الانفصال مرة أخرى. بالنسبة إلى أرسطفان، كان الأدنى من بين الأنواع الثلاثة الناتجة عن الحب، هو الحب بين الرجل والمرأة، لأنه يتألف من اتحاد مخنث بين نقيضين؛ فوق هذه الفئة كان من الضروري وضع الحب بين امرأتين؛ ويأتي فوق كليهما محبة الرجل للرجل التي كانت بلا شك أكثر نبلًا. وهنا يكمن أساس أسطورة النصف الآخر أو النصف الحلو. (المؤلف)

والمسافة التي يحتلانها بالنسبة للأنف، ويتحقق من أن عرض الأنف يطابق عرض الفم. ويتبع في كل هذا معيارًا ذهبيًا يؤكد وجود جينات صحية وقوية. من الأهمية بمكان بالفعل وجود عينين واسعتين. وحاجبين رقيقين أيضًا وذقن صغير بارز، تدل على أن فيوليتا أفرزت في سن البلوغ كميات هائلة من البروجسترون والإستروجين، وهذا يجعلها حاملة لجهاز تناسلي كفء.

أما هي، التي عادة ما تظهر ازدراءها بتعليق ساخر على مثل هذا الهراء، تجده ساحرًا. فتعاود الابتسام، وهي تغطي وجهها بيديها في إيماءة تواضع زائف.

يحافظ الدوبامين على استثارتهما ويجعلهما متحفزين لأي مثيرات جديدة. ويتيح لهما النُورإِبينِفْرِين تذكر أدق التفاصيل طوال شهور قادمة. أما الآن فإن فيوليتا مازالت قادرة على استدعاء رائحة إستيبان في مخيلتها، وذلك بفضل لحظة مصافحتهما فحسب.

أي نوع عطر تستخدم؟ (تسأله، إلا أنها في الحقيقة حجة لتعاود تنشّق الرائحة المنبعثة من جلد قفاه وعنقه).

وعلى الرغم من أنها لم تأخذ الأمر في الحسبان، شاءت الصدفة أنها بدأت في التبويض في هذه الليلة، إما بفعل السحر، وإما بفعل القدر. كانت أعضاؤها مهيّأة بشكل خاص للإنجاب. ورائحة الأندروستيرون، التي عادة ما تزعجها، وتذكرها بصالة

الألعاب الرياضية أو حانة سائقي الشاحنات، تبدو آسرة بالنسبة لها الآن.

- تسحرني (تؤكد هامسة في أذنيه).

بالنسبة لعقلها البدائي أيضًا: يخبرها التوافق النسيجي من رائحته أن نظاميهما المناعي متكاملان، وأنهما ليسا متشابهين في أي شيء، وليس لديهما انحيازات عائلية، وهذا سيؤدي لإنجاب أبناء أكثر مقاومة.

لحسن حظها، تتسبب مرحلة التبويض لديها أيضًا في تأثيرات مضافة أخرى: تبدو بشرتها أكثر تألقًا؛ نبرة صوتها أكثر حدة، أي أكثر جاذبية، لأن غريزته سوف تترجمها على أنها تعبير عن نسبة أكبر من الاستروجين؛ والأهم من كل ذلك، سوف تتغير رائحتها الشخصية، وستصبح معبقة بهورمون الكوبولين، وهو ما يجعلها في هذه اللحظة لا تقاوم لدى أي رجل على مقربة كافية منها.

لا يسع إستيبان الكف عن الإعجاب بها مذهولًا. لا يتصور أنه انتابه شعور مماثل من قبل. يدفعه تراجع مستوى السيروتونين، بالفعل في هذه الدقائق الأولى، إلى أن لا يركز بصره على شيء سواها، ويشرع في التعبير عن أولى علامات الهوس بها. تبدو له المرأة الأكثر جاذبية في العالم. لا يمكنه تخيل أنه وقع ضحية خداع، وأن الكوبولين الذي توغل في رئتيه ألغى بالكامل قدرته المعرفية على تقييم جاذبية فيوليتا.

وبالفعل، لولا هذا السراب الناتج عن تأثير الكيمياء، لبدت له فتاة عادية للغاية.

ولكن يشرع في الحديث بلا انقطاع من شدة حماسه. يريد أن يخبرها بكل شيء عن نفسه.

تصغي له باهتمام. استثمارها، في حال أصبحت حبلى، أجله أطول بكثير من استثمار الشخص الواقف أمامها، ولاتكتفي غريزتها الأنثوية (على عكس ما يحدث مع غريزة الذكورة)، بالمعلومات الجينية فحسب التي استطاعت الاستعلام عنها من خلال الملاحظة بالعين والأنف. كما لا تكفيها، على الرغم من كونها عوامل مساعدة، ربطة عنقه الحريرية المختارة بذوق رائع، حذاؤه الأنيق، أو أسلوب تصفيف شعره العفوي الذي أضفى عليه مظهرًا لطيفًا. يحتاج عقلها البدائي لمعرفة المزيد من الأمور، بيانات حقيقية تتيح لها الشعور بأنه شخص جدير بالثقة، رجل لديه مميزات، لديه القدرة على الدخول في التزام وأن يمنحها الأمان. ولهذا، لا تتوقف فيوليتا، من بين الضحكات، وبعد الاقتناع بأن سلوكه بريء، وعلاوة على ذلك مختلف، عن جلده بالأسئلة.

سيمارسان الحب تلك الليلة.

وسوف تكون تجربة فريدة، تحت تأثير الهرمونات والناقلات العصبية. سوف يغمر الدوبامين مراكز اللذة في دماغيهما، محدثًا نفس تأثير الكوكايين، وسوف تنفتح

حواسُّهما على أقل المثيرات. سيكون أقل تلامس للبشرة سببًا لانبعاث اللذة. سوف يكون بوسعها قياس مستويات التستوستيرون في لعابه. وسيكون بوسعه الارتواء من إفرازات كوبولين جديدة من تدفقات مهبلها. المثيرات البصرية، حيث سيبدو التعري غير المسبوق لأحدهما أمام الآخر، محمّلًا بالمعاني. سوف تتغلغل الموسيقى التي ستختارها على هاتفها الجوال عبر حواسه بقوة غير عادية، لتحتفظ بكل لحن مسجل بها على مدار أسابيع، بل شهور. نفس الشيء سوف يحدث مع روائح الحجرة، وملمس الملاءات، مع طريقة تسرب الضوء عبر النافذة عند طلوع الصبح. سُجِّل كل شيء في ذكرياته. ومع ذلك على العكس، لم يصاحب هذا النوع من استبصار الوعي، إتقان في التناغم. حدث عكس ذلك في كل الأحوال، وهنا مكمن الخداع.

استُبِعد كلٌّ من الذكاء والحالة الفطرية للوعي من العملية برمتها.

سوف يعيش إستيبان وفيوليتا تغييرات جديدة خلال الأيام التالية.

وسوف يتسبب نظام المكافآت الذي تم تفعيله في مراكز المتعة لديهما إلى حدوث إدمان قوي. سيرغبان في المزيد من نفس الشيء، وسوف يشعران بعدم القدرة على الكفّ عن البحث عن المزيد من الجرعات الجديدة. سوف

يحتاجان لمعاودة رؤية بعضهما لبعض، تنشق بعضهما بعضًا والتلامس. ولن يفكرا في أي شيء آخر سوى تكرار لقائهما الحميمي، لمرات عديدة كلما تيسَّر لهما إلى ذلك سبيلًا. تحتاج الطبيعة للتأكد من أن الجماع المتكرر أسفر عن حدوث التأثير المأمول. ولهذا يتواصل التلاعب بتفكير ضحاياها: سيشعران بتعلق عاطفي وتعلق جسدي وسيخضع سلوكهما للتصرفات القهرية، والهوس، وسينحصر تفكير كلٍّ منهما في الآخر، وسيقاسيان تغيرات مزاجية مثل المراهقين ومدمني المخدرات. وسوف تتغير شخصياتهما بصورة عرضية ليرضي كلٌّ منهما الآخر. وسوف يشوهان الحقيقة كما لم يفعلا من قبل، ولن يفعلا حتى يقعا في الحب من جديد.

لا أستطيع العيش بدونك.

ولن يكف إستيبان وفيوليتا، على مدار الشهور التالية، عن تذكير أحدهما الآخر بتفاصيل الليلة التي تعارفا فيها. الأغنية التي ترددت في تلك اللحظة، النظرة الأولى، القبلة الأولى. سينقحان الرواية ويحرفانها لكي يسهل عليهما استدعاؤها، وسوف يجعلان منها الذكرى الافتتاحية لعلاقتهما، الأولى بين ذكريات كثيرة. عند هذه المرحلة، ستكون الكيمياء قد أحدثت الكثير من التغييرات العنيفة في جسديهما، لدرجة أنّ أي حدث غير متوقع يحاول إعاقة العلاقة لن يؤدي إلا إلى تقويتها. ولن يؤدي ما يعرف بـ "تأثير روميو وجولييت" إلا إلى تعزيز الروابط بين العاشقين في مواجهة المعوقات.

بالرغم من ذلك، بقدر ما كان كل هذا مكتوبًا في نظامنا البيولوجي، لا يمكننا القول إن أيًا منهما توافرت لديه قدرة حقيقية على الاختيار في أي مرحلة من مراحل العملية. وسوف يتغير كلُّ هذا حتى قبل أن يكون قد مر عام. من ناحية، سوف تساهم الاختراعات الثقافية التقليدية على توطيد العلاقة بين الرفيقين العاطفيين. ستجعل أسطورة الزواج الأحادي العاشقين يعتقدان أن هذه هي الصيغة الوحيدة الممكنة للعلاقة، وسوف يتقبلان أكذوبة أنّها العلاقة الأكثر طبيعية، القائمة منذ الأزل على مر العصور وفي كل الثقافات، وليست مجرد صيغة أرستها الكنيسة المسيحية بالأساس طوال فترة العصور الوسطى وانتشرت من أوروبا عبر المنظومة الاستعمارية. وسوف تدفعهما أسطورة الزواج أيضًا للاعتقاد أنه الخيار العقلاني الوحيد الذي يمكن أن يقود إليه غرامهما، على الرغم من أنه في اليونان لم يكن لديهم حتى كلمة لوصف المقصود بكلمة الزواج، كما لم تكن العفة تعتبر فضيلة في روما. وغيرها كثير من أساطير الثقافة الاجتماعية، مثل الإخلاص أو الغيرة أو الإيمان بالإرادة الحرة، التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى إتمام الخداع. وبالرغم من ذلك، من ناحية أخرى، سيظل نظامنا الفيسيولوجي، يدخر استراتيجية ثانية أكثر فاعلية. وسيواصل الآن، بعد الهجوم الأول للناقلات العصبية، هجومًا سيستمر لأجلٍ أطول بقيادة الهرمونات هذه المرة: أما هو فسيغمره هرمون الفازوبرسين المانع لإدرار البول، وأما هي فنصيبها هرمون أوكسايتوسين، وسيشعران بأن كلًّا منهما ذائب

عشقا في الآخر. وسوف يعقب جنون العشق سعادة السكينة المذهلة.

لم يسعَ إستيبان وراء أيٍّ من هذا في تلك الليلة. وكذلك فيوليتا، على الرغم من الضغوط. في أي لحظة غيَّرا رأييهما؟ هل نستطيع القول حقًا إنه توافرت لهما القدرة للحظة على اتخاذ القرار، أم أنَّ قوى أكثر عمقًا قررت نيابة عنهما؟

وبالرغم من ذلك، فسيكونان قد راكما خبرات جديدة مشتركة على مدار سنوات طويلة من المعاشرة، والتي جمعتها بمنتهى الدقة، النواة الذنبية في أدمغتهما المسؤولة عن الوظائف المعرفية. أدليا باعترافات حميمية ومتبادلة. تواطأا معًا في السراء والضراء. والآن لا يتشاركان الذكريات فحسب، بل والعادات، والهوايات، والأماكن والصداقات. وفي النهاية، علاوة على ذلك، رزقا بأطفال. يتزايد مع كل يوم يمر، ثقل موانع الانفصال على الكفة الأخرى من الميزان: يضاف إلى الأطفال الالتزامات الاجتماعية المكتسبة، التبعية الاقتصادية، الخوف من التغيير، الخوف من البدء من جديد، الخوف من الوحدة، الخوف من الشيخوخة. وإذا فكر أحدهما ذات مرة في التخلي عن العلاقة، فسيجد أن صعوبة ذلك تتزايد شيئًا فشيئًا. في الحقيقة لم يكن الأمر سهلًا عليهما على الإطلاق.

ومع ذلك، وبالرغم من تآمر الحظ، ومثالية الظروف والطبيعة ضد حرية إستيبان أو فيوليتا، فمازال الجنس البشري يدخر لهما خططًا أكثر تعقيدًا.

فقد تعلم الجنس البشري، خلال بحثه الأزلي عن أفضل جينات البقاء على قيد الحياة، أن نسبة محددة من الخيانة الزوجية ستكون مفيدة، سوف تزيد من التعددية الجينية واحتمالات النجاح. ومن ثم، ليس الرجال وحدهم مبرمجين لذلك. ستشعر النساء أيضًا بالحاجة إلى ممارسة الجنس خارج إطار الزواج، على الرغم من أن نظامهن البيولوجي سيعتاد على منحهن الدفعة اللازمة في أيام التبويض. لطالما كان كل شيء محسوبًا بمنطق الاستثمار.

كما لن تدوم للأبد كيمياء الزواج الأحادي أو الحب المستقر. وعلى الرغم من أسطورة العاطفة الأبدية المستمرة، فإن إفراز الدوبامين والنورادرينالين لن يدوم طويلًا. وحتى مستويات الفازوبريسين أو الأوكسيتوسين لن تستمر إلى الأبد. ولن يكون الجسم قادرًا، خلال فترة تتراوح بين عامين إلى ستة أعوام، على الاستمرار في إفراز هذه التفاعلات الكيميائية الحيوية عند رؤية أو لمس الشخص نفسه، حتى لو كان يُدعى إستيبان أو فيوليتا.

ستكون هناك استثناءات ضئيلة للغاية على تقييد الهرمونات والناقلات العصبية التي تخضعنا لها أنظمتنا العصبية والغدد الصماء. وسوف يكون بمقدور عدد محدود للغاية من الأزواج، الأكثر نشاطًا وإبداعًا، استعادة الشعور بهذه العواطف مرة أخرى، عندما يتعلق الأمر بإعادة اكتشاف أنفسهم.

وفي أغلب الأحوال، عندما يقع الانفصال أو الهجر، وعندما لا تتغير المشاعر فحسب، بل والذكريات نفسها أيضًا بصورة مفاجئة، وعندما يُعاد تفسير كل الخبرة الحياتية بطريقة مغايرة، وتتحول الأمور بمنتهى السهولة من الحب إلى الكراهية، يصبح الانطباع بأن الإنسان كان تحت تأثير سحر خداع، في النهاية، لا لبس فيه.

الموت

في المرحلة الأخيرة من حياتنا، سوف يكون بانتظارنا، شعور مشابه للذي عايشناه عقب انفصالنا العاطفي. شعور بخيبة أمل وجودية.

الاستيقاظ من حلم.

سنفهم في أيامنا الأخيرة فحسب، عندما يحاصرنا الموت بجلاله، وفي لحظة إشراق، المغزى الحقيقي لأن يكون الكذب هو جوهر كل شيء.

لا يسع الشخص الذي ترك سنوات عمره تنصرم، غارقًا في خمول الروتين بمختلف أشكاله، متقبلًا بكل خنوع خدع الثقافة (الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية) سوى الشعور بشيء واحد في شيخوخته: الإحباط بسبب فرص الحياة التي ضيّعها. وسيقاسي كل شخص لم يثر مطلقًا على الأكاذيب السائدة، ولم يحاول تغليب أوهامة الخاصة، رغمًا عنه شعورًا مماثلًا. لأنه لم يفعل مطلقًا ما كان يريد. وانتهى به الحال

لأن يعيش حياة لم يكن يتمناها. وكان يتعين عليه أن يفهم ذلك قبل فوات الأوان، وتحطيم قواعد الخداع والتخلص من هذه المسرحية الهزلية. وكذلك الذين عاشوا أسرى وهم الرأسمالية، أو أي صيغة أخرى للهيمنة الاقتصادية، مع إضافة المشاعر التالية للأحاسيس السابقة: شعور من عاش حياته يعمل من أجل آخرين، والشعور بأن ثمرة كل جهوده جناها آخرون والآن بعد اعتصارهم، سيغادرون الدنيا مثلما جاؤوها أول مرة أو أسوأ.

وماذا يوجد بعد الحلم؟

ماذا سيعني موتي؟ نعلم أنه بعد الموت لا ينتظرنا أي شيء، أي شيء له علاقة بي أو بالوعي الخاص بي. ولكن بعد تفنيد أكذوبة خلود الروح، ما هو تأثير موتي على هذا الوهم في العالم؟ نستنتج مما استطعنا ملاحظته في حياتنا، أنه ليس له أي تأثير على الإطلاق. العدم من جديد.

في الحقيقة، سيتأثر أقرب المقربون فحسب لموتي. واحد، اثنان، خمسة أشخاص. كما سيفتقدني عشرات آخرون لبضعة أيام، وسيذرفون دمعة واحدة أو سيكرسون بضعة دقائق للتفكير بي بقوة، على الرغم من أنهم سيواصلون حياتهم لبقية الوقت وكأن شيئًا لم يكن. وكأنه ما من سبيل آخر. سيحضر جنازتي بضعة أشخاص فحسب، وسيكون من بينهم من يصيبه الضجر، التزام اجتماعي آخر كلُّ شيء فيه مجرد مظاهر. سيكتفي أغلب

من يعرفونني حين يعلمون بخبر وفاتي، بالتعبير عن مواساتهم بتغريدة على تويتر، سطر شارد بين الآلاف من منشوراتهم، لن يشغل بالهم سوى لبضعة ثوان. ولو كنت أي شخص مشهور، لربما أغرقت آلاف من التغريدات وإعادة التغريدات الشبكة مؤقتًا ليوم أو يومين. ثم لا شيء بعد ذلك. سيواصل العالم مساره بدون تغيير. لا أهمية لأي وفاة.

لن تدفع أي وفاة الناس للكف عن تناول الطعام، أو الابتسام، أو مواصلة حياة سرابهم الخاص.

يتجاهل غالبيتنا الجانب الأعظم من حياة أجدادهم، من كانوا وكيف كانت مشاعرهم، وكل شيء أو تقريبًا كل شيء عن أجداد أجدادهم. كما سيتجاهلنا أحفادنا وكما سينسانا أحفاد أحفادنا تمامًا.

الإنسان الفرد ليس له أهمية. الأهمية للجنس البشري فحسب.

يكمن عزاؤنا الوحيد أنه بمجرد إدراكنا لزيف الهوية، وأننا نعيش متعلقين بوهم، ويتم التلاعب بنا في كل المجالات بواسطة أوهام داخلية وخارجية، وأن الشيء الوحيد المتبقي هو تلك النقطة الضئيلة من الوعي المحبوسة في أعماقنا، كما لا يمثل هذا الفقد مأساة كبرى أيضًا.

من يكترث لاختفاء تلك الأنا الخاصة بي التي لا تكاد تدرك، العالقة بمكان ما في كتلة دماغي؟ ألم أبالغ في تقدير

ذلك الشيء شديد الضآلة الذي يجعلني أستيقظ مرارًا وتكرارًا داخل جسدي؟ باستثناء تلك التفاصيل، بمجرد التحرر من قناع الهوية، فأنا أكاد أشبه الناس. أنا الآخرون.

الإنسان الفرد ليس له أهمية. الأهمية للآخرين.

ثم ماذا بعد؟

ولكن إذا كان كل شيء كذب، وإذا كان حتى العقل يخدعنا عندما يجعلنا نعتقد أن تصورنا عن الواقع هو الواقع، ماذا يكمن وراء كل هذا الوهم؟ ماذا يتبقى عندما نسحب كلَّ الأكاذيب المذكورة على مدار هذه الصفحات واحدة تلو الأخرى؟

يتبقى ما لا يمكن اختزاله. الإنسان الديكارتي المفكر القديم.

بعبارة أخرى، لقد اختُزِل الإنسان الديكارتي المفكّر بصورة كبيرة إلى حد ما، ليس كثيرًا لأننا جرّدناه من هويته، بل لأننا لسنا متأكدين حتى إذا كانت هذه الذات هي التي تتخذ القرارات، أم يفعل ذلك اللا وعي بدلًا منها. وأكثر من ذلك، يجري اتخاذ القرارات دومًا في مكان ما من الكتلة الدماغية بفترة تصل إلى سبع ثوان قبل معالجة الوعي لها. يبقى على أي حال، وبصورة ملتبسة، سواء استوعبنا ذلك أم لا، / يبقى/ هناك فاعل يفكّر، ويقلّد، ويصيغ المجازات، ويكذب، ويَخدع وهو يُخدع.

شهدت هذه الوحدة متناهية الصغر أيضًا العديد من المحاولات الجادة لإعادة البناء، منها على سبيل المثال التي

بدأها إيمانويل كانط في عمله الرائع "نقد العقل المحض" عام (١٧٨١). ومع ذلك، نظرًا لاستحالة إثبات الشيء في ذاته أو النومينون*، وكل المفاهيم الخالصة للإدراك أو الفئات الكانطية، علاوة على شروطها الأولى الخاصة بالحساسية، انتهى الحال بسقوطها من هذا الجانب لدى الفاعل المفكر. وحتى هذان المفهومان الأخيران، المكان والزمان، فسيكونان حينئذٍ بصورة ما أو بأخرى حكرًا عليّ فحسب، سيكونان إطار حساسية إدراك ذاتي الخاصة، ولكن لن نعرف شيئًا عنهما أبعد من حدود عقلي. وسيجري نفس الشيء، ولكن بصورة أكثر عمقًا، مع أعمال شوبنهاور، ونذكر منها مثالين بارزين. يؤكد في "العالم إرادة وتمثلًا" عام (١٨١٩)، انطلاقًا من الطرح الكانطي، وجود فاعل التمثل، من جانب، ومن جانب آخر، وجود الشيء المدرك، قائمًا بواسطة أكثر صور المكان والزمان والسببية بداهة. إلا أن أيًا من ذلك الشيء (أيًّا من الكائنات الطبيعية، الحيوية، أو غير الحيوية، التي تسكنه) له وجود خارج التمثل، بصورة مماثلة لما جرى مع حجاب المايا** أو حلم

* النومينون: مصطلح فلسفي يقصد به الشيء في ذاته، ولم يكن شائعًا حتى جاء به الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط ثم أصبح مصطلح النومينون مرتبطا بالفلسفة الكانتية. والمقصود بالشيء في ذاته هو الحقيقة الأساسية للشيء التي تكمن وراء الظواهر. (المترجم)

** مايا باللغة السنسكريتية :māyā هي كلمة تعني حرفيًا الوهم أو السحر، ولها عدة معان في الفلسفة الهندية وذلك حسب السياق. في كتابات فيدا القديمة تأتي كلمة مايا لتعني القوة والحكمة الخارقتين. أما في نصوص فيدا المتأخرة فتأتي مايا بمعنى عرض سحري، وهو عرض يوهم بوجود أشياء لا توجد في الحقيقة. يذهب الفيلسوف الألماني فريدريك فيلهيلم يوزف شيلن (منطلقا في ذلك من ملاحظات أ. و. شليغل و. فون هومبولت) إلى حدّ اختراع نسب فيلولوجي مطمور بين كلمة "المايا" (Mâyâ) السحرية في ثقافة الهند، وبين اللفظة الألمانية "Magen" (القدرة، الاستطاعة)، بحيث يخلص إلى أن "المايا" الهندية إنّما تعني شيئا من قبيل "الإمكان" (Möglichkeit) و"السلطان" (Macht) و"القدرة" (Magen)، وكلّ ذلك يجتمع في معنى "agia"، أي "السحر". (المترجم)

كالديرون دي لا باركا.

تتيح لنا هذه المحاولات لتوسيع الفاعل المفكر عند فلاسفة مثل كانط أو شوبنهاور، معرفة الكثير عن ذاتنا وكيفية تصورنا عن العالم. إلا أننا نظل عالقين هنا في الداخل. وفي بعض الأحيان يمكننا أن نظل يراودنا الشعور بأننا مثل فقرة عند الفيلسوف (كاتب الخيال العلمي) أولاف ستابيلدون، الذي لخصه بورخيس على النحو التالي:

> يتكون الكون من شخص واحد (بعبارة أخرى، وعي واحد) والعمليات العقلية لذلك الوعي. خُلق هذا الشخص (وهو بالطبع أنت، القارئ) في هذه اللحظة بالتحديد ولديه مجموعة كاملة من الذكريات الذاتية، والعائلية، والتاريخية، والطبوغرافية، والفلكية، والجيولوجية، ولنفترض أن ذلك يشمل، على سبيل المثال، الظروف غير الواقعية لبدء قراءة هذه الملحوظة (خورخي لويس بورخيس، "أولاف ستابليدون، الفلسفة والحياة"، ١٩٤٠).

إذن، لا يوجد شيء بعد؟

ربما نعم أو ربما لا. ولكن المؤكد أنه مع وصولنا إلى هذه النقطة، وكما سبق أن قلت في مرحلة مبكرة للغاية، لم يعد لدينا خيار آخر سوى الكذب، التكهّن وطرح فرضية وجود العالم.

دعنا لا نخدع أنفسنا، أنت وأنا نؤمن بوجود العالم. ويُظهر كلٌّ واحد منا إيمانه بوجود العالم عدة مرات يوميًا. ولكن ليس كثيرًا عندما أتفادى لكمة، لأن تلك اللكمة قد لا توجد إلا

في ذهني فحسب، ومع ذلك تكمن القاعدة الأساسية في أنها عندما تقترب بصورة كبيرة من وهم جسدي، فإنها تسبب لي الألم. ولكن نبرهن على ذلك بالفعل بدرجة أكبر، حينما نؤمن بوجود الآخرين، بوجود فاعلين مفكرين آخرين، وتتوافر لدينا القدرة للتعاطف مع فرحهم ومعاناتهم. ولا يعد هذا بالطبع، دليلًا على وجود الواقع، بل دليل على مدى قوة إيماننا بوجود الواقع. وما زلنا نبرهن على ذلك أكثر كل يوم حينما لا ننتحر، وعندما لا نتخلص من حياتنا، لكي نثبت على هذا النحو إذا كانت القواعد ستتغير وأن كل هذا لم يكن سوى إحدى الألعاب الممكنة.

على أي حال، عزيزي القارئ، من المهم أن أنوه أن إعادة بنائنا المتواضعة تبدأ بكذبة. وسوف تكون كل البقية الباقية، بالتبعية، من الآن فصاعدًا، مجرد وهم/ خيال.

نحن كائنات وهمية، كائنات مجازية، ويجب أن تنطلق كل محاولة لمعرفتنا لأنفسنا أو استيعاب العالم الذي شيدناه، من هذه النقطة. وربما، الشيء الوحيد الذي يسعنا القيام به من الآن فصاعدًا هو استحداث قليل من النظام بين أوهامنا/ خيالاتنا.

يقترح كارل بوبر في كتابه "النفس ودماغها" عام (١٩٧٧) تقسيمًا ثلاثيًّا للعالم* ربما قد يفيدنا في بدء تنظيمنا المحتمل.

* اقترح بوبر أن يسمي هذه العوالم الثلاثة بـ العالم ١، العالم 2، والعالم 3، وكان يطلق على العالم 3 لفظ العالم الثالث، إلا أنه غير رأيه فيما بعد، بفضل نصيحة أحد زملائه. واعتبر أن مصطلحات العالم 1، العالم 2، والعالم 3، قد اختيرت بصفة إراديّة عديمة الطعم واعتباطية. لكن هناك سبب تاريخي لترقيمها ١، 2، 3، لأنه يبدو أن العالم الفيزيقي (العالم 1) قد وجد قبل عالم

قسم بوبر الواقع إلى العالم ١، ويختص بالكيانات المادية، مثل الصخور والأشجار وقوة الجاذبية أو جسدي، والعالم ٢، ويضم الأحوال العقلية، مثل الوعي والمشاعر الفردية أو جهدك الحثيث في هذه اللحظة لتفسير هذه الكلمات، والعالم ٣، الذي يشمل مضامين الفكر، وإنتاج العقل البشري، وهنا ستتلاقى الجيولوجيا، وعلم النباتات، وقانون الجاذبية، ونظرية النسبية، واللغة، والأحكام الثقافية المسبقة، وأزمات الاقتصاد الكلي، ووحيد القرن، وكيوبيد، وعلم الأعصاب، والرب، والذئب أو وحش فرنكنشتاين. وتحدث تفاعلات مستمرة بين هذه العوالم الثلاثة.

من ناحية أخرى، يتواصل ذهني مع الأشياء من خلال التجربة الحسية، ويفترض أن ينشأ هذا التواصل من كيان مادي وبيولوجي محدد نسميه الجسد (العالم ١ والعالم ٢). من ناحية أخرى، تنتج عقولنا أفكارًا تتمتع إلى حد ما بنوع من استقلالية جزئية، ويمكنها الارتداد لتترك في النهاية تأثيرًا جسيمًا علينا. لا أتحول كل يوم بسبب ما أقرؤه أو أتعلمه، بل لأن أزمة اقتصادية أو دوجما دينية يمكنها أن تدمر حالتي العقلية أو حتى القضاء

المحسوسات (العالم 2). ويفترض أن العالم 3 يبدأ فقط مع تطور اللغة الإنسانيّة التي يختص بها الإنسان وحده، كوسيلة لاكتساب المعرفة، كما لو كانت الخاصيّة أو الميزة الأكثر خصوصيّة وتميزًا للعالم 3. فهذا الأخير، يضم كائنات نموذجيّة من قبيل الكتب، المجلات، وخاصّة إذا تطورت وناقشت نظريّة معيّنة. وبطبيعة الحال، فإنّ الشكل الماديّ للكتاب ليس له أهميّة، وحتى الوجود الماديّ للكتاب لا ينقص من وجود العالم 3. يُقرّ بوبر بأن ترتيب هذه العوالم: العالم 1، العالم 2، العالم 3، كما تشير هذه الأرقام يُناظر عمرها. فتبعًا للوضع الحالي لمعرفتنا الحسيّة، فإن الجزء غير الحي من العالم 1 هو الأكثر قِدَمًا، يليه الجزء الحي من العالم 1، ومعه في نفس الوقت أو بعده بفترة يأتي العالم 2؛ أي عالم الخبرات. وبعد ذلك، ومع قدوم البشر يأتي العالم 3، عالم المنتجات الذهنية؛ أي العالم الذي يسميه الأنثروبولوجيون الثقافة. (المترجم)

على حياتي (العالم ١ والعالم ٢). وأخيرًا، يوجد أيضًا ارتباط بين الأفكار والأشياء، نظرًا لأن الأولى تحتاج إلى الأخيرة من أجل البقاء، أو إلى أن يكون لديهم طبقة أساسية من الأشياء المادية (مثل الكتب أو الخوادم) أو التسكين في الشبكة التي تكون العقول الخاصة بنا. ويوجد الاثنان بصورة أكثر سهولة أو أكثر تعقيدًا في كلا العالمين: على سبيل المثال، يوجد العمل الفني، في صورة نحت، إلا أن دلالته الفنية تنتمي إلى البعد الثقافي والتخيلي. كما يمكن لكائن خيالي أن يحظى بتأثير في العالم المادي أيضًا، فلم يكن مسخ فرنكنشتاين سببًا لظهور أعمال أدبية أو سينمائية فحسب، بل أيضًا في انتاج أقنعة، وقمصان، وميداليات مفاتيح، وأكواب، بالإضافة للترويج للمنتجات، وتلال من الكتب الورقية، وأشرطة الفيديو أو الاسطوانات المدمجة، ومهرجانات، وحديقة ملاهٍ (العالم٣ والعالم١).

يعدُّ الترتيب الترقيمي الذي حدده بوبر أكثر من متعمد. فبالنسبة للفيلسوف النمساوي ظهر العالم المادي أولًا، وتمخض هذا لاحقًا عن العالم العقلي وليس العكس. وبالفعل يمكن أن يكون ذلك صحيحًا على هذا النحو. إلا أن اعتبار ذلك أمرًا مفروغًا منه، وإنكار إمكانية وجود علاقة سببية في الاتجاه المضاد، يفتقر إلى أساس ويستند فحسب إلى مسألة الاعتقاد. بالرغم من ذلك، سأحتفظ، وإن كان على مضض، بمسمياته الأصلية، على ثقة من أنها لن تتسبب في التباس في

العرض التالي.

في البدء كانت نشأة الذات وعمليات التفكير الخاصة بها.

ومن ثم، فإن البداية كانت للعالم ٢. ولكن ليس كل العقول التي أدرجناها في النهاية في العالم ٢، بل الجزء الضئيل الذي يمثل ذاتي الفردية.

وسوف يكون التالي، نظرًا لأن تفكيري رمزي، هو المجاز. الصورة الذهنية عن العالم، الوعي بالواقع، الكذبة الأولى. وحينئذٍ سيكون العالم ١ قد اكتسب صورة في ذهني.

سوف أفترض الوجود الخارجي لصوري الذهنية، حتى ولو كانت مجرد فرضية، وسأكون مدركًا لوجودي كجزء من هذا الواقع. وسوف أضم نفسي إلى هذا التمثل وسوف أفعل هذا بطريقة شديدة الخصوصية، والتميز لدى بني الإنسان، بحيث تتيح لي في النهاية استرجاع مسألة تعهدت بأننا سنرجع إليها في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

تحدثنا في الفصل الذي يحمل عنوان "ناقص ستة" عن الحلقة، القفزة أو الدائرة التي كانت تفترضها الإحالة الذاتية. بدا بحثنا التفصيلي حينئذٍ معلقًا، لكن تستدعي الضرورة الآن العودة إليه وتعيين حدوده لكي نتمكن من المتابعة والمضي قدمًا، وبصفة خاصة للتمييز بينه وبين أشكال الوعي الأخرى. تعد كذبة اعتبار أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي لديه وعي بذاته وبالعالم. هناك كمٌّ هائل من الأنواع لديها القدرة على

استخدام المجاز ولديها صورة ذهنية ووعي بالواقع. إلا أن كلها تقريبًا تتوقف عند أول قفزة مجازية، عند تحويل النبضات العصبية إلى صور، ولا تقطع الخطوة التالية وصولًا إلى اللغة. لكن الحصان يتذكر، والقط يحلم، ويقومان بذلك من خلال الاستعارات الذهنية. لدى الإجوانا، عندما تستلقي في الشمس، وتنتبه فجأة لحيوان مفترس، فتقفز في الماء، إدراك تام بهذا العالم الذي ليس هي. بل وأكثر من ذلك، تتعرف الأفيال أو الشمبانزي على نفسها في المرايا. ومع ذلك، فإن الإنسان هو الكائن الوحيد (على الرغم من أن مفهوم الذكاء متدرج ولا يوجد فارق حاسم بين الأنواع كما يحلو لنا أن نتصور) القادر على بناء مجاز فوق مجاز. لا يقودنا نزوعنا للتعقيد، للتحدث عما نتحدث عنه، قدرتنا على الارتقاء بأنفسنا إلى مستوى لغوي أعلى من المستوى الأول للغة فحسب، وإلى مفارقات منطقية ودلالية مثل تلك الخاصة بالراوي الكاذب. بل إن هذه القدرة على الارتقاء بأنفسنا إلى مستوى ما وراء اللغة (ميتالغة) تحديدًا، هي التي تجعل وعينا الكامل بأنفسنا ممكنًا.

نطور حينئذٍ، بعد المجاز الأوَّلي أو بعد إدراك العالم، ما وراء مجاز آخر يكمن في وعينا بأننا جزء من العالم وإدراك أننا نفكر في العالم. تكمن الإحالة الذاتية في هذا المجاز عن المجاز. ويعد هذا دون غيره الإدراك الإنساني المحض.

نستطيع بكل تأكيد مواصلة الارتقاء بأنفسنا فوق هذا المستوى، والتفكير في أنفسنا مثل شخص يفكر في كائنات

تفكر أنها تفكر؛ ونفعل شيئًا مماثلًا في الكثير من الاستدلالات. ولكن لا يقودنا ذلك في أغلب الأحيان إلا إلى تشتيت أنفسنا. وإدراك أن هناك شيئًا ما نفتقر إليه كنوع ذكي، ربما قفزة نوعية لا يمكننا حتى تخيلها. مثلما أن الحصان أو القط أو الإجوانا لا يستطيعون حتى الشك في أي شيء نقوم به أنا وأنت.

ثم أخيرًا، عقب بناء وعيي الخاص ووضع اللمسات الأخيرة عليه، يمكنني الانتقال إلى منح الآخرين وجودًا. وأستطيع، بمجرد استعراض العالم ١ وحيازة صورة لذهني الخاص كجزء من العالم الخارجي، افتراض أن جميع تلك الكائنات التي تدعي أنها مساوية لي من الخارج يجب أن تكون أيضًا مشابهة لي من داخل كل منها. وأتكهن بعقولها، لأكمل بذلك باقي العالم ٢.

يعد هذا، على الرغم من ذلك، امتيازًا جديدًا. فمن وجهة نظري الذاتية، لا تبدو الحالات الذهنية لباقي الكائنات الأخرى في العالم ٢ شديدة الوضوح كما يراها بوبر، ولكنها تتصرف على أي حال كما لو كانت جزءًا من العالم ٣. أما باقي العقول فليست سوى فكرة في ذهني. شيء سوف ندركه بقوة أكبر في حالات كل هؤلاء الأشخاص الذين ليس لدي أي انطباع إمبيريقي عنهم، فبالنسبة لي أحد سكان غانا أو صيني يدعى يو مارتن شو، خياليان مثل هتلر أو فان جوخ، والذين بمجرد اختفائهم من العالمين ١ و ٢، قد يرى حتى الفيلسوف الراحل كارل بوبر أيضًا أنه سيكون من الملائم انتقالهم لكي ينتموا إلى

العالم ٣ فحسب. وعلى الرغم من أنه قد يبدو أننا بصدد نقاش ميتافيزيقي، إلا أن هذا عيب معرفي حاضر بقوة في حياتنا ويوضح إلى حد كبير ظاهرة كراهية الأجانب، وسياسات الهجرة لدى بعض الحكام وحتى عمليات الإبادة الكبرى. لا تتوافر لدينا القدرة على التعاطف مع أولئك الأشخاص الذين نعتبرهم مجرد مفاهيم. وبنفس الطريقة، أيها القارئ، أنا لا أمثل بالنسبة لك أكثر من مجرد فكرة باهتة ارتسمت بالكاد في ذهنك.

لم يعد متبقيًا، بعد ذلك، عند هذه المرحلة من عملية الإيهام الخاصة بنا، سوى الاستمرار في بناء العالم ٣. وسوف نلتقي جميعًا في هذه المهمة. أصبح العالم ٣ الآن أكثر تعقيدًا مما كان عليه في أي وقت مضى على مر التاريخ، بقدر ما يراكم من أمور كثيرة، من بينها المعارف الخاصة بغالبية الحقب التاريخية السابقة. كان العالم ٣ بالنسبة للإنسان البدائي، على العكس، الأصغر بين العوالم الثلاثة، في حين بدا العالم ١ (مجرد بحر، بضعة جبال، الشمس، السماء، وبعض العواصف) بالنسبة له كيانًا مهيبًا ولا نهائيًّا. وكم شعر بالضآلة لتجرده من كل أدواته الهوائية. على العكس من ذلك، في الوقت الحالي، مهما أخبرونا بأن الكون يحتوي على ملياري مجرة وأن قطرها يقدر على الأقل بنحو ٩١ مليار سنة ضوئية، فإن هذه البيانات تنتقل على الفور لتصبح بالنسبة لنا جزءًا من العالم ٣، المستمر في النمو بلا توقف أكثر وأكثر فوق رؤوسنا. وكما سبق أن رأينا،

كيف يؤثر هذا العالم الزائف على بيئتنا المباشرة لدرجة أن الواقع المفرط يهدد بسحقنا.

استولى العالم ٣ على كل شيء.

وربما أصبح التحدي الأكبر اليوم هو الإبقاء على توازن إنساننا المفكر في خضم هذه الدوامة من الأوهام/ الخيالات.

ومن ثم، ربما تكون الخطوة الأولى هي التعرف على طبيعتنا الخيالية.

الفن هو نشاط إنساني يفوق الديانة، تحديدًا، لأنه يعترف بطبيعته الوهمية. ويجدر بالعلم النزول من على مذبحه الذي استقر فوقه، والاعتراف بأنه يعمل على فرضيات. وليست نظرية واحدة فحسب من نظرياته فرضية، بل كل الكيان العلمي بالكامل فرضي، ومن ثم فإن الإنسان لا يستطيع الوصول لأبعد من ذلك، ولا يوجد عالم واحد يستطيع بلوغ (أو حتى معرفة) ماهية هذا الوهم المسمى بالحقيقة.

ويسري نفس الشيء مع بعض مظاهر عظمة البشرية، مثل الحب أو الإيثار. الحب وهم، وتشكل العلاقات الجنسية والعاطفية جزء من خطة للنوع، لا شأن لها كثيرًا بما نعتقد أننا نشعر به. والإيثار كما ذكر سلفًا بول لودفيج كارل هاينريش ري في كتابه "ملاحظات على علم النفس" عام (١٨٧٥)، أنه ليس أكثر من مجرد سلوك بشري تم تعزيزه على مدار قرون اختياريًا. ومع ذلك، إذا اعتقدنا أننا نشعر بشيء ما فهل يعني

هذا أننا لا نشعر به حقًا؟ ومثلما أنني لست أيًا من الخلايا العصبية الخاصة بي بشكل منفصل، ومع ذلك لدي تصور واضح ومتميز عن أفكاري، أليس الحب كذبة حقيقية بالنسبة لي؟ وعلى الرغم من أنه خداع بيولوجي، ألا يسبب لي متعة حقيقية وألمًا داخليًّا؟

وإذا أقررنا بحالته الزائفة، بمفهوم نيتشوي، فسوف نتجاوز بطريقة ما القيم السابقة للمضي قدمًا خطوة أخرى أبعد. لأن الإنسان حينما يكون واعيًا بالخداع، ومع ذلك يقبل بمواصلة اللعب، فإنه ليس مجرد ضحية. مثلما أن الفنان ليس مجرد كذاب، وكذلك المشاهد أو القارئ، مجرد شخص مخدوع. من الممكن معرفة الحقائق، معرفة أن كل الكيمياء التي تتخللنا هي جزء من استراتيجية، وأن كل ما أشعر به له في الواقع غرض آخر، بما في ذلك الصراخ: "نعم، أوافق، كل شيء كذب! لكنني أحبها!". في الصحة وفي الخداع.

تغير من هذا المنظور، بالفعل، مغزى الصورة الذاتوية التي انطلقنا منها بشكل كبير. لأنني الآن، بدلًا من أن أكون مغفلًا خدعته المهزلة العظيمة، صرت ممثلًا اختار أن يمثل.

سوف يكون الكائن الطبيعي (الأنا غير القابلة للاختزال)، مع افتراض أنه موجود، صغيرًا على الأرجح، أنا أتصور ذلك، ومن الممكن أن يكمن فيه أصل كل تقليد: الكائن الطبيعي من الممكن أن يوجد في الموهبة، في القدرة الفطرية على التقليد. أقصد حقيقة إدراك أنك في الأساس، مؤدٍّ، ممثل، بدلًا من تقبل

التنكر وتؤمن بأنك لا تؤدي، وأنك أنت ذاتك (فيليب روث، الحياة المضادة، ١٩٨٦).

كل ما حولنا زائف، وكل ما يشكل حياتنا وعالمنا من نسج الأكاذيب. استخدمت الطبيعة الخداع بالفعل من أجل مخططاتها، قبل وقت طويل من مجيئنا إلى الكوكب.

تمكن الكذب بطريقة ما، من التوافق مع عملية الانتخاب الطبيعي كعنصر مفيد. وكان لذلك تداعيات لا حصر لها. بادئ ذي بدء، نحن أنفسنا: الكائنات الخيالية بامتياز، قولبنا الانتخاب الدارويني لنكون مثالًا للكذب. وبالمضي لأبعد من ذلك، شمل ذلك كافة الأنشطة البشرية. وقد يكون من الأيسر علينا، إذا انتبهنا إلى حقيقة أن أصل الخداع موجود في الطبيعة، فهم لماذا كان الانتخاب الطبيعي دائمًا العامل الرئيسي للتنظيم في جميع المجالات البشرية؛ وهو شيء لا يحدث، على سبيل المثال، في النظم الجيولوجية أو الفلكية. ومع ذلك، فلطالما سارت الأكاذيب والعمليات الانتقائية مثل المنافسة والتكيف والبقاء على قيد الحياة، جنبًا إلى جنب وهي موجودة في كافة جوانب مجتمعنا. وليس في الأنماط البيولوجية التي تؤثر فحسب على الكائنات الحية، أو تطور الأنواع أو نظامنا الحيوي ذاته. ما أود توضيحه هو أنه يمكن إقرار الانتخاب الطبيعي كمعيار تنظيمي في ديناميكية الجماعات، تكوين المجتمعات، في بقاء أو اندثار الثقافات، في بقاء القيم الأخلاقية، في المبادلات القائمة على المقايضة، في الاقتصاد

الجزئي، في التمويلات، في الأسواق العالمية، في الدعايا والإعلان، في الأزياء، في التطور التكنولوجي، وبصفة عامة في جميع التخصصات والأنشطة التي تنطوي على مشاركة الأفكار.

كما استطاعت نظرية المعرفة التطورية أن ترى، أنه حتى عقلنا لديه بعض الآليات المعرفية الفطرية تعد نتاج التطور. لدينا علاقات وشروط خاصة بالحساسية الفطرية موروثة عن طريق الجينات، بغض النظر عن أي تجربة فردية، بالإضافة إلى أخرى ناتجة عن تجارب إيجابية وسلبية لنوع بأكمله على مدى ملايين السنين. ولهذا جاءت طريقة تفكيرنا ورؤيتنا للعالم على هذا النحو، كما كان من الممكن أن تكون مغايرة، لولا بعض عمليات الاختيار العشوائية. وربما لهذا كان ميلنا إلى التشويه والنزوع للإيهام مجرد أمر عرضي.

ولكن لو تمادينا أكثر من ذلك، لوجدنا أن الأفكار نفسها والأكاذيب تتطور أيضا على هامش منظومتنا العضوية والعصبية. وتحلّق، أكثر من ذلك، حرة طليقة في العالم ٣.

يحتاج الخيال دومًا إلى دعامة. وهذا قد يكون شيئًا ماديّا في العالم ١: كتابًا، لوحة زيتية، سبورة، وحدة تخزين؛ أو بصورة أفضل، عقلًا بشري من العالم ٢. كانت الأفكار تتلاشى في المجتمعات المحدودة للغاية قبل اختراع الكتابة، بسهولة أكبر، وكان لابد من مرور وقت طويل حتى تتبلور أكذوبة أو أسطورة قادرة على الصمود في وجه المعارضة الشديدة في

عقول جماعات مختلفة. بالرغم من ذلك، في الوقت الراهن، أدى التنوع الهائل في أنماط التسجيل، والتشفير لدى شعوب العالم وشبكات الاتصال التي تربط بعضنا ببعض إلى أن أصبح الوضع معكوسًا. ويستطيع العقل توليد فكرة، يمكن في اللحظة التالية ألا تعود تنتمي إليه مع استمرار تكرارها حول العالم. ومن الممكن أن يختفي الفرد مبدع الفكرة، بينما تبقى الفكرة على قيد الحياة من بعده لسنوات بل ولقرون. بدأت الثقافة تكتسب استقلالية أكبر، منذ اختراع الكتابة، ولكن في عصرنا الحالي، حولت شبكات الاتصال الالكترونية (شبكات التواصل الاجتماعي، المنتديات، تطبيقات الرسائل النصية) وباقي وسائل الإعلام، عقولنا إلى نوع من الشبكات بين متناظرين (الند للند) أو (peer-to-peer)، تحافظ على الأفكار والأكاذيب متماشيين بصورة مستمرة.

تحول العالم ٢ إلى شبكة تحت تصرف أفكار العالم ٣. وأصبح البشر في خدمة الأفكار وأصبح الفرد قابلًا للاستغناء عنه.

ينتابنا بصورة ما شعور، أحيانًا، أنه لطالما كانت تلك الأكاذيب الشيء الوحيد المهم طيلة الوقت. ولطالما كانت الأكاذيب موجودة هنا قبل وجودنا بكثير. ويبدو أن كل هذه الأوهام، تطورت الآن وتواصل طريقها نحو مكان ما. بصورة مستقلة عنا نحن الذين انحدرنا إلى وضعية مجرد دعامة.

وهذا ليس سيئًا بالضرورة: الأفكار تنتشر من خلالنا، ككائنات وهمية، وكأن الأفكار هي الكائن الحي الحقيقي.

لربما كان الأمر كذلك.

وربما، بمجرد تجاوز وهم الهوية، فإن الشيء الوحيد الذي يهم هو الأفكار التي نتركها وراءنا.

وربما يصبح جنسنا البشري، يومًا ما، مفيدًا في شيء.

المراجع

- سان أجوستين، ١٩٥٤: الأعمال الكاملة ١٢ "أطروحات أخلاقية" (ترجمة: فيلكس جارثيا ولوبي ثييرويلو وبيو دي لويس وكارلوس موران)، مكتبة الكتاب المسيحيين (B.A.C.)، مدريد. [تضم "الكذب" و"الكذب المضاد"].

- حنا أرندت (٢٠١٧): الحقيقة والكذب في السياسية (ترجمة: روبرتو راموس فونتكوبا)، دار نشر باخينا اندوميتا، برشلونة. [تضم "الكذب" و"الكذب المضاد"].

- أرسطو (١٩٧٧): فن الشعر (ترجمة: خوسيه ألسينا كولتا)، دار نشر بوش، برشلونة.

- رولان بارت (١٩٧٣): "الكتابة في درجة صفر" (ترجمة: نيطولاس روزا)، مطبوعات القرن الحادي والعشرين، مكسيكو سيتي.

- جان بودريار (١٩٧٨): "الثقافة والمحاكاة" (ترجمة: بدرو روبيرا)، دار نشر كايروس، برشلونة.

- (١٩٩٦): "الجريمة الكاملة" (ترجمة: خواكين جوردا)، دار نشر اناجراما، برشلونة.

- جيرمي بنثام (٢٠٠٥) "نظرية الخيالات" (ترجمة: هيلينا جويكوتشيا)، دار مارثيال بونس، مدريد.

- بيتر برجر (١٩٧١) "المظلة المقدسة: عناصر من أجل علم اجتماع للدين" (ترجمة: نستور ميجيث)، دار نشر امورورتو، بوينوس أيرس.

- أدولفو بيوي كاسارس (٢٠١٢) "اختراع موريل"، دار أليانثا إيديتوريال، مدريد.

- خورخي لويس بورخيس (١٩٧٦): "كتاب الأحلام"، دار نشر سيرويلا، مدريد.

- (١٩٩٦أ): الأعمال الكاملة ١ (١٩٢٣-١٩٤٩)، دار إيميسي، برشلونة.

- (١٩٩٦ب): الأعمال الكاملة ٢ (١٩٥٢-١٩٧٢)، دار إيميسي، برشلونة.

- (١٩٩٦ج): الأعمال الكاملة ٣ (١٩٧٥-١٩٨٥)، دار إيميسي، برشلونة.

- بدرو كالديرون دي لا باركا (١٩٨٣)، "الحياة حلم". "العالم مسرح كبير"، دار أوربيس، برشلونة.

- جون كالفن (٢٠٠٠): "رسالة في الآثار"، دار نشر لابور إي فيد (العمل والإيمان)، جنيف.

- خوليو كارو باروخا (١٩٩٢) "تزييف التاريخ"، دار سييكس بارال، برشلونة.

- لويس كارول (١٩٩٢) "أليس في بلاد العجائب/ أليس عبر المرآة" (ترجمة: خايمي دي أوخيدا إيسلي)، دار أليانثا إيديتوريال، مدريد.

- (٢٠١٣) "سيلفيا وبرونو" (ترجمة: اكسل الونسو بايي)، دار آكال، مدريج.

- ليلى م. هوفمان، بيث إل. لين، ليو يي؛ ميلر، إليزابيث. بريماك، بريان أ. رادوفيتش، آنا. شينسا، آرييل، وسيداني، خايمي إي (٢٠١٦): "الارتباط بين استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والاكتئاب"، الاكتئاب والقلق، المجلد. ٣٣، رقم ٤، ص. ٢٥٧-٢٦٤.

- جاك دريدا (١٨٩٨) "الكتابة والاختلاف" (ترجمة: باتريثيا بينياالبير) دار انتروبوس، برشلونة.

- رينيه ديكارت (١٩٣٧) " خطاب الأسلوب. تأملات ميتافيزيقية" (ترجمة: مانويل جارثيا مورينتي)، دار أسباسا كالبي، مدريد.

- فيليب كيندرد ديك (٢٠٠٢) "تقرير الأقلية وقصص أخرى" (ترجمة: كارلوس جارديني)، دار مطبوعات بي، برشلونة.

- فيليب كيندرد ديك (٢٠١١) "أوبيك" (ترجمة: مانويل اسبين مارتين)، دار مينوتاورو، برشلونة.

- (٢٠١٢) "زمن مفكك" (ترجمة: روبين ماسيرا)، دار مينوتاورو، برشلونة.

- إيميل دوركايم (٢٠١٤) "الأنماط البدائية للحياة الدينية" (ترجمة: أنار مارتينيث أرانكون)، دار أليانثا ايديتوريال، مدريد.

- أومبرتو إكو (١٩٧٤) "البنية الغائبة: مقدمة في السيميوطيقا"، (ترجمة: فرنثيسكو سيرا كانتاريل)، دار لومن، برشلونة.

- (١٩٨٦) "استراتيجية الخداع" (ترجمة إدجاردو أوبييدو) دار لومن، برشلونة.

- (١٩٩٠) "سيميوطيقا وفلسفة اللغة" (ترجمة: روسا بيرمات) دار لومن، برشلونة.

- (١٩٩١) "أطروحة حول السيميوطيقا العامة" (ترجمة: كارلوس مانثانو)، دار لومن، برشلونة.

- ميرسيا إلياد (١٩٩٠) "رسالة في تاريخ الأديان" (ترجمة: أنا مدينافييتيا)، دار سيركولو دي ليكتوريس، برشلونة.

- خوان فرنثيسكو فيرري (٢٠٠٩) "بروفيدانس"، دار أناجراما، برشلونة.

- (٢٠١٥) "ملك اللعبة"، دار أناجراما، برشلونة.

- لودفيج فيورباخ (١٩٩٣) "تأملات حول الموت والخلود"، (ترجمة: خوسيه لويس جارثيا روا)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (١٩٩٥)، "جوهر المسيحية"، (ترجمة خوسيه لويس إيجليسياس)، دار تروتا، مدريد.

- بول فييرابند (١٩٨٦)، "رسالة حول الأسلوب"، (ترجمة: دييجو ريبيس)، دار تكنوس، مدريد.

- ميشيل فوكو (١٩٦٧)، "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، (ترجمة: خوان خوسيه أوتريبا)، صندوق الثقافة الاقتصادية، مكسيكو سيتي.

- (١٩٨٦)، "الكلمات والأشياء: علم آثار العلوم الإنسانية"، (ترجمة: إلسا سيسيليا فروست)، دار القرن الحادي والعشرين، مكسيكو سيتي.

- (١٩٧٠)، "نيتشة، ماركس، فرويد"، (ترجمة: ألبرتو جونثاليث ترويانو)، دار أناجراما، برشلونة.

- هاري ج. فرنكفورت (٢٠٠٦)، "حول الهراء"، (ترجمة: ميجل كانديل سانمارتين)، دار بايدوس، برشلونة.

- شارليز فريمان (٢٠٠٩)، "تاريخ جديد لبواكير المسيحية" جامعة ييل برس، نيو هفين.

- سيجموند فرويد (٢٠١٢)، "الأنا والهوية ومقالات أخرى حول ما وراء علم النفس"، (ترجمة: رامون ري أرديد ولويس لوبيث بابيستيروس)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (٢٠١١)، "تفسير الأحلام"، (ترجمة: لويس لوبيث بابيستيروس)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (٢٠١٢)، "القلق في الثقافة"، (ترجمة: رامون ري أرديد ولويس لوبيث بابيستيروس)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- رامون جوبيرن (١٩٩٦)، "من ثور البيسون إلى الواقع الافتراضي: المشهد والمتاهة"، دار أناجراما، برشلونة.

- دوجلاس ريتشارد هوفشتادتر (١٩٨٧)، "جودل، إيشر، باخ: الجديلة الذهبية الأبدية"، (ترجمة: ماريو أوسابياجا واليخاندرو لوبيث روسو)، توسكيتس، برشلونة.

- ديفيد هيوم (٢٠١٥)، "بحث حول المعرفة الإنسانية"، (ترجمة: خايمي دي سالاس أورتويتا)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (١٩٨٨أ)، "رسالة حول الطبيعة البشرية"، (ترجمة: فيلكس دوكي)، تكنوس، مدريد.

- (١٩٨٨ ب)، "حول الانتحار ومقالات أخرى"، (ترجمة: كارلوس مييثو)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (١٩٩٢)، "التاريخ الطبيعي للدين"، (ترجمة: كاروس مييثو)، دار تكنوس، مدريد.

- (١٩٩٤)، "محاورات حول الدين الطبيعي"، (ترجمة: كارمن جارثيا-تريبيخانو)، دار تكنوس، مدريد.

- فردريك جيمسون (٢٠١٢)، "مراجعة ما بعد الحداثة"، (ترجمة: ديفيد سانشيث اوسانوس)، دار أبادا، مدريد.

- إيمانويل كانط (١٩٧٨)، "نقد العقل المحض"، (ترجمة: بدرو ريباس)، دار الفاجوارا، مدريد.

- (٢٠١٣)، "نقد العقل العملي"، (ترجمة: روبرتو ر. أرامايو)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (١٩٨٦)، "حول الحق المزعوم في الكذب من أجل محبة الإنسان لأخيه الإنسان"، في النظرية والتطبيق (ترجمة: خوان ميجيل بالاسيوس)، دار تكنوس، مدريد، ص. ٦١-٦٨.

- ألكسندر كويري (٢٠٠٤)، "تأملات حول الكذب"، (ترجمة: هوجو سافينو)، دار لفياتان، بوينوس أيرس.

- توماس صمويل كون (١٩٧١)، "بنية الثورات العلمية"، (ترجمة: أجوستين كونتين)، صندوق الثقافة الاقتصادية، مكسيكو سيتي.

- ديوجين لايرسيو (٢٠١٣)، "حياة وآراء مشاهير الفلاسفة"، (ترجمة: كارلوس جارثيا جوال)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- ليم ستانستو (٢٠٠٦)، "الفتنة"، (ترجمة: جوانا برادزنسكا وكاسيا دوبلا)، دار فونمابوليستا، مدريد.

- (٢٠٠٨)، "فراغ مثالي"، (ترجمة: جادويجا ماوريتسيو)، دار أمبديمنتا، مدريد.

- (٢٠١٠)، "عظمة خيالية"، (ترجمة: جادويجا ماوريتسيو)، دار أمبديمنتا، مدريد.

- (٢٠١٢)، "غوليم ١٤"، (ترجمة: جوانا أورزيشوفسكا)، دار أمبديمنتا، مدريد.

- (٢٠١٣)، "خلاصة التكنولوجيا"، (ترجمة إلى الإنجليزية: جوانا زيلينسكا)، جامعة مينيسوتا برس، مينيابوليس.

- كلود ليفي شتراوس (١٩٦٤)، "الفكر المتوحش"، (ترجمة: فرنثيسكو جونزاليس ارامبورو)، صندوق الثقافة الاقتصادية، مكسيكو سيتي.

- (١٩٩٥)، "أنثربولوجيا بنيوية"، (ترجمة: ايليسيو بيرون)، دار بايدوس، برشلونة.

- بيير ليفي (١٩٨٨)، "ما هو العالم الافتراضي؟"، (ترجمة: دييجو ليفيس)، دار بايدوس، برشلونة.

- مارتن لوبيردينجر (٢٠٠٤)، "وصول قطار الأخوين لوميير: أسطورة تأسيس السينما"، الصورة المتحركة، المجلد. ٤ ، رقم ١ .

- انريك لينش (٢٠٠٧)، "الفلسفة و/ أو الأدب. الهوية و/ أو الاختلاف"، صندوق الثقافة الاقتصادية، بوينوس أيرس.

- شنتال ميلارد (١٩٩٢)، "إبداع المجاز"، دار نشر أنتروبوس، برشلونة.

- نيكولا ميكيافيللي، (٢٠١٠)، "كتاب الأمير"، (ترجمة: ميجل انخل جرنادا مارتينيث)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- جيوفاني ماركيزيني، (١٩٠٥) "وظيفة الروح"، دار نشر لا ترتزا & فيجلي، باري.

- كارل ماركس، (١٩٧٧)، "رأس المال"، (ترجمة: بيثنتي رومانو جارثيا)، دار آكال، مدريد.

- كارل ماركس، فريدريك انجلز، (١٩٧٢)، "الأيديولوجية الألمانية"، (ترجمة: وينسلاو روسيس)، دار جريخالبو، برشلونة.

- أندريس مولينا ميخييا، (١٩٩٣)، :الفكر الحديث: ديكارت"، دار أجورا، مالاجا.

- خوان خاثينتو مونيوث رينخيل، (١٩٩٨)، "من النقد البنيوي إلى تفكك الجماليات واللغة والواقع"، دار أنتروبوس، رقم ١٨٦، صفحة: ١٠٣-١٠٧.

- (١٩٩٩): "بماذا كان يؤمن بورخيس؟"، إيبرومانيا، رقم ٥١، جامعة توبينغين (ألمانيا)، صفحة ٩١-١٠٤.

- (١٩٩٩): "مسلمات كانط تحت الحكم المعرفي"، مجلة الفلسفة، المجلد الحادي عشر، رقم ٢١، جامعة كومبلوتنسي بمدريد، ص. ١٤٣-١٦٨.

- (٢٠١٣)، "حلم الآخر"، بلاثا & خانيس، برشلونة.

- (٢٠١٣)، "ثلاثة قرون من الكذب السياسي"، جريدة البابيس، ٢٨ مايو، ص. ٣١.

- (٢٠١٥)، "الفنتازيا كأداة استقصاء. الخيال كوسيلة للمعرفة"، سراب المعرفة (تنسيق: نتاليا الباريث وأنا أبيبو)، جامعة ليون، ص ١٩-٢٥.

- فريدريك نيتشة (٢٠١٢)، "ما وراء الخير والشر"، (ترجمة: أندرس سانشيث باسكوال)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (١٩٩٤)، "حول الحقيقة والكذب من منظور غير أخلاقي"، (ترجمة: لويس بالديس وتيريسا أورودنيا)، دار تكنوس، مدريد. [إضافة هانز فايهينغر، إرادة الوهم عند نيتشة].

- (٢٠١١)، "هكذا تكلم زرادشت"، (ترجمة: أندرس سانشيث باسكوال)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (٢٠١١)، "في علم الأنساب من الأخلاق"، (ترجمة: أندرس سانشيث باسكوال)، دار أليانثا إديتوريال، مدريد.

- (٢٠١٦)، "الحكمة المرحة"، (ترجمة: خوان لويس بيرمال بيريتا)، دار تكنوس، مدريد.

- روجر بنروز (١٩٩١)، "عقل الامبراطور الجديد"، (ترجمة: خابيير جارثيا سانث)، دار جريخالبو موندادوري، برشلونة.

- (١٩٩٦)، "ظلال العقل"، (ترجمة: خابيير جارثيا سانث)، دار كريتيكا، برشلونة.

- بلوتارك (١٨٤٧)، "حيوات موازية"، (ترجمة: أنطونيو رانث رومانييوس)، دار نشر مكتبة أ. ميزين، باريس.

- كارل بوبر (١٩٦٢)، "منطق البحث العلمي"، (ترجمة: بيكتور سانشيث دي ثابالا)، دار تكنوس، مدريد.

- كارل بوبر، جون إيكلس (١٩٨٠)، "الأنا وعقله"، (ترجمة: كارلوس سوليس سانتوس، دار لابور، برشلونة.

- بول ريكور (١٩٧٠)، "فرويد: تفسير للثقافة"، (ترجمة: أرماندو سواريث)، دار القرن الحادي والعشرون، مكسيكو سيتي.

- برتراند راسل (١٩٢١)، "تحليل العقل"، دار جورج آلان انوين، لندن.

- (١٩٧٥)، "أسس الفلسفة"، (ترجمة: ر. كريسبو و كريسبو)، بلاثا & خانيس، برشلونة.

- (١٩٧٥)، "لماذا لست مسيحيًا"، (ترجمة: خوسيفينا مارتينيث اليناري)، دار إداسا، برشلونة.

- فردناند سوسير (١٩٤٥)، "دورة في اللغويات العامة"، (ترجمة: أمادو ألونسو)، دار لوسادا، بوينوس أيرس.

- جان كلود شيميت (١٩٩٢)، "تاريخ الخرافات"، (ترجمة: تيريسا كلابيل)، دار كريتيكا، برشلونة.

- آرثر شوبنهاور (٢٠١٠)، " العالم إرادة وفكرة"، (ترجمة: روبرتو ر. أرمايو)، المجلد الثاني، دار أليانثا إيديتوريال، مدريد.

- مادلين دي سكوديري (٢٠١٧)، "حول الأكاذيب والرياء والصدق"، (ترجمة: أنخيليس كاسو)، دار سيرويلا، مدريد.

- جورج سيميل (١٩٢٧)، "علم الاجتماع. دراسات حول طرق التنشئة الاجتماعية"، (ترجمة: ج. بيريث برانثيس)، مجلة الغرب، مدريد. [بالإضافة إلى "السر والمجتمع السري"].

- سون تزو (٢٠٠١)، "فن الحرب"، (ترجمة: البرت جالفاني)، دار تروتا، مدريد.

- جوناثان سويفت (٢٠١١)، "فن الكذب السياسي"، (ترجمة: فرنثيسكو أوتشوا دي ميتشيلينا)، دار سيكيتور، مدريد. [مؤلفه الحقيقي هو جون أربوثنوت].

- ويليام تيناسكي (٢٠١٧) "الإهانة"، (ترجمة: إنريكي مورييو)، دار مالباسو، برشلونة.

- هانز فايهينغر (١٩٢٢)، "فلسفة كأن"، دار فيليكس ماينر فيرلاج، لايبزيج.

- ماكس فيبر (١٩٢٢) "العلم كمهنة. السياسة كمهنة"، (ترجمة: خواكين أبييان)، دار أسباسا كالبي، مدريد.

- أوسكار وايلد (٢٠٠٠)، "انحطاط الكذب"، (ترجمة: ماريا لويسا بالسييرو)، دار سيرويلا، مدريد.

- لودفيج فيتغنشتاين (١٩٨٨)، "أبحاث فلسفية"، (ترجمة: ألفونسو جارثيا سواريث و أوليسيس مولينز)، دار كريتيكا، برشلونة.

- (٢٠١٢)، "رسالة منطقية فلسفية"، (ترجمة: جاكوب مونيوث وإيسيدورو ريجيرا)، دار أليانثا إيديتوريال، مدريد.

- سلافوي جيجيك (٢٠٠١)، "تسلط الأوهام"، (ترجمة: فرنثيسكو لوبيث مارتين)، دار آكال، مدريد.



شكر

لا يسعني ختام هذه الصفحات بدو التعبير عن امتناني إلى خوسيه سي بالدس، وخورخي منثانيبا وخايمي رودريجث أورپارتي على قراءتهم الذكية. والشكر موصول أيضًا إلى آدا، التي لولاها لما أنجز هذا الكتاب.

بروفايل

طه زيادة، القاهرة ١٩٧١

مترجم وصحفي مصري

- درس اللغة الإسبانية بكلية الآداب جامعة القاهرة، حيث درس على يد كبار أساتذة الأدب واللغة الإسبانية أمثال، أبي الدراسات الإسبانية محمود علي مكي، ومحمد أبو العطا وغيرهم. يحضّر حاليًّا أطروحة الدكتوراة في الترجمة الصحفية بجامعة سلمنكة. حصل على ماجستير الترجمة (MULCH) من جامعة سلمكنة الإسبانية عام ٢٠١٦، بدرجة امتياز مع توصية بالنشر.

- درس العلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية على يد أساتذة مثل إبراهيم صقر وعبد الله الأشعل

- عمل مترجمًا بسفارة بيرو بالقاهرة خلال الفترة بين ١٩٩٦ و ٢٠٠٧

- عمل محرّرًا صحفيًّا بالقسم العربي بوكالة الأنباء الإسبانية (إفي) خلال الفترة بين ٢٠٠٦ و ٢٠١٢

- يعمل منذ ٢٠٠٧ وحتى الآن مترجمًا صحفيًّا بالقسم الإعلامي بسفارة إسبانيا بالقاهرة

- شارك بالترجمة الفورية والتتبعية في العديد من المؤتمرات الدولية في مصر والخارج

- حصل على جائزة الترجمة من المركز القومي للترجمة وكلية الألسن جامعة عين شمس وسفارة إسبانيا بالقاهرة عام ٢٠١٥

- حصل على منحة بيت المترجم في تراثونا بإسبانيا عام ٢٠١٧، وتقدم لكبار المترجمين من جميع أنحاء العالم

- ترجم مئات المقالات والتحقيقات الصحفية والتحليلية من الإسبانية للعربية ومن العربية إلى الإسبانية لوزارة الخارجية والحكومة الإسبانية خلال فترة عمله بالصحافة.

- يقوم بترجمة وإعداد تحقيقات متنوعة: ثقافية وفنية وسياسية ورياضية واقتصادية بالتعاون مع القسم الإسباني في وكالة الأنباء الألمانية منذ عام ٢٠٠٨

- نشر له العديد من المقالات المترجمة، في مجالات الأدب والسينما عن الإسبانية في الكثير من الصحف والمجلات المصرية والعربية مثل الأهرام العربي، الأخبار، أخبار الأدب، القاهرة، صباح الخير، روزاليوسف، القبس الكويتية، موقع ٢٤ الإماراتي.

- نشر له حتى الآن:

- "أساطير شعبية من آسيا" مشروع لجمع تراث حكايات جنوب شرق آسيا برعاية اليونسكو. عن الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٦

- "الآتي من الزمان أسوأ"، رفائيل سانشيث فرلوسيو ٢٠١٥

- "رحلة مصر وسوريا وفلسطين ١٩٢٧-١٩٢٨: مراسلات إيميليو جارثيا جوميث مع ميجل آسين بالاثيوس"، ترجمة محققة مزودة بأرشيف مصور للأماكن والوقائع والشخصيات

- "شجار قطط: مدريد ١٩٣٦" رواية للكاتب الإسباني إدواردو مندوثا، مسعى للنشر

- ماذا يحدث في كتالونيا؟ للكاتب الإسباني إدواردو مندوثا، مسعى للنشر

- الانفصال، رواية الكاتبة الأرجنتينية سيلفيا أرازي، مسعى للنشر

- أنطولوجيا من المقامات البيروانية للكاتب البيرواني ريكاردو بالما، بيرو ٢٠١٩

- صديق الموت، بدرو أنطونيو دي آلاركون ٢٠٢٠

- ماريانيلا، بنيتو بيريث جلدوس (تحت الطبع)

- أثر الرسالة، رواية الكاتبة الإسبانية، روساريو رارو (تحت الطبع) مسعى للنشر

- مختارات من قصائد الشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو، أحد أعمدة جيل ١٨٩٨ (تحت الطبع)

- ومن أعماله الأدبية

- "حكايات القضبان" مشاهد من الحياة اليومية في مترو القاهرة

- أنشطة أخرى

- ساهم في إعداد وتحقيق وترجمة المادة التاريخية "ملف سقوط الأندلس" برنامج من جزئين ضمن سلسلة أرشيفهم وتاريخنا، على الجزيرة الوثائقية:

https://www.youtube.com/watch?v=Iky0O1W5dSg

- شارك في تدريس العديد من ورش الترجمة المتخصصة: سياسية ودبلوماسية في قسم اللغة الإسبانية وأدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة (٢٠١٣-٢٠١٤)

- درس مادة الترجمة الصحفية بقسم اللغة الإسبانية بكلية الألسن جامعة كفر الشيخ

- مدرس الترجمة الأدبية بقسم اللغة الإسبانية جامعة القاهرة ٢٠٢١

- مدرس الترجمة الاقتصادية والتجارية بقسم اللغة الإسبانية جامعة القاهرة ٢٠٢٢

- لديه أكثر من ١٢٦٠ ساعة تدريس لغة إسبانية وعربية لغير الناطقين بها من معهد بيرلتس للغات

- حاصل على دبلوما إعداد طرق تدريس اللغة الإسبانية لغير الناطقين بها من جامعة سلمنكة الإسبانية

https://www.youtube.com/watch?v=U4y8W2SUmqg

- البريد الالكتروني: rashoudah@yahoo.com

- الواتس آب والمحمول: ٠١٢٢٣٥٥٧٠٢١

القاهرة، أبريل ٢٠٢٢





تاريخ الكذب

أشهد أن هذا العمل الإنساني القيّم، بأفكاره وتأملاته العديدة والكثيفة، سواء التي اتفق أو اختلف معها، أنه يستحق كل جهد الترجمة المبذول فيه. وأشعر بفخر شديد أنني أنجزته في مسيرتي المتواضعة بوصفي مترجمًا. وأتمنى أن أكون وفقت في نقل أفكاره الهاقة، التي لا تقتصر على التاريخ، والإنسان، والاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة، والفلسفة وعلم النفس والفن والسينما، بل تتعداها إلى الحروب والأساطير والأديان والعلوم وغيرها مما يدور حولنا وصولًا إلى ما بعد الحداثة وشبكات التواصل الاجتماعي، وأثرها على إنسان القرن الحادي والعشرين بواقعيته المفرطة وعالم سيولة المعلومات ومقرطة الرأي إلى حد التجاهل.

وفي النهاية، سواء اتفقنا أو اختلفنا مع رأي أو فكرة يحتويها مضمون العمل، فإنها تظل أفكارًا تعبر عن رأي صاحبها الذي اجتهد في بحثها وتدقيقها كما تشي بذلك المراجع الطويلة المستخدمة والموجودة في آخر الكتاب.

أتمنى أن يجد القارئ في العمل متعة الترحال بحرية وتجرد بين عالم من الأفكار بلا أجنحة أو حدود.

المترجم

خوان خاثينتو
مونيوث رنخيل

789921 712568

دار الخان للنشر والتوزيع

info@daralkhan.com

@daralkhan_kw